dp

سيف الله

خالد بن الوليد

رضي الله عنه

تأليف

عمر رضا كحالة

ويليه محاضرة عسكرية

في خطط خالد الحربية التي انتهجها في أوائل فتوح الشام

للمقدم الركن

احمد اللحام

(عنيت بطبعه ونشره)

مكتبة الملاّح

للطبع والنشر والأدوات الكتابية

دمشق - هاتف ١٣٣١٣

Kahhālah, ʿUmar Riḍā

(Sayf Allāh Khalid ibn al-Walid)

سيف الله

خالد بن الوليد

رضي الله عنه

جاهليته وإسلامه ، مشاهده في الغزوات ، جهاده في حروب الرِّدة
حروبه في العراق ، حروبه في فتوح الشام ، وفاته وفضائله

تأليف

عمر رضا كحّالة

الطبعة الثانية

(عنيت بطبعه ونشره)

مكتبة الملّاح
للطبع والنشر والأدوات الكتابية

دمشق - هاتف ١٩٣١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نعيد نشر سيرة البطل العظيم خالد بن الوليد ، بعد أن مضى على طبعتها الاولى ربع قرن ، عسى أن تكون خير عظة ، يتعظ بها النشء في عالمي العرب والاسلام ، فينهجون نهجه في الفروسية والشجاعة ونكران الذات والاستماتة في نصرة الحق والعدالة الاجتماعية ، حقق الله ذلك ونفع بها العرب والمسلمين .

دمشق في ١٣٧٩/٢/٨ هـ ١٩٥٩/٨/١٣ م

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

أما بعد فاننا ما زلنا منذ نشرنا سيرة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ؛ رضي الله عنه ، ونحن نبحث في المكتبات العامة والخاصة عن مؤلفات قديمة في سير رجال الاسلام الذين كان لهم الأثر الطيب والعمل الصالح في إقامة هذا الدين المتين ، وتأسيس تلك الدولة الاسلامية العظمى ، سواء أكان ذلك الأثر في الحرب والسياسة ، أو العلم والكياسة ، وكان من أخص ما نبحث عنه سيرة سيدنا أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرةُ قائده العظيم خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وكنا جدّ حريصين على إذاعة ما نظفر به من تلك السيرة ، لما نرجو في إذاعتها من خيرٍ ، فان في تعريف الخلف ما كان عليه آباؤهم من السلف ما يحملهم على التبصر في ما هم آخذون فيه ، وما هم صائرون اليه ، فيعملون لوصلة ما قطعوا من حبالهم ، وانتهاج ما تنكبوا من سبيلهم .

ولما طال بحثنا على غير جدوى ، وعيينا بالتنقيب من دون أن ندرك المنى ، لجأنا الى طريقةٍ في التأليف نرى أنها الطريقة المثلى : وهي أن يُعمد الى ما تفرق من حوادث الرجل وأخباره في كتب السنن والفتوح والتاريخ وما اليها ، فيجمع بنسق يضم أشتاته ، ويسلك فرائده في نظام أمثالها ، مع نسبة القول الى قائله ، والخبر الى مخبره ، وتلك وإن كانت بطريقة القدماء أشبه ، وبهم أعلق ، فان فيها من طرافة الحديث ما فيه للمطالع فائدة ولذة ، وللباحث غَناءٌ ومَقْنَع .

على هذا السَّنن الواضح ، والمنهاج السويّ ، أخرجنا اليوم هذا الكتاب الذي عهدنا بتأليفه الى صديقنا الفاضل السيد عمر رضا كحالة مؤلف كتاب العالم الاسلامي ، فضمنه سيرة سيدنا خالد بن الوليد وفتوحاته . معتمداً فيه على أصح الكتب العربية التي بلغتها أيدينا من مطبوعات الشرق والغرب ، مشيراً في كل خبر الى المصدر المستقى منه ، والكتاب المنقول عنه . راجين من الله سبحانه التوفيق وحسن الثواب ، ومن جمهرة المطالعين القبول ووافر الاقبال .

دمشق : غرة جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ هـ   عبير اخوان

الفصل الاول

خالد بن الوليد في الجاهلية

البيئة التي عاش فيها خالد — نسبه — منزلة أسرته
في قومه — مركزه الحربي في قريش — شبهه
الخلقي بعمر بن الخطاب — اسلامه

البيئة التي عاش فيها خالد

اختلف الباحثون في حال بلاد العرب قبيل الاسلام ، فقال بعضهم: إن هناك نهضةً تقدمت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن العرب كانوا على استعداد لقبول دعوة الاسلام ، وأنكر آخرون كل ما يطلق عليه كلمة استعداد ونهضة ، وجعلوا العرب في هوة سحيقة من الانحطاط الأدبي والخلقي والسياسي والديني الخ .

والحق يقال ان حال بلاد العرب قبيل الاسلام تختلف باختلاف نواحيهم السياسية والاقتصادية والأدبية والخلقية والدينية ، فكان لكل ناحية فعلها وأثرها في نفوسهم .

أما حالتهم السياسية فان الحبشة قد ملكوا اليمن ثم خلفهم الفرس عليها فأذاقوا سكان البلاد صنوف العذاب والاضطهاد . واذا انتقلنا الى الشمال نجد ثلاث إمارات قد أسست : اثنتان منها في العراق والشام تحت حماية الفرس والروم ، والأخرى مستقلة رفضت الخضوع لاجنبي .

وأما في مكة فكانت مناصب للقرشيين منها السِّدانة والسِقاية والرِفادة والقيادة والندوة والمشورة والحكومة وما اليها من المناصب الادارية والحربية والدينية التي كانت تتمتع بها قريش .

وأما الحالة الاقتصادية فكانت مكة في أواخر القرن السادس مدينة كثيرة التجارة بفضل الاسواق التي أقيمت فيها ، وكان العرب يقصدونها من أطراف الجزيرة والشام والعراق وغيرها للتجارة ولزيارة الكعبة المعظمة ، وكان في مكة فئةٌ منها سَدنة الكعبة وأهل الندوة ، وكانوا يستفيدون مالاً من ورود الحجاج وإقامة الاسواق ، ويستمدون نفوذاً في نفوس العرب وقوةً في سيادتهم المعنوية ، وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج ورُواد الاسواق أنهم كانوا يحتاطون لأمرهم فيعدون بضائعهم قبل قدوم أشهر الحج ، وافتتاح سوق عكاظ ، ويقومون برحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف الى الشام وفلسطين وجنوبي بلاد العرب . ليبتاعوا من هذه البلاد ما تدعو اليه الحاجة من البضائع ، وليبيعوا منتجات بلادهم .

وأما الحالة الأدبية فقد نبغ فيهم عددٌ من الشعراء والخطباء ، وأُنشئت الاسواق لتبادل الافكار الأدبية واللغوية وغيرها ،فتنافست لهجات العرب حتى كتب الفوز للغة قريش وأصبحت أفصح لغات العرب.

وأما حالتهم الخُلُقية فقد فشا في العرب كثير من العادات المنكرة كشرب الخمر ، ولعب الميسر ، ووأد البنات ، والسلب والنهب ، وكثيراً ما كانت الكلمة الواحدة تفضي الى القتل ، وبلغت روح الانتقام درجةً مُرَوِّعة ، حتى إن النساء ما كن يرضين بسوى صبغ ملابسهن بدم القتيل وأكل قلبه وكبده .

وأما حالتهم الدينية فان منهم من تأوّل الاله ببعض الحيوان لكثرة نفعه أو شدة ضره، ومنهم من مثّله في الكواكب لظهور أثرها،ومنهم من حسبه في الاشجار والأحجار لاعتبارات شتى ، وأما اليهودية والنصرانية فقد أُلبستا لباساً غير لباسهما فأدخل فيهما التحريف والتبديل بانحراف أهلهما عن جادة الصواب .

نسبه

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو[1] بن مخزوم بن يَقَظَة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشي المخزومي ، وأمه عصماء وهي لُبابة الصغرى ، وقيل الكبرى ،

(١) في طبقات ابن سعد : عمير ، وفي الاستيعاب وفتح الباري : عمر

والأول أصح ، وهي بنت الحارث بن حَزْن بن بُجير بن الهُزَم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية ، وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخت لُبابة الكبرى زوج العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خالة أولاد العباس الذين هم من لُبابة .

منزلة اسرته ووالده في قومه

كان أبوه الوليد بن المغيرة سيداً من سادات قريش ، وجواداً من أجوادها ، وكان يلقب بالوحيد ، ولما مات أرخت قريش بوفاته لاعظامها إياه ، حتى كان عام الفيل فجعلوه تاريخاً [1] .

هكذا ذكر ابن دأب ، وأما الزبير بن بكار فذكر أنها كانت تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة (عم خالد) سبع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة فأرخوا بها اه وهذا هو القول المعتمد لأن الوليد عاش إلى ما بعد البعثة النبوية ، وسيمرّ بك قريباً بعض أخباره وما نزل فيه من القرآن .

وقيل : إن قريشاً كانت تلقب الوليد بن المغيرة العَدْل ، لأن قريشاً كانت تكسو الكعبة في الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عَدل (أي مساوٍ) لهم جميعاً في ذلك [2] .

---

(١) الأغاني ج ١٥ (٢) الأغاني ج ١

روى الزبير بن بكَّار عن معروف بن خرَّبُوذ أنه قال : الذين انتهى إليهم الشرف من قريش ووصلةُ الارحام عشرة نفرٍ من عشرة بطون : من هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وأسد ، وعبد الدار ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وسَهْم ، وجُمَح .

وذكر ابن هشام ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا : فنقول مجنون، قال: ماهو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالُجِه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر، قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه، وهزجه ،وقريضه، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عَقدهم، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لَعِذق ؛ وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف

أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته ، فتفرّقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، فأنزل الله تعالى في الوليد وفي قوله ذلك(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) الى (فَقَالَ إِنْ هذَا إِلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ . إِنْ هذا إِلاَّ قولُ البَشَرِ)[1]

واعترض الوليد يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة ، وكان مع الوليد الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السّهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم ، فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فان كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم (قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) الى آخر السورة .

وقال الوليد بن المغيرة : أينزل على محمد وأُتْرك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ؟ فنحن عظيما القريتين فأنزل الله تعالى فيه : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلى

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١

رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الى قوله (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[1]

وحدث الأصمعي عن رجل من هذيل قال : دخل أبو خراش الهذلي مكة وللوليد بن المغيرة المخزومي فرسان يريد ان يرسلها في الحلبة ، فقال للوليد : ماتجعل لي إن سبقتها؟ قال: إن فعلت فهما لك ، فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما فأخذهما[2]

ومما تقدم يمكن القول بأن أسرة خالد بن الوليد عريقة في المجد والشرف والسؤدد، وبأن لابيه المكانة العظمى والكلمة النافذة في قومه

مركزه الحربي في قريش

كان خالد رضي الله عنه أحد أشراف قريش وكان قائداً عظيماً من قواد الحرب فيهم ، فكانت اليه القبة وأعنة الخيل : أما القبة فكانوا يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فانه كان المقدم على خيول قريش في الحرب ، وشهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة .

وذكر المؤرخون وأصحاب السير أن خالد بن الوليد كان على ميمنة المشركين في غزوة أحد ، وكان على ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، وكان لواؤهم مع بني عبد الدار ، فجعل رسول الله صلى الله عليه

(١) سيرة ابن هشام ج ١ (٢) الأغاني ج ٢١

وسلم الرماة وهم خمسون وراءه، وأعطى الراية عليًّا رضي الله عنه وانهزم المشركون، فطمعت الرماة في الغنيمة وفارقوا مكانهم الذي أمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم فأتى خالد مع خيل المشركين من خلف، ووقع الصارخ أن محمداً قتل، وانكشف المسلمون، فقتل من المسلمين سبعون ومن المشركين اثنان وعشرون، وأصابت حجارة المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقع، وأصيبت رباعيته وشج وجههُ وكُلِمت شفته.

وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية في رمضان، وكانت الحديبية في شوال (سنة ست والجمهور على أنها في ذي القعدة)، حتى إذا كان بعسفان [1] لقيه رجال من بني كعب فقالوا: يارسول الله إنا تركنا قريشاً قد جمعت أحابيشها تطعم الخزير [2] يريدون أن يصدوك عن البيت، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا برز من عسفان لقيهم خالد بن الوليد طليعة لقريش. فاستقبلهم على الطريق، فأخذ بهم رسول الله ﷺ بين سروعتين [3] ومال عن سنن الطريق حتى نزل الغَميم [4]

(١) عُسفان مَنهَلَة من مناهل الطريق بين الجُحفة ومكة، وهي على مرحلتين من مكة على طريق المدينة والجُحْفَة على ثلاث مراحل.

(٢) الخزير: شبه عَصيدة بلحم.

(٣) السَّرْوَعة كالزروحة زنة ومعنى وهي الرابية الصغيرة أو الأكمة المنبسطة

(٤) الغَميم: موضع بين مكة والمدينة.

شبهه الخلقي بعمر بن الخطاب

كان سيدنا خالد بن الوليد يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خَلقه ، ويدل على ذلك ماذكر في الاصابة والاغاني وغيرهما من أن عمر بن الخطاب خرج سَحَراً فلقيه شيخ فقال له : مرحباً بك يا أبا سليمان ، فنظر اليه عمر فاذا به عَلْقَمَةُ بن عُلاثَة ، فرد عليه السلام فقال له علقمة : عزلك عمر بن الخطاب ؟ فقال له عمر : نعم ، قال : ما يشبع لا أشبع الله بطنه ، قال له عمر : فما عندك ؟ قال ما عندي إلا السمع والطاعة ، فلما أصبح دعا بخالد ، وحضر علقمة بن علاثة ، فأقبل عمر على خالد فقال له : ماذا قال لك علقمة ؟ قال : ما قال لي شيئاً ، فقال: اصدقني ، فحلف خالد بالله ما لقيه ولا قال له شيئاً، فقال له علقمة : حلاً أبا سليمان ، فتبسم عمر فعلم خالد أن علقمة قد غلط ، فنظر اليه وفطن علقمة ، فقال : قد كان ذلك أمير المؤمنين فاعف عني عفا الله عنك ، فضحك عمر فأخبره الخبر .

اسلامه

إختلف الرواة في وقت إسلامه وهجرته فقيل : هاجر بعد الحديبية وقبل خَيْبر ، وكانت الحُديبية في ذي القعدة سنة ست، وخيبر بعدها في المحرم سنة سبع ، وقيل : بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني قريظة ، وليس بشيء ، وقيل بل

كان إسلامه سنة ثمان وهو ماحدث به خالد نفسه فيما رواه الواقدي عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لما أراد الله بي من الخير ماأراد ، قذف في قلبي حب الاسلام وحضرني رشدي وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا وانصرف وإني أرى في نفسي أني موضع في غير شيء وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعُسْفان فقمت بازائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر إماماً ، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلي بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت : الرجل ممنوع ، وافترقنا وعدل عن سَنَنِ خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحُديبية ودافعته قريش بالراح ، قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ الى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده ؛ فأخرج الى هرقل ؟ فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ، فأقيم في عجم او أقيم في داري فيمن بقي ، وبينما أنا على ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عُمْرة القضية، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة ، فطلبني فلم يجدني ، فكتب إلي كتاباً فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك، ومثلُ الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام، ولو كان جعل نكايته وحدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطنُ صالحة .

قال : فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الاسلام ، وسرتني مقالة رسول الله ﷺ ، فقال خالد : ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدْبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت إن هذه : الرؤيا حق ، فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرنها إلى أبي بكر ، قال: فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك للاسلام ، والضيقُ الذي كنت فيه الشرك . فلما أجمعت الخروج الى رسول الله ﷺ قلت : من اصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه ، فان شرف محمد شرفٌ لنا ، فأبى علي أشدَّ الاباء وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً ، فافترقنا ، فقلت : هذا رجلٌ موتور يطلب وتراً ، (أي ثأراً) ، قتل أبوه وأخوه ببدر ، قال : فلقيت عكرمة بن أبي

جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان ، فقلت له : فاطوِ ما ذكرت لك ، قال لا أذكره ، وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي تخرج إليّ إلى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة ، فقلت : إن هذا لي لصديق فلو ذكرت له ما أريد ، ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما عليّ وأنا راحل من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحْرٍ لو صُبّ عليه ذَنوبٌ من ماء خرج ، وقلت له نحواً مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة وقال : : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفج مناخة (؟) إن سبقني أقام ، وإن سبقته أقمت عليه ، قال : فأدلجنا بسُحرةٍ فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأْجَج[1] ؛ فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة[2] ، فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال : مرحباً بالقوم ، قلنا : وبك ، فقال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الاسلام واتباع محمد ، قال : وذاك الذي أقدمني ، قال : فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركائبنا ، وأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرّ بنا ، فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي فقال : أسرع فان رسول الله ﷺ أخبر بقدومك فسُر

(١) يأجج : مكان على ثمانية أميال من مكة

(٢) الهدة : موضع بين مكة والطائف .

بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي فطلعت ، فما زال يبتسم إليَّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طَلقٍ ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً ورجوت أن لا يُسلمك إلا لخير ، قلت : يا رسول الله قد رأيتَ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق ، فادع الله يغفرها لي ، فقال : الاسلام يَجُبُّ ما كان قبله ، قلت يارسول الله على ذلك ، فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك ، قال خالد : وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا في صفر من سنة ثمان ، فو الله ما كان رسول الله يوم اسلمت يعدِلُ بي أحداً من اصحابه فيما حزَبه .

وقال الزبير بن بكّار : هاجر بعد الحُدَيْبية خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعثمان بن ابي طلحة فقال رسول الله ﷺ حين رآهم : رَمَتكم مكة بأفلاذ كبدها ، ولم يزل رسول الله ﷺ يوليه الخيل ويكون في مقدمته في مهاجرة العرب[1] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

الفصل الثاني

كلمة في الحرب

يجدر بنا قبل أن نتكلم عن حروب خالد وغزواته أن نذكر شيئاً عن الحرب تتميماً للبحث فنقول:

الحرب هي نضال بين قومين، واختلاف بين فريقين، يفصل بقوة السلاح، وهي قديمة كقدم الانسان، وطبيعة غريزة في البشر لا تخلو عنها أمة.

قال ابن خلدون: إن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكلٍ منهما أهل عصبيته، فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب، وهو أمر طبيعي في البشر لاتخلو عنه أمة ولا جيل، وسبب هذا الانتقام في الاكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب لملك وسعي في تمهيده.[1]

(١) مقدمة ابن خلدون.

وأما تاريخ الحرب فقديم جداً ومعروف منذ الأزمنة الاولى ، وأقدم ذكر لفن الحرب في الشرق يوجد في العهد القديم من الكتاب المقدس ، وقد اشتهر الماديون والفرس من العهد الاول بكثرة جيوشهم وفرسانهم ومركباتهم المسلحة بالمناجل ، واشتهر الهنود بأفيالهم ، ومن آسيا انتقل هذا الفن الى اوربا فنجح كثيراً عند اليونان أولاً ، ولاسيما الاسبرطيين والأثينيين والطيوبيين والمكدونيين ، ثم عند الرومان فأتقنوا أسلحة الرمي والضرب والطعن .

ولما كثرت غزوات البرابرة في القرون المتوسطة انحط فن الحرب ، ولم يكن للفرسان أعمال مشهورة إلا بالسلاح الابيض والسهام ونزال الافراد ، لكن لم يكن لهم رأي ولا تدبير في الاجتماع وتنظيم الجيوش .

والحرب بقية من بقايا تنازع الطوائف البشرية على الحياة وما يتعلق بها من الشؤون ، والوجود كله في حالة تدافع أو حرب مستمرة .

والحرب تعتبر ضرورية للنوع البشري مادام لم يوهب من القوى العقلية مايستطيع به تلافي أسباب الخصام بينه وبين جيرانه بالعدل .

ولا مبرر لوقوع الحرب إلا في حالة دفاع عن حق يراد أن يغتصب ، أو عرض يقصد أن ينتهك ، أو دين حق يرام له الجحود ، وما عدا هذا فالحرب إثم من أكبر الآثام ، وشر من أعظم الشرور ولا يجوز التغني بآثارها ، ولا التباهي برجالها .

ولقد كانت الحرب مشروعة في شريعة إبراهيم عليه السلام ، فقد جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام حارب ملوك المشرق عندما كسروا ملوك السدوميين .

وكذلك موسى عليه السلام ، فقد شرعت الحرب في شريعته على وجه بلغ من الشدة ما بلغ ، فقد جاء في الأصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج أن الله سبحانه وتعالي أمره أن يبيد عن وجه الارض كثيراً من الشعوب وأن يكسر أصنامهم .

وكذلك داود عليه السلام . فقد شرعت الحرب في شريعته على وجه شديد أيضاً ، كما ورد في صموئيل الاول والثاني ، فانه حارب العمالقة واسترد منهم ما سلبوه من مدينته كما حارب غيرهم من الامم (١)

وجاء في الكتاب الخامس من الزبور : إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً (٢)

وكذلك شرعت الحرب في شريعة عيسى عليه السلام ، بدليل قوله في إنجيل متى عدد ١٣٤ لا تظنوا أني جئت لا لقي سلاماً على الارض ، ما جئت لا لقي سلاماً بل سيفاً (٣)

وأما الاسلام فقد لطف الحرب الى آخر حد يمكن الوصول اليه

---

(١) رسالة في بيان كيفية انتشار الأديان لرفيق العظم

(٢) الاسلام خواطر وسوانح للكونت دي كاستري

(٣) رسالة في بيان كيفية انتشار الاديان لرفيق العظم .

من دون اخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً ، وشرط على الغزاة شروطاً كلها ترمي الى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الانسانية .

فقد مرَّ على النبي ﷺ بمكة نحو ثلاث عشرة سنة وهو قائم بالدعوة الى دينه ، وقد لقي من المشركين صنوفا من أنواع الاذى والفتنة ، فمن ذلك ما كان يلحقه هو ، ومنها ما كان يلحق أصحابه ، وكانوا يصدون الناس عن استماع القرآن وإجابة الدعوى بما كانوا يلفظونه من الاكاذيب التي تكفل القرآن بسردها والرد عليها ، والسور المكية حافلة ببيان ذلك .

وقد اضطر المسلمون المكيون أن يهجروا مكة الى بلاد الحبشة فراراً بدينهم ، إذ لم يكن لهم من القوة مايدفع عنهم ذلك العداء الذي لا سبب يبرره .

وشاء الله أن يجيب الدعوة إلى الاسلام عرب يثرب[1] من الأَوْس والخَزْرَج ، وقد بايعهم رسول الله ﷺ وسلم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فهاجر اليهم بعد أن اتفق أهل مكة على اغتياله ، ومن أول مقدمه الى المدينة شرع الجهاد .

والجهاد لغة المشقة ، وشرعاً بذل المجهود في قتال الكفارمباشرة

(١) يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أو معاونة بالمال أو الرأى أو بتكثير السواد أو غير ذلك ، والجهاد مصدر جاهدت العدو إذا قابلته في تحمل الجهد ، أو بذل كل منكما جهده أى طاقته في دفع صاحبه ، ثم غلب في الاسلام على قتال الكفار [1] .

قال ابن قيم الجوزية : لما بعث الله رسول الله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعد أكثر الاديان طوعاً واختياراً ، ولم يكره أحداً قط على الدين ، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله ، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ، ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لامر ربه سبحانه حيث يقول « لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ » وهذا نفي في معنى النهي ، أي لا نكرهو أحداً على الدين .

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط وأنه إنما قاتل من قاتله ، وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيما على هدنته لم ينقض عهده ، بل أمره تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى : « فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ » .

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم ، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدأوه بالقتال قاتلهم ، فمن على بعضهم وأجلى بعضهم ، وقتل بعضهم ، وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بقتال

---

(١) شرح مشكاة المصابيح للقاري ج ٤ وفتح العلام بشرح بلوغ المرام ج ٢

حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده ، فعند ذلك غزاهم في ديارهم ، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك ، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ، ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله ، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم .

والمقصود أنه ﷺ لم يُكره أحداً على الدخول في دينه البتة ، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً ، فأكثر أهل الارض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً ، فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية ... ثم دخلوا في الاسلام من غير رغبة ولا رهبة . وكذلك من أسلم من يهود المدينة وهم جماعة كثيرون ... لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف ، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم ومحاربة أهل الارض لهم ، على غير سوط ولا نَوْط ، بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نفعهم بالمال والبدن ، مع ضعف شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم ... الخ .

فالاسلام إذن قام بالكتاب الهادي ، ونفذه السيف الناصر .

فما هو إلا الوحي أو حدُّ مرهفٍ يقيم ظُباه أخدعَيْ كلِّ مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقلٍ وهذا دواء الداء من كل جاهل[1]

وبين محمد الخضري مشروعية القتال فقال : أُذن للمؤمنين بالقتال لأمرين :

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن قيم الجوزية .

الاول الدفاع عن النفس عند التعدي ، والثاني الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه من العقيده ، أو بصد من أرادة الدخول في الاسلام عنه ، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته [1]

وقصارى القول ان الاسلام سن سننا في الحرب لم تكن معروفة من قبله فأذن المسلمين أن يقاتلوا أعداءهم بعد أن ظلموا وأُخرجوا من ديارهم ، فحضهم على بذل النفس والمال وأعظم أجر المجاهدين في الدنيا والآخرة.

وفي الاسلام طائفة من الآيات والاحاديث تدل دلالة صريحة على الروح السلمية التي يتمتع بها الاسلام : منها تخيير الأمم المغلوبة باتباع إحدى خصلتين : الاسلام أو الجزية . ومنها الجنوح إلى السلم وعدم التعدي وحفظ العهد ومنع الغدر والاحراق والمثلة وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ والرسل .

وبين الاسلام حكم أسرى الحرب وخير أولياء الامر في المن وهو العفو والارسال من غير شيء ، أو الفداء وهو أخذ العوض وذلك بعد أن يثخنوا في الأرض ، إلى آخر ما هنالك من قواعد الحرب والسلم وأحكامها المشروعة في الاسلام .

ولقد اعترف المنصفون من كبار علماء الغرب بتلك الروح

(١) تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد الخضري

السامية المشتملة عليها أحكام الاسلام كما شهدوا للفاتحين من المسلمين بحسن المعاملة والعدل ورعاية الحقوق ، وإنهم ليكادون يقرون بان دين الاسلام لم يقم بالسيف فحسب وإليك نبذة من أقوالهم في ذلك :

قال هنري ماسه : ويتصف محمد (ﷺ) بالرحمة الخالصة والحزم في الرأي والاعتقاد ، ويضاف اليه أنه رجل حكومة وأحياناً رجل سياسة وحرب ، ولكنه لم يكن ثائراً بل بالعكس كان مسالماً(١) .

وقال سيديو : وأما أخلاق محمد فكانت غاية في الكمال ، منها عفوه عن ألد اعدائه بعد فتح مكة ، وحلمه في الأخذ بحقوق الحرب من القبائل(٢) .

وقال ديفو بنورت : إن من الحماقة أن نظن أن الاسلام قام بحد السيف وحده ، لأن هذا الدين يحرم سفك الدماء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وقد أمر بالشورى ونهى عن الاستبداد(٣) .

وقال فولتير (Voltaire) : إذا نظرنا إلى جميع المشرعين الذين حملوا إلى هـذا العالم شرائعهم نجد محمداً ينفرد عنهم بنشر دينه بالفتوحات ، نعم إن كثيراً من الشعوب حملت معتقداتهم إلى شعوب أخرى ، ولكنها أيدتها بالنار والحديد ، ولم يكن قط مؤسس شريعة فاتحاً ،

---

(١) الاسلام لهنري ماسه H. Maasé l'islam

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيديو

(٣) مشكاة العلوم والبراهين في إبطال أدلة الماديين لأحمد فوزي الساعاتي

وتلك ميزة امتاز بها المسلمون ، وهي لأقوى البراهين على أن اللاهوت قد استوفى نصيبه من العناية التي تعهدها نبي هذه الشريعة[١]

وقال غوستاف لوبون : إن القرآن لم ينتشر إلا بالاقناع لا بالقوة، فاستطاع بذلك أن يجذب إليه الشعوب وتدين به ، تلك الشعوب التي تسلطت فيما بعد على العرب كالترك والمغول[٢].

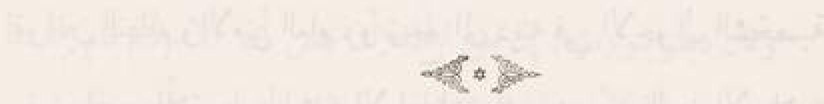
وتكلم هنري دي كاستري عن الذميين فقال : كان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين وهم ثلاثة: ذميون ، ومستأمنون ، ومحاربون فالاول منهم من سكن بلاد المسلمين ودان لسلطة الحاكم الاسلامي وأدى الجزية اليه ، يعبد الله على دينه ولا يكره على الاسلام ،ويخضع لقوانين النظام والامن العام ، ويرجع الى دينه في الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ، إلا إذا اشترك معه مسلم فالدين الاسلامي ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة ذمي في معنى الخسة والجبانة ، لأن معناها الحقيقي المؤمَّن .

والمستؤمن هو الغريب العابر السبيل ، وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة ، وأما المحارب فهو من كان في بلاد تجاهر بالعداوة للاسلام ، أو لم تتعاقد مع المسلمين على ما يضمن لاهلها

(١) العالم جزيرة العرب لدفرجه Desverger - l'univers - l'Arabie

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون G. le Bon - Las civilisation - des Arabes

الامان في ديارهم ، فان وجد فى بلد مسلم وشهر السلاح في وجهه خير بين الاسلام أو الاعدام ، وما عدا ذلك فهو آمن إن أدى الجزية ، وكان من وراء المسالمة ولين المعاملة تقدم الاسلام حثيثا ، وسهولة استعلاء فاتحيه ، لما سبقه من ظلم أكاسرة المملكة الشرقية التي أبغضها الناس وسئموا الحياة منها[1]



(١) الاسلام خواطر وسوانح

الفصل الثالث

مشاهد خالد في الغزوات والبعوث النبوية

غزوة مؤتة — فتح مكة — بعثه الى بني جذيمة — بعثه الى أكيدر دومة
بعثه الى بني الحارث — بعثه الى اليمن

غزوة مؤتة[1]

كان سبب هـذه الغزوة أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عمير رسولاً الى ملك بصرى بكتاب، كما بعث إلى سائر الملوك، فلما نزل مؤتة عرض له عمر بن شرحبيل الغساني فقتله[2]

فلما بلغ النبيّ ﷺ خبرُ قتل رسوله الحارث بعث بعثه الى مؤتة في جمادى الاولى من سنة ثمان، وفي البعث خالد بن الوليد. واستعمل عليهم زيد بن حارثة. وقال: إن أُصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس، فان أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فتجهز الناس. ثم تهيأوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراءَ رسول الله ﷺ وسلموا عليهم.

(١) مُؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وقيل: مؤتة من مشارف الشام
(٢) تاريخ ابي الفداء ج ١

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان [1] فبلغ الناس أن هِرَقْل قد نزل مآب [2] في مائة الف من الروم، وانضمت اليه المستعربة من لَخْمٍ وجُذام وبَلْقين وبَهراء وبَلِيّ في مائة الف منهم، عليهم رجل من بلي

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع الناس عبد الله ابن رَوَاحة وقال: ياقوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون: الشهادة، ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: صدق ابن رواحة. فمضى الناس فقال ابن رواحة في محبسهم ذلك:

جلبنا الخيل من أجإٍ [3] وفَرْعٍ ... تغرُّ من الحشيش لها العُكومُ

حَذَوْناها من الصوّان سِبْتاً ... أزَلَّ كأنَّ صفحته أديمُ

أقامت ليلتين على مَعانٍ ... فأعقبَ بعد فترتها جمومُ

---

(١) معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء

(٢) مآبُ: مدينة في طرف بادية الشام من نواحي البلقاء

(٣) أجَأ أحد جبليْ طيء وفيه قرىً كثيرة، وفرْعٌ أطول جبل بأجأ وأوسطه، وهذه رواية ياقوت في معجم البلدان ورواية الطبري: (جلبنا الخيل من آجام قُرْحٍ) وقُرح: سوق وادي القرى.

فرُحنا والجياد مسوَّماتٌ تنفسُ في مناخرها السَّمومُ
فلا وأبي مآب لنأتينها وإن كانت بها عربٌ ورومُ
فعبَّأنا أعنّتها فجاءت عوابسَ والغبارُ لها بريمُ
بذي لَجَبٍ كأن البَيْض فيه إذا برزت قوانسها النجومُ

ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البَلْقاء[1] لقيتهم جموع هِرَقْل من الروم والعرب بمشارف[2] ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى مُؤْتة ، فالتقى الناس عندها فتعبأ المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عُذْرَة يقال له قُطْبة بن قَتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار يقال له عَبايَةُ بن مالك[3]

فالتقى المسلمون والروم بسيفيهما ، فقاتل زيد حتى قتل ، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل[4]

ثم اتفق جند المسلمين على خالد بن الوليد ، فأخذ الراية ورجع بالناس وقدم المدينة[5] ، فجعل الصبيان يَحْثون عليهم التراب ويقولون: يا فُرّارُ فررتم في سبيل الله ، فقال النبي ﷺ : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله .

---

(١) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى .
(٢) المشارف : قرى قرب حوران تنسب إليها السيوف المشرفية .
(٣) تاريخ الطبري ج ٣ (٤) معجم البلدان (مؤتة) .
(٥) تاريخ أبي الفداء ج١

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

فلا يُبعدنَّ اللهُ قتلى تتابعوا بمُؤْتةَ منهم ذو الجناحين جعفر[1]
وزيدٌ وعبد الله هم خيرُ عصبةٍ تواصوا وأسباب المنية تنظر

وسمع قيس بن أبي حازم خالداً يقول : لقد انقطع في يدي يوم مُؤْتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[2] .

فتح مكة

كان السبب الباعث على فتح مكة نقض الصلح الذي كان منعقداً بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فقد كانت خُزاعة في عَقد النبي ﷺ ، وبنو بكر في عَقد قريش فلقيت بنو بكر خُزاعة سنة ثمان فقتلوا منهم وأعانهم على ذلك جماعة من قريش[3] فعدَّ ذلك رسول الله ﷺ نقضاً للعقد فسار حتى دنا من مكة فاستأمن أهلها سوى نفر يسير .

وأما خالد بن الوليد فان رسول الله ﷺ أمره أن يدخل من اللِيط[4] في بعض الناس ، فكان معه أسلَمَ و غِفار ومُزينة وجُهينة وقبائل من العرب ، وكان خالد على المُجنِّبة اليمنى .

---

(١) معجم البلدان (مؤتة) (٢) أخرجه البخاري .
(٣) تاريخ أبي الفداء ج١
(٤) الليط : بالكسر أسفل مكة .

ونهى رسول الله ﷺ جنوده عن القتال وقال لخالد والزبير حين بعثهما : لا تقاتلا إلا من قاتلكما[1] ، إلا أن خالد بن الوليد لقيه عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وقد جمعوا أناساً بالخندمة[2] ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة ، فتسلحوا وقالوا : لا يدخلها محمد إلا عنوة ثم خرج خالد بن الوليد فقاتلهم فقتل من المسلمين كُرْزُ بن جابر الفِهري وخُنَيسُ بن خالد ، وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا ، وأصيب أيضاً سلمة بن الميلاء ، من خيل خالد ، وأصيب من المشركين أُناسٌ قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل ثمانية وعشرين وقيل أربعة وعشرين رجلاً من قريش ، وأربعة نفرٍ من هُذَيل ، ويقال : قتل يومئذ ثلاثة وعشرون رجلاً من قريش ، وانهزم الباقون فاعتصموا برؤوس الجبال وتوغلوا فيها[3]

ثم خرج حِماس بن قيس أحد بني بكر منهزماً ، وقد كان أعدّ سلاحاً ليقاتل به المسلمين فقالت له زوجته : ما تصنع بهذا السلاح ؟ فقال : أُقاتل به محمداً وأصحابه ، فقالت : والله ما أرى أن أحداً يقوم لمحمد وأصحابه فقال والله إني لأرجو أن أُخدِمكِ بعضهم ، وخرج

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ . (٢) خندمة : جبل بمكة

(٣) فتوح البلدان

فقاتل مع من بالخَنْدَمة حتى انهزم فدخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقي عليَّ بابي ؛ قالت : ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخَنْدَمَهْ ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمهْ
وحيث زيدٌ قائم كالموتَمَهْ ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمهْ
يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا تسمع إلا غمغمهْ
لهم نهيتٌ خلفنا وهمهمهْ ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمهْ[1]

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة رأى إمرأة مقتولة فقال لحنظلة الكاتب من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليد ، فقال له : أدرك خالداً فقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل إمرأة أو وليداً أو عسيفاً والعسيف الاجير[2] وبعث إلى خالد يقول : ماحملك على القتال ؟ فقال : يارسول الله أتاني رسولك يأمرني بذلك ، فقال للرسول : ماحملك على ذلك ؟ فقال : يارسول الله أرأيت إن كنت أمرتني أن آمره أن لا يقتل أحداً ، فذهب وهمي إلى أن أقول له : اقتل من لقيت لشيء ، أراده الله ، فكف عنه رسول الله ﷺ

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى قريش : مه أُغلبتم ؟ فقالوا : غلبنا والله ، فقال ؛ سأقول كما قال أخي يوسف (لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ

---

(١) معجم البلدان (الخندمة) وتاريخ الطبري ج ٣

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري .

ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ) فقالوا ؛ وصلتك الرحم (١)

وبعد أن تم فتح مكة أمر النبي ﷺ بهدم الاصنام بمكة، فبعث خالد بن الوليد إلى العُزّى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها فخرج اليها في ثلاثين فارساً من أصحابه انتهوا اليها فهدمها (٢)

وكانت العزى بنَخْلة (٣) ، وكانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها، وكانت سدنتها من بني شيبان ، من بني سليم حلفاء بني هاشم ، فلما سمع صاحبها بمسير خالد رضي الله عنه اليها علق عليها سيفه وأسند في الجبل الذي هي اليه فأصعد فيه وهو يقول ؛

أيا عُزّ شدّي شدةً لاشوى لها على خالدٍ ألقي القناع وشمري

ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالداً فبوئي بإثمٍ عاجل أو تنصري

فلما إنتهى اليها خالد هدمها ثم رجع الى رسول الله ﷺ (٤)

فقسم النبي ﷺ مالها .

بعث خالد بن الوليد الى بني جذيمة

لما فتح النبي ﷺ مكة بعث السرايا حول مكة سنة

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

(٣) نخلة : هي الشامية وهي واديان على ليلتين من مكة .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣

ثمان إلى الناس يدعوهم إلى الاسلام ، فبعث خالد بن الوليد في سرية الى بني جذيمة داعياً الى الاسلام ولم يبعثه مقاتلاً [1] وأمره أن لا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً أو سمع أذانا [2] ومعه قبائل العرب سُلَيم بن منصور ومُدْلِج بن مُرّة وغيرهم ، فنزلوا على الغُمَيْصاء[3] وقيل : كان عدد المهاجرين والانصار وبني سُليم ثلاثمائة وخمسين رجلاً [4] وأما بنو جَذِيمة فقد كانوا أصابوا في الجاهلية عوف ابن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة ، وذلك أن عوفا أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة وعفان بن أبي العاص أبا عثمان بن عفان قد خرجوا تجاراً الى اليمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر كان هلك باليمن الى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا الى أهل الميت فأبوا عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذه وقاتلوه ، فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ومال عوف بن عبد عوف فانطلقوا به ، وقتل عبد الرحمن بن عوف خالد بن

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ وتاريخ الطبري ج ٣

(٢) الأغاني ج ٧

(٣) الغميصاء : موضع في بادية العرب قرب مكة كان يسكنه بنو جذيمة

(٤) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ١

هشام قاتل أبيه ، فهمت قريش بغزو بني جَذيمة ، فقالت بنو جذيمة : ما كان مصاب أصحابكم على ملأ ٍ منا (أي تشاور) ، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ،فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم ٍ أو مال فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب[1]

وقيل : إن سبب قتل بني جذيمة القرشيين أن بني عامر وكان يقال لهم لَعَقةُ الدم وكانوا ذوي بأس شديد جاؤوا فقالوا للقرشيين : إياكم أن يكون معكم رجل من فَهم ٍ ، لأنه كان له عندهم ذَحْلٌ (أي ثأر) قالوا : لا والله ماهو معنا ، وهو معهم ، فلما راحوا أدركهم العامريون ففتشوهم ، فوجدوا الفَهْمي معهم في رحالهم ، فقتلوه وقتلوهم، وأخذوا أموالهم فقال راجزهم :

إن قريشاً غدرت وعاده ★ نحن قتلنا منهم بغاده [2] ★ عشرين كهلا ما لهم زياده .

وأرادت قريش قتالهم فخذلتهم بنو الحارث ابن عبد مَناة فلم يفعلوا شيئاً ، وكان خالد بن عبيد الله أحد بني الحارث بن عبد مناة فيمن حضر الوقعة هو وضرار بن الخطاب ، فأشار ذلك ضرار بقوله :

دعوت الى خُطة ٍ خالداً ... من المجد ضيّعها خالد

فوالله أدري أضاهى بها ... من النم أم صدره بارد

(١) سيرة ابن هشام ج ٣

(٢) غادة : موضع

ولو خالد عاد في مثلها لتابعه عنق وارد

وقال ضرار أيضاً :

أرى ابنَي لؤي أسرعا أن تسالما وقد سلكت أبناؤها كل مسلك

فان أنتم لم تثأروا برجالكم فدركوا الذي أنتم عليه بمدرك

فان أداة الحرب ما قد جمعتم ومن يتق الاقوامَ بالشر يُترك

فلما كان الاسلام وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سار حتى نزل على بني جَذيمة فلما أتاهم ومعه بنو سُليم وكانت بنو سليم طلبتهم بمالك بن خالد بن صخر بن الشريد وإخوته كُرْز وعمرو والحارث، وكانوا قتلوهم في موطن واحد، فلما صبحهم خالد في ذلك اليوم ورأوا معه بنو سُليم زادهم ذلك نفوراً[1]، فقال لهم خالد : ما أنتم ؟ قالوا : مسلمون قالوا قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحتنا وأذَّنا فيها، فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم[2] فقال خالد : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا، فقال رجل بني جذيمة يقال له جحْدَم : ويلكم يابني جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الاعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً، فأخذه رجال من قومه

(١) الأغاني ج ٧

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ١

فقالوا : يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد ، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم[1] وقيل : إن خالداً قال لهم : أسلموا تسلموا ، قالوا نحن قوم مسلمون قال فألقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ، فقال جذيمة بن الحارث أحد بني أقرم : ياقوم لا تضعوا سلاحكم ، والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ، قالوا لا والله لا نلقي سلاحاً ولا ننزل ، مانحن منك ولا لمن معك بآمنين ، قال خالد : فلا أمان لكم إن لم تنزلوا فنزلت فرقة منهم فأسرهم ، وتفرق بقية القوم فرقتين : فأصعدت فرقة وسفلت فرقة أخرى[2] ولما رأى جحدم ما يصنع خالد ببني جذيمة قال : يابني جذيمة ! ضاع الضرب قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه[3] وأفلت من القوم غلام من بني أقرم يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله ﷺ فأخبره بما صنع خالد وشكاه ، فسأله رسول الله ﷺ هل أنكر عليه أحد ماصنع ؟ فقال : نعم ، رجل أصفر ربعة ورجل أحمر طويل ، فقال عمر : أنا والله يارسول الله أعرفهما ، أما الاول فهو ابني وصفته ، وأما الثاني فهو سالم مولى أبي حذيفة . وكان

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ وتاريخ الطبري ج ٣

خالد أمر كل من أسر أسيراً أن يضرب عنقه ، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسرين كانا معهما[1] .

وأخرج البخاري والنسائي عن أبي عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالداً الى بني جذيمة ، فدعاهم الى الاسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا ، وجعل خالد يقتل منهم ويأسر ودفع الى كل رجل منا أسيره ، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره ، فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فذكرنا له فرفع يديه وقال : اللَّهُمَّ إني أَبْرَأُ إليكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ . ثم دعا النبي ﷺ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بعد فراغه من حُنين[2] فقال : اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك[3] وبعث معهم بإبلٍ وورقٍ[2] فخرج علي حتى جاءهم فودى لهم الدماء وما أُصيب لهم من الاموال ، حتى إنه ليدي لهم مِيلغة الكلب حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه (أي دفع ديته) بقيت معه بقية من المال فقال لهم على رضوان الله عليه حين فرغ منهم : هل بقي لكم بقية دم أو مال لم يُؤدَ لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فاني أعطيكم هذه

---

(١) الأغاني ج ٧

(٢) الأغاني ج ٧

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ وتاريخ الطبرى ج ٣

البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل[٣] ثم رجع الى رسول الله ﷺ فسأله ، فقال علي : قدمت عليهم فقلت لهم : هل لكم أن تقبلوا : هل لكم أن تقبلوا هذا الجمل بما أصيب منكم من القتلى والجرحى وتحللوا رسول لله ﷺ ؟ قالوا : نعم فقلت لهم : فهل لكم أن تقبلوا الثاني بما دخلكم من الروع والفزع ؟ قالوا نعم ، قال فدفعته اليهم ، وجعلت أديهم حتى إني لأدي مِيلغة الكلب، وفضلت فضلة فدفعتها اليهم، فقال رسول الله ﷺ :أفقبلوها؟ قال نعم، قال فو الذي أنا عبده لهي أحب إليَّ من حُمر النَّعَم .وقالت سلمى بنت عُميس :

وكم غادروا يوم الغُمَيصاء ومن فتىً	أُصيب فلم يجرح وقد كان جارحا
ومن سيدٍ كهل عليه مهابةٌ	أُصيب ولما يعلُه الشيب واضحا
أحاطت بخطاب الأيامى وطلقت	غداتئذٍ من كان منهن ناكحا
ولولا مقال القوم للقوم أسلموا	للاقت سُليمٌ يوم ذلك ناطحا
لماصعهم بشرٌ وأصحاب جَحْدَمٍ	ومرّة حتى يتركوا الامر صابحا[١]

وقيل : إن خالداً اعتذر وقال : ما قتلت حتى أمرني بذلك عبدالله ابن حُذافة السَّهمي عن رسول الله ﷺ .

وحدث عبد الله ابن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي فقال : كنت يومئذ

---

(١) الأغاني ج ٧ ومعجم البلدان (الغميصاء) .

في جند خالد ، فبعثنا في أثر ظعن مصعدة يسوق بهن فتية ، فقال : أدركوا أولئك ، قال : فخرجنا في أثرهم حتى أدركناهم وقد مضوا ، ووقف لنا غلامٌ شابٌ على الطريق ، فلما انتهينا اليه جعل يقاتلنا وهو يقول :

إرفعن أطراف الذيول واربَعن مشي حييات كأن لم يفزعن

إن يمنع اليوم نساءٌ يمنعن

فقاتلناه طويلاً فقتلناه ومضينا حتى لحقنا الظعن فخرج الينا غلام كأنه الأول ، فجعل يقاتلنا ويقول :

أقسم ما إن خادرٌ ذو لِبْدَه يَزأرُ بين أيكةٍ ووَهْدَه

يَفْرِس شبان الرجال وحدَهْ بأصدقَ الغداةَ مني نجده

فقاتلناه حتى قتلناه ، وأدركنا الظعن فأخذناهن ، فاذا فيهن غلام وضيءٌ به صفرة في لونه كالمنهوك ، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله ، فقال لنا : هل لكم في خير ؟ قلنا : وما هو ؟ قال : تدركون بي الظعن أسفل الوادي ثم تقتلونني ، قلنا : نفعل ، فخرجنا حتى نعارض الظعن أسفل الوادي ، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته : اسلمي حُبَيْشْ ، عند نَفَادِ العيش ، فأقبلت اليه جارية بيضاء حسناء فقالت : وأنت فاسلم على كثرة الاعداء ، وشدة البلاء ، فقال : سلام

عليكم دهرا ، وإن بقيت عصرا ، قالت : وأنت سلام عليك عشرا ، وشفعاً تترى ، وثلاثاً وترا فقال :

إن يقتلوني يا حُبيَش فلم يدع ... هواك لهم مني سوى غلة الصدر

وأنت التي أخليت لحمي من دمي ... وعظمي وأسبلت الدموع على نحري

فقالت له :

ونحن بكينا من فراقك مرةً ... وأخرى وواسيناك في العسر واليسر

وأنت فلا تبعد فنعم فتى الهوى ... جميل العفاف في المودة والستر

فقال لها :

أرَيْتكِ إن طالبتكم فوجدتكم ... بحلْيةَ أو أدركتكم بالخَوانق[1]

ألم يك حقاً أن يُنَوَّلَ عاشقٌ ... تكلف إدلاج السرى والودائق

فقالت : بلى والله ، فقال :

فلا ذنب لي إذ قلت إذ نحن جيرة ... أثيبي بودٍ قبل إحدى البوائق

أثيبي بودٍ قبل أن تشحط النوى ... وينأى خليط بالحبيب المفارق

قال ابن أبي حَدْرَد : فضربنا عنقه ، فقحمت الجارية من خدرها حتى أتت نحوه فالتقمت فاه ، فنزعنا منها رأسه وإنها لتكسع بنفسها حتى ماتت مكانها[2]

---

(١) حلْيَة : موضع بنواحي الطائف، وقيل : وادٍ باليمن وقيل غير ذلك . والخَوَانق موضع أيضاً .

(٢) الأغاني ج ٧ وتاريخ ابن الاثير ج ٢

بعث خالد بن الوليد الى أكيدر دومة

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في أربعمائة وعشرين فارساً في سنة تسع[1] الى أُكَيْدِر بن عبد الملك الكندي ثم السَّكوني[2] صاحب دُومة الجندل[3] وكان نصرانيا، وقال النبي ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له ومعه امرأته، فباتت البقر تحكُّ بقرونها باب الحصن فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال لا والله قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج، وركب معه نفرٌ من أهله فيهم أخٌ له يقال له حسان، فتلقتهم خيل خالد فاستأسر أكيدر وقاتل أخوه حتى قتل، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دُومة الجندل، وكان بقي على أكيدر قَباء من ديباجٍ مُخَوَّصة أي فيها خوص منسوجة بالذهب مثل خوص النخل، فاستلبه خالد إياها وأرسلها لرسول الله ﷺ

وقد تقدم وصالح على أهل دومة الجندل بألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، ثم خرج خالد بأكَيدِر

(١) السيرة الحلبية ج ٣ (٢) فتوح البلدان للبلاذري.

(٣) دُومَةُ الجَنْدَل بضم أوله وفتحه وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين — حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء

وأخيه مُصاد قافلاً الى المدينة ،فقدم بالأكيدر على رسول الله ﷺ فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما ، و كتب له كتاباً فيه أمانهم[1]

هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام ، ولأهل دومة أن لنا الضاحية من الضَّحْل والبور ، والمعَامي ، واغفال الارض ، والحَلْقة والسلاح . والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل ، والمعين من المعمور لا تُعْدَل سارحتكم ، ولا تُعدّ فاردتكم ، ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين[2]

بعث خالد الى هدم ود[3]

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه من غزوة تبوك لهدم ودٍ فحال بينه وبين هدمه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار فقاتلهم حتى قتلهم فهدمه و كسره .

وحدث مالك بن حارثة الاجداري أنه رأى وَدّاً قال : وكان أبي

(١) السيرة الحلبية ج ٣ وسيرة ابن هشام ج ٣ وغيرها
(٢) فتوح البلدان والفائق للزمخشري (ندد)
(٣) ودّ : صنم لقريش بالضم قراءة نافع والأكثر على الفتح .

يبعثني اليه باللبن فيقول لي : اسقه إلهك قال : فأشربه ، قال : ثم رأيت خالد بن الوليد بعدُ كسره فجعله جُذَاذاً[1]

بعثه الى بني الحارث

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في شهر ربيع الآخر أو جُمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الاسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فان استجابوا فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب لله وسنة نبيه ومعالم الاسلام ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الاسلام ويقولون : أيها الناس ! أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا اليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد ، السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الاسلام ، فان أسلموا

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ومعجم البلدان عنه .

أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الاسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً قالوا: يابني الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي ﷺ، حتى يكتب إليّ رسول الله ﷺ، والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى خالد ابن الوليد، سلام عليك، فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فان كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى مادعوتهم إليه من الاسلام، وشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وانذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قريط

الزيادي ، وشداد بن عبد الله القناني ، وعمرو بن عبد الله الضبّابي ، فلما قـدموا على رسول الله ﷺ فرآهم قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يارسول الله هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب ، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه ، وقالوا نشهد أنك رسول الله وأن لا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم الذين إذا زجروا استقدموا ؟ فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المَدَان ؟ نعم يارسول الله ، نحن الذين إذا زُجروا استقدموا ، قالها أربع مرار ، فقال رسول الله ﷺ : لو أن خالداً لم يكتب إليّ أنـكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم ، فقال يزيد بن عبـد المَدَان : أما والله يارسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً ، فقال رسول الله ﷺ : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يارسول الله ، قال : صدقتم ، ثم قال رسول الله ﷺ : بِمَ كنتم تغلبون من قاتلـكم في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحداً ، قال : بلى قد كنتم تغلبون من قاتلـكم ، قالوا : كنـا نغلب من قاتلنا يارسول الله أنا كنا

نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم . قال : صدقتم [1]

بعث خالد الى اليمن

لما ارتدَّ عمرو بن معدي كرب مع من ارتدَّ عن الاسلام من مَذْحِج وقال :

وَجدْنا مُلْكَ فَرْوَةَ شرَّ ملكٍ حماراً ساف مَنْخِرُهُ بَقذْرِ
وكُنْتَ إذا رأيتَ أبا عُمَيْرٍ ترى الحولاءَ من خُبْثٍ وغَدْرِ [2]

استجاش فَرْوَةُ بن مُسَيْك المرادي النبي ﷺ ، وكان استعمله عليه الصلاة والسلام على مُرادٍ وزُبَيْدٍ ومَذْحِج كلها ، وبعث معه خالد بن سعد بن العاص على الصدقة ، فوجه النبي ﷺ خالد ابن الوليد وأمره أن يدعوهم إلى الاسلام ، فمكث خالد رضي الله عنه ستة أشهر يدعوهم إلى الاسلام فلم يجيبوه إلى شيء ، فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يُقفل خالداً ومن معه ، فان أراد أحدٌ ممن مع خالد بن الوليد أن يعقّب معه تركه [3]

عن أبي إسحاق سمعت البراء قال : بعثنا رسول الله ﷺ مع

(١) تاريخ الطبري ج ٣ وسيرة ابن هشام ج ٣
(٢) تاريخ الطبري ج ٣
(٣) تاريخ الطبري ج ٣

خالد بن الوليد إلى اليمن ، قال ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه ، فقال : مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقّب معك فليعقب ، ومن شاء فليُقبل ، فكنت فيمن عقّب معه ، قال : فغنمت أواقي ذوات عدد[1]

ثم كان الفتح على يد عليٍ رضي الله عنه وتتابع أهل اليمن على الاسلام[2]



(١) صحيح البخاري ج ٣

(٢) تاريخ الطبري ج ٣

الفصل الرابع

جهاد خالد في حروب الردة

الرّدة — طُلَيْحة بن خويلد الأسدي — بنو عامر وهوزان وسُليم — مالك بن نويرة — مسيلمة الكذاب

الردة

لما توفي النبي ﷺ سنة احدى عشرة عظمت به مصيبة المسلمين، واضطربوا أي اضطراب، ولم يكد ينتشر نعيه في الآفاق حتى ظهر النفاق، وارتد كثير من الأعراب، لأنهم لم يتأثروا بعدُ بأثر الاسلام ولم تَزكُ أنفسهم الزكاء المطلوب (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وأنقسم المرتدون الى فريقين: فريق إمتنع عن أداة الزكاة وعدّها كالأتاوة وطرد عمالها من بلادهم. وفريق اتبع المتنبئين أمثال مُسيْلمة الكذاب وطليحة الاسدي والاسود العنسي ورفض الدين كله.

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبّت اليهودية والنصرانية وعم النفاق، وصار

المسلمون كالغنم المَطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبي بكر ، فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها.

وقيل : إن العرب افترقت في رِدّتها فقالت فرقة : لو كان نبياً ما مات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحداً بعده .

وقيل : إن رسول الله ﷺ لما قبض وانتشر خبر وفاته ارتد عامة العرب ، إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس ، ومنع بعضهم الزكاة .

وذكر آخرون أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الاسلام وأرادوا ذلك ، حتى خافهم عتّاب بن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال : إن ذلك لم يزد الاسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما همّوا(١)

وقال عبد الله بن مسعود : لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله منَّ علينا بأبي بكر ، اجتمع رأينا جميعاً على أن لا نقاتل على بنت مخاض وابن لبُون ، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، وعزم الله لأبي بكر على قتالهم ، فوالله ما رضي منهم إلا بالخُطّة المخزية أو الحرب المجلية : فأما الخطة المخزية

(١) تاريخ الخميس للديار بكري ج ٢

فإن أقروا بأن من قتل منهم في النار ، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا . وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم(١)

والخلاصة فقد ارتد كثير من العرب واختلفت ردتهم ، فمنهم من قال نؤمن بالله ، ومنهم من قال نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي ، ولكن لا نعطيكم أموالنا ، فقال أبو بكر : إن الزكاة مثل الصلاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم . فجادله في ذلك كثيرٌ من الصحابة منهم عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم رضي الله عنهم ، فقال عمر لأبي بكر : تألَّفِ الناس وارفق بهم فانهم بمنزلة الوحش ، فقال له أبو بكر : رجوت نصرتك فجئتني بخذلانك ؛ أجبار في الجاهلية وخوّار في في الاسلام ؛ فقد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي ؛ والله لأجاهدنهم مهما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً ، وقال له عمر أيضاً : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ، فقال له أبو بكر : أليس قد قال بحقها؛ ومن حقها الصلاة وايتاء الزكاة ، والله لو منعوني عقالاً ، وفي رواية عَناقاً كانوا يؤدونه الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلني

(١) فتوح البلدان .

الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي . فقال عمر : فوالله ماهو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، وقال عمر بعد ذلك : والله لقد رجع إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعاً في قتال أهل الردة . ثم اتفق الصحابة كلهم على قتال أهل الردة واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : كره الصحابة أولاً قتال مانعي الزكاة وقالوا أهل القبلة ، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده ، فلم يجدوا بداً من الخروج على أثره ، وهذا دليل على كمال شجاعته .

خبر طليحة بن خويلد

كان طُلَيْحَة بن خُوَيْلد الاسدي من بني أسد بن خُزَيمة قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ ، فوجه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بنى أسد ، وأمرهم بالقيام على من ارتد ، فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه ، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئاً ، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه ، فكثر جمعه ، ومات النبي ﷺ وهم على ذلك فكان طليحة يقول : إن جبريل يأتيني وسجع للناس الأكاذيب ، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبح أدباركم (؟) شيئاً ، اذكروا الله اعبدوه قياماً . وقال : ليبلغن ملكنا العراق والشام[1] الى غير ذلك ، وتبعه

(١) الفتوحات الاسلامية ج ١ والخميس ج ٢

كثير من العرب عصبية ، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيىء فسارت فَزَارة وغطفان إلى جنوب طَيْبَة[1] وأقامت طيىء على حدود أرضهم ،وأسد بسَميراء[2] واجتمعت عبس وثعلبة بن سعد ومُرة بالأبرق من الرَّبَذة[3] واجتمع اليهم ناسٌ من بني كنانه فلم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين أقامت فرقة بالأبرَق[4] وسارت فرقة الى ذي القَصة[5] وأمدهم طليحة بأخيه حِبال ، فكان عليهم وعلى من معهم من الدئل وليث ومُدْلِج وأرسلوا الى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة ، فرفض أبو بكر وردهم ، فرجع وفدهم فأخبروهم بقلة من في المدينة وأطمعوهم فيها ، وجعل أبو بكر بعد مسير الوفد على أنقاب المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو ولقربهم ، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل ، وخلفوا بعضهم بذي حُسى[6] ليكونوا لهم ردْءاً ، فوافوا ليلاً الأنقاب وعليها المقاتلة ، فمنعوهم وأرسلوا الى أبي بكر بالخبر فخرج الى أهل المسجد على النواضح

(١) طَيْبَة : اسم المدينة المنورة (٢) سَميرآء . منزل بطريق مكة .

(٣) الرَّبَذَة . قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال .

(٤) الأبرق : منزل من منازل بني عمرو بن ربيعة .

(٥) ذو القَصَّة : موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد .

(٦) ذو حُسىً : موضع قرب المدينة تلقاء نجد .

فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حُسَي، فخرج عليهم الرِّدْءُ بأنحاء قد نفخوها وفيها الحبال، ثم دهدهوها على الارض، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ووجعوا الى المدينة ولم يصرع مسلم، وظن الكفار بالمسلمين الوهن، وبعثوا الى أهل ذي القَصَّة بالخبر فقدموا عليهم، وبات أبو بكر يعبىء الناس وخرج على تعبئة يمشي، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف، فما ذَرَّ قَرْنُ الشمس حتي ولّوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل رجال، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مُقرّن في عدد ورجع الى المدينة، ولما قدم أُسامة بن زيد استخلفه أبو بكر رضي الله عنه على المدينة وخرج بمن معه الى ذي حُسى وذي القَصة، ثم عاد الى المدينة وعقد الألوية فكان فيما عقده لواء لخالد بن الوليد رضي الله عنه، وأمره بطُلَيْحةَ بن خُوَيْلد، فاذا فرغ سار الى مالك بن نُوَيرة بالبُطاج[1] إن أقام له[2] وقال للناس وقد توافى المسلمون قبله وبعث مقدمته أمام الجيش: أيها الناس! سيروا على اسم الله وبركته، فأميركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم، فاني خارج فيمن معي الى ناحية خيبر[3] حتى ألاقيكم، ثم

(١) البُطاح: منزل لبني يربوع، وقيل: ماء في ديار بني أسد.
(٢) تاريخ ابن الأثير ج ٢ والطبري ج ٣ والفتوحات الاسلامية ج ١ وغيرها
(٣) خَيْبَر: ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام.

خلا أبو بكر بخالد رضي الله عنهما فجعل يوصي خالداً ويقول : يا خالد عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه ، والجهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك فان معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والانصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم ،[١] فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة واستظهر الزاد وسر بالأدلاء[٢] وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة[١] واحرص على الموت توهب لك الحياة[٣] ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم الى الله في سريرتهم[٢] وإذا أتيت داراً فاقحم ، فان سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذاناً ولم تر مصلياً شن الغارة ، فاقتل وأحرق[١] كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت[١] حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع[٥] وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) العقد الفريد ج ١
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ (٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١

عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربصٌ دائرة السوء ينظر لمن تكون الدَّبَرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، سر على بركة الله[1]

فسار خالد رضي الله عنه ، ولحق بكل أمير جنده ، وعهد أبو بكر رضي الله عنه الى كل أمير ، وكتب الى جميع المرتدين كتاباً واحداً يأمرهم بمراجعة الاسلام ويحذرهم ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود .

ولما انهزمت عبس وذبيان ولَفُّها وأرزوا الى البُزَاخة [2] أرسل طُليحة الى جَديلة والغوث أن ينضموا اليه ، فتعجل اليه أُناس من الحيين وأمروا قومهم باللحاق بهم ، فقدموا على طليحة ، وكان أبو بكر بعث عدي بن حاتم قبل توجيه خالد من ذي القَصَّة الى قومه وقال : أدركهم لا يؤكلوا ، فخرج اليهم فقتلهم في الذَّرْوة والغارب ، وخرج خالد في أثره ، وأمره أبو بكر أن يبدأ بطيىء على الأكناف [3] ، ثم يكون وجهه الى البزاخة ، ثم يثلث بالبطاح [4] ، ولا يَريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث اليه ويأمره بذلك ، وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصبٌ عليه منها حتى يلاقيه بالاكناف ،

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) بزاخة : ماء لبني أسد

(٣) الأكنافُ : بجبال فَيد وهي أكناف سَلمى .

(٤) البُطاح : منزل لبني يربوع وقيل : ماء في ديار بني أسد .

فخرج خالد فازوارَّ عن البُزَاخة وجنح إلى أجإٍ وأظهر أنه خارجٌ إلى خيبر ثم منصبٌّ عليهم فقعّد ذلك طيئاً وبطّأهم عن طليحة، وقدم عليهم عديٌّ فدعاهم، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبداً، فقال: لقد أتاكم قَوْم ليبيحنّ جريمكم ولتكنُنَّه بالفحل الأكبر شأنكم به. فقالوا له فاستقبل الجيش فنهنه عنا حتى نستخرج من لحق بالبُزَاخة منا، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم، فاستقبل عديٌّ خالداً وهو بالسُّنْح[1] فقال: ياخالد أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك؛ وذلك خيرٌ من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم، ففعل، فعاد عدي إليهم وقد أرسلوا إخوانهم إليهم فأتوهم من بُزاخة كالمدد لهم، ولولا ذلك لم يتركوا، فعاد عدي باسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأَنْسُر[2] يريد جَديلة فقال له عدي: إن طيئاً كالطائر، وإن جديلة أحد جناحيْ طيىء، فأَجّلْني أياماً لعل الله ينتقذ جَدِيلة كما انتقذ الغوث، ففعل، فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاءه بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عديٌّ خير مولود ولد في طيىء وأعظمه عليهم بركة[3].

(١) السنح: موضع بنجد قرب جبل طيء.

(٢) الانسر: ماء لطيء دون الرمل قرب الجبلين.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ وابن عساكر ج ٧ وابن الأثير ج ٢

ثم قام طليحة في أهل الغَمْر فقال : أُمرت أن تصنعوا رحىً ذات عُرًى ، يرمي الله بها من رمى ، يهوي عليها من هوى ، ثم عبى جنوده وقال ابعثوا فارسين أدهمين ، من بني نصر بن قُعين يأتيانكم بعين . فبعثوا فارسين ، من بني نصر بن قُعين، فأتياه بعين، فخرج هو وسَلَمة أخوه طليعتين ، ثم إن خالداً بعث طليعةً عُكاشة بن مِحْصَن أحد بني تميم وثابت بن أقرم أحد بني العجلان ، فالتقيا بطُليحة وسَلَمة ابني خويلد وكانا طليعة ، فالتقوا فيما بين العسكرين الغَمْر والبُزاخة [1] ، فالتقوا وتشاولوا ، فنهض المسلمان بالمشركين ، فلما خشي عُكاشة أن يقرباه ، وقد علم عُكاشة أن على طليحة يميناً أن لا يدعوه أحد إلى النزال إلا أجابه فقال : ياطليحه نَزالِ ، فعاج عليه وبرز طليحة لعُكاشة وسلمة لثابت ، فلم يلبث سلمة أن قتله ، وأغار طُليحة على عُكاشة وقال : أعنّي عليه ياسلامة فإنه آكلي ، فاكتنفاه فقتلاه ثم رجعا ، فلما بلغ خالداً وأصحابه قتل عكاشة وثابت ورأى ما بأصحابه من الجزع قال لهم : هل لكم إلى أن أقبل بكم إلى حيٍّ من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدةٍ شوكتهم ؛ لم يرتد منهم عن الاسلام أحد ؟ فقال الناس : ومن هذا الحيُّ الذي تعني ؟ فنعم والله الحي هو . قال لهم : طيىء ، فقالوا وفقك الله نعم الرأي رأيت ، فانصرف بهم حتى نزل بالجيش في طيىء [2]

---

(١) الغمر والبزاخة : ماءان من مياه بني أسد . (٢) تاريخ الطبري ج ٣

وأقام المسلمون على الغمر ينتظر أولهم آخرهم فقال رجل منهم :

جزى الله عنا طيئاً في بلادها ومعترك الأبطال خير جزاء
هم أهل رايات السماحة والندى إذا ما الصبا ألوت بكل خباء
هم ضربوا بعثاً على الدين بعدما أجابوا منادي فتنة وعماء
وخال أبونا الغَمْر لا يُسلمونه وثجّت عليهم بالرماح دماء
مراراً فمنها يوم أعلى بُزَاخةٍ ومنها القصيم ذو زُهىً ودعاء

ثم تقدم للقتال ونادى : يامعشر المسلمين اصبروا الله فإنكم في إعزاز دينه ، فاصبروا ساعة بعد الجزع تظفروا (١)

فلما اشتدت الحرب كرّ عيينة بن حفص على طليحة وقال له : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا ، فرجع فقاتل ، ثم كر على طليحة فقال له لا أبا لك أجاءك جبريل ؟ قال : لا ، فقال عيينة ، حتى متى ؟ قد والله بلغ منا ، ثم رجع فقاتل قتالا شديداً ، ثم كر على طليحة فقال : هل جاءك جبريل ؟ قال : نعم ، قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لي ؛ إن لك رحىً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه ، فقال عُيينة : قد علم الله أنه سيكون حديثٌ لا تنساه ، انصرفوا يابني فزارة فانه كذاب ، فانصرفوا وانهزم الناس ، فلما رأى كثرة انهزام أصحابه قال : ويلكم مايهزمكم ! فقال له رجل منهم : أنا أحدثك مايهزمنا ، إنه ليس رجل

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧

منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه ، وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النَّوَار ، فلما غَشُوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : يامعشر فزازة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل ، ثم انهزم فلحق بالشام ، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا ، ولم يزل مقيما في كلب حتى مات أبو بكر رضي الله عنه ، وكان خرج معتمراً ومرّ بجنبات المدينة ، فقيل لابي بكر : هذا طليحة ، فقال : ما أصنع به ! قد أسلم ، ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبايعه حين استخلف ، فقال له : أنت قاتل عُكاشة وثابت ! والله لا أحبك أبداً ، فقال : يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يُهِنّي بأيديهما ! فبايعه عمر وقال له : مابقي من كهانتك فقال : نفخة أو نفختان ، ثم رجع الى قومه فأقام عندهم حتى خرج الى العراق .

ولما انهزم الناس عن طليحة أُسر عُيينة بن حصن فقُدم به على أبي بكر رضي الله عنه ، فكان صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف : ياعدو الله أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما آمنت بالله طرفة عين ، فأسلم فتجاوز عنه أبو بكر رضي الله عنه وحقن دمه .

وأخذ المسلمون رجلاً من بني أسد فأُتي به خالد وكان عالماً

بأمر طليحة ، فقال له خالد : حدثنا عنه وعما يقول لكم فزعم أن مما أتى به : والحمام واليمام ، والصُّرَد الصوَّام ، قد صُمْنَ قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام . وقال : والقرد والنيرب ليقتلن النيدب (؟) إذا صرّ أخوكم الجُنْدَب ، والله لا نسحب ، ولا نزال نضرب ، حتى ينتج أهل يثرب .

ولم يؤخذ منهم سبي لأنهم كانوا قد أحرزوا حريمهم ، فلما انهزموا أقروا بالاسلام خشيةً على عيالاتهم فأمنوا[1]

ثم إن خالداً أتى حنو قُراقِر[2] ويقال أتى النُّقْرة[3] وكان هناك جمع لبني سُليم عليهم أبو شجرة عمرو بن عبد العُزّى السلمى ، وأمه الخنساء وكان قد ارتد فيمن ارتد من سليم فقاتلوه ، فاستشهد رجل من المسلمين ثم فض الله جمع المشركين[4]

وقال أبو شجرة حين ارتد عن الاسلام :

صحا القلب عن ميٍّ هواه وأقصرا ... وطاوع فيها العاذلين فأبصرا

وأصبح أدنى رائدِ الجهل والصبي ... كما وُدُّها عنا كذاك تغيرا

وأصبح أدنى رائد الوصل منهم ... كما حَبلُها من حبلنا قد تبتَّرا

ألا أيها المُدْلي بكثرة قومه ... وحظك منهم أن تُضام وتقهرا

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧

(٢) قُراقِر : ويقال حنو قراقر حول ذي قار .

(٣) النُّقْرة : بطريق مكة . (٤) فتوح البلدان .

سل الناس عنا كل يوم كريهة إذا ما التقينا دارعين وحسّرا
ألسنا نعاطي ذا الطماح لجامه ونطعن في الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضه شهباء تخطر بالقنا ترى البلق من حاقاتها والسنوّار
فرويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم إن أبا شجرة أسلم ودخل فيما دخل فيه الناس[1] فقدم على عمر رضي الله عنه وهو يعطي المساكين، فاستعطاه فقال له: ألست القائل؟

ورويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

وعلاه بالدرة فقال: قد محا الاسلام ذلك يا أمير المؤمنين[2].

خبر بني عامر وهوازن وسليم

كانت بنو عامر تقدّم إلى الردّة رجلاً وتؤخر أخرى، وتنظر ما تصنع أسد وغطفان، فلما أحيط بهم وبنو عامر على قادتهم وسادتهم، كا قرّة بن هبيرة في كعب ومن لافّها، وعلقمة ابن علاثة في كلاب ومن لافّها، وقد كان علقمة أسلم ثم ارتدّ في زمن النبي ﷺ، ثم خرج بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام، فلما توفي النبي ﷺ أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كعب مقدّماً رجلاً ومؤخراً أخرى. وبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه فبعث إليه سنة إحدى

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣ (٢) فتوح البلدان.

عشرة سَرِيَّة وأمّر عليها القَعقاع بن عمرو ، وقال : ياقعقاع سر حتى تغير على علقمة بن علاثة ، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله أو تستأسره ، فخرج حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة ، وكان لا يبرح إلا مستعدّاً ، فسابقهم على فرسه فسبقهم ، وأسلم أهله وولده .

وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بُزَاخة[1] يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، فبايعهم خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وكانت بيعته : عليكم عهد الله وميثاقه لَتُؤْمِنُنَّ بالله ورسوله ، ولتقيمنّ الصلاة ، ولتؤتن الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم ، فيقولون: نعم .

ولم يقبل من أحد من أسدٍ وغَطَفان وطيىء وسُلَيم وعامرٍ إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثّلوا وعدوا على أهل الإسلام في حالِ ردتهم ، فأتوه بهم ، فقبل منهم إلا قُرّة بن هُبيرة ونفراً معه أوثقهم ، ومثّل بالذين عدوا على الاسلام في حال ردتهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكسهم في الآبار ، وخزق بالنبال ، وبعث بقُرّة وبالأسارى وكتب إلى أبي بكر رضي الله عنه : إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت في الاسلام بعد تربُّص ، وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني

(١) بُزَاخة : ماء لبني أسد .

شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين ، فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقُرة وأصحابه .

فردّ أبو بكر على خالد بما يأتي : ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتّق الله في أمرك ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جدّ في أمر الله ولا تنِيَنّ ،ولا تظفرنّ بأحدٍ قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حادّ الله أو ضادّه ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله[1]

وقيل : إن عمر بن الخطاب قال لابي بكر رضي الله عنهما : بعثت رجلاً يعذب بعذاب الله ، انزعه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار حين يكون الله هو الذي يشيمه[2]

ثم اجتمع فُلاّل غطَفان وطيىء وسُليم وهوزان وغيرها الى أم زمْل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر ، وكانت تشبه أمها أم قِرْفة بنت ربيعة بن بدر ، التي يضرب بعزها المثل فيقال أمنع أو أعز من أم قرفة لأنه كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجل كلهم محرم لها[3] وكانت أم زمل قد سُبيت أيام أمها فوقعت لعائشه رضي الله عنها

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣
(٢)تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ وفتوح البلدان
(٣) القاموس المحيط (قرف) وسيرة ابن هشام ج ٣

فأعتقها ، ورجعت الى قومها وارتدت ، واجتمع تلك الفلال الى سلمى فأمرتهم بالقتال ، وكثُف جمعها وعظمت شوكتها ، فلما بلغ خالداً رضي الله عنه أمرها سار اليها ، فاقتتلوا قتالا شديداً أول يوم ، وهي واقفة على جمل كان لأمها ، وهي في مثل عزها ، فاجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها ، وقتل حول جملها مائة رجل ، وبعث بالفتح الى أبي بكر رضي الله عنه [1]

خبر مالك بن نويرة

سار خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد أن فرغ من غَطَفان وأسد وطيىء يريد البُطاح[2] وكان كبيرهم يومئذ مالك بن نُوَيرة ، وكان مالك بن نُوَيرة ملكاً فارساً مطاعاً شاعراً[3] شريفاً ، وكانت فيه خُيَلاء وتقدم ، وكان ذا لِمَّةٍ كبيرة ، وكان يقال له الجَفول[4]

وكان النبي ﷺ . استعمله على بني يَرْبوع ، فلما تنبأت سَجَاح بنت الحارث وسارت من الجزيرة راسلت مالك ابن نُوَيرة ، ودعته الى الموادعة فأجابها ، ونهاها عن غزوها ، وحملها على أحياء بني تميم ، فأجابته وقالت : نعم فشأنك مما رأيت ، وإنما أنا إمرأة من بني يَربوع وإن كان ملك فهو ملككم ، فلما تزوجها مُسَيْلِمة الكذاب ودخل

---

(١) تاريخ ابن الاثير ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣

(٢) البُطاح : ماء في ديار بني أسد (٣) تاريخ أبي الفداء ج ١

(٤) الأغاني ج ١٤

بها انصرفت الى الجُزَيْرَة[1] ، وصالحته على أن يحمل عليها النصف من غلاّت اليمامة[2] ، فارعوى حينئذ مالك بن نويرة وندم وتحير في أمره فلحق بالبُطاح ، ولم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يُكْرَه إلا مابقي من أمر مالك بن نويرة وما ناسب اليه البطاح . فهو على حاله متحير ما يدري ما يصنع[3] .

وقيل : إن مالك بن نويرة قدم على النبي ﷺ ، فيمن قدم من أمثاله من العرب ، فولاه صدقات قومه بني يربوع ، فلما مات النبي ﷺ اضطرب فيها فلم يُحمد أمره ، وفرق مافي يده من إبل الصدقة فكلمه الأقرع بن حابس المجاشعي والقعقاع بن معبد بن زياد الدارمي، فقالا له : إن لهذا الأمر قائماً وطالباً فلا تعجل بتفرقة ما في يدك فقال:

أراني الله بالنعم المندّي ببُرْقة رَحْرحان[4] وقد أراني

تمشى يا ابن عوذة في تميم وصاحبك الأقيرع تلحياني

يعني أم القعقاع وهي معاذة بنت ضرار بن عمرو وقال أيضاً :

---

(١) الجُزيرة بالضم : موضع باليمامة .

(٢) اليمامة بينها وبين البحرين عشرة أيام وهي معدودة من نجد .

(٣) الأغاني ج ١٤

(٤) بُرقة رحرحان أصل البرقة في كلام العرب الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان والبرق في بلادهم كثيرة وقد أضيفت كل برقة منها الى موضع، ورحرحان اسم جبل خلف عرفات قيل هو لغطفان .

وقلت خذو أموالكم غير خائف ولا ناظرٍ فيما يجيء من الغد

فان قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

ولما عزم خالد على المسير الى مالك تخلفت الانصار عنه، وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة الينا إن الخليفة عهد الينا إن نحن فرغنا من بُزاخة أن نقيم حتى يكتب الينا ، فقال خالد : قد عهد إليّ أن أمضي وأنا الامير ولو لم يأت كتابٌ بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه ، وكذلك لو ابتُلينا بأمرٍ ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصدٌ إلى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ، ومضى خالد ، وندمت الانصار وقالوا : إن أصاب القوم خيراً حُرمتوه وإن أُصيبوا ليجتنبنكم الناس ، فلحقوه . ثم سار حتى قدم البُطاح فلم يجد بها أحداً ، وكان مالك بن نُويرة قد فرقهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال : يابني يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح ، وقدنظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قومٍ صُنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر ، فتفرقوا وخرج مالك حتى رجع الى منزله .

ولما قدم خالد البُطاح بثّ السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يُجب ، وإن امتنع أن يقتلوه ، وكان قد أوصاهم

أبو بكر رضي الله عنه أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلاً ، فإن أذن القوم فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا ، وإن أجابوكم إلى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقرّوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم ، فجاءته الخيل بمالك بن نُوَيرة في نفرٍ من بني ثعلبة بن يربوع فاختلفت السَّرِيَّة فيهم فشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلّوا ، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء .

فكان ممن شهد لمالك بالاسلام أبو قتادة الحارث بن رِبْعي أخو بني سلمة ، فكان يحدث أنهم لما غَشُوا القوم راعوهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح ، قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، قال : فوضعوها ، ثم صلينا وصلّوا .

فلما اختلفوا فيهم أُمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالد منادياً فنادى أدفئوا أسراكم ، فظنّ القوم وهي في لغتهم القتل أنه أراد القتل ، ولم يُرِدْ إلا الدّفء ، فقتلوهم ، فقتل ضِرَار بن الازور مالكاً ، وسمع خالد الواعية (الصراخ) فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال إذا أراد الله أمراً أصابه ، وتزوج خالد رضي الله عنه أم تميم ابنة المِنهال امرأة مالك[1]

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣

وفي رواية أن مالك بن نويرة قال : أنا آتي بالصلاة دون الزكاة، فقال خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل واحدة دون الأخرى ، فقال مالك : كان صاحبكم يقول ذلك ، قال خالد رضي الله عنه : أوما تراه لك صاحباً ؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجاولا في الكلام فقال له خالد : إني قاتلك ، فقال له : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال : وهذه بعد تلك ؟ وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري حاضرين ، فكلما خالداً في أمره فكره كلامهما ، فقال مالك : ياخالد ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ، فقال خالد : لا أقالني الله إن أقلتك ، وتقدم الى ضرار بن الازور بضرب عنقه ، وقبض خالد امرأته ، قيل : إنه اشتراها من الفيء وتزوج بها ، وقيل : إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وقال لابن عمر ولأبي قتادة : احضرا النكاح ؛ فأبيا وقال له ابن عمر : نكتب الى أبي بكر ونعلمه بأمرها ، فأبى وتزوجها ،[1] وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره[2]

ويروى أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما وصل الى بلاد بني تميم ثاروا اليه ؛ فقال : من أنتم ؟ فقالوا : نحن عباد الله المسلمون ؛ وقد كان خالد بثّ سراياه فلم يسمعوا أذاناً ؛ فقاتلهم وأثر مالك بن نويرة وأصحابه

---

(١) تاريخ أبي الفداء ج ١ (٢) تاريخ الطبري ج ٣ والأغاني ج ١٤

ثم قتلهم[1] ولما بلغ خبرُ قتل مالك بن نُوَيرة وأصحابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رَهَق، وأكثر عليه في ذلك فقال: ياعمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فاني لا أشيمُ سيفاً سله الله على الكافرين. وودى ما لكاً، (أي دفع ديته) وكتب الى خالد أن يَقْدَم عليه ففعل، ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهماً، فقام اليه عمر رضي الله عنه فنزعها وحطمها وقال له: قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك؛ وخالد لا يكلمه، يظن أن رأي أبي بكر مثله؛ ودخل على أبي بكر فأخبره الخبر، واعتذر اليه (وزعم أنه سمع منه كلاما استحل به قتله)[2] فعذره وتجاوز عنه، وعنفه في التزويج الذي كانت عليه العرب من كراهة أيام الحرب وأمره أن يفارق امرأة مالك. فخرج خالد وعمر جالس في المسجد فقال: هلم اليّ يا ابن أم شملة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه، ودخل بيته[3]

وقدم متمم بن نُوَيرة ينشد أبا بكر رضي الله عنه دم أخيه مالك ويطلب اليه في سبيهم فكتب له برد السبي[4] وروي أن متمم بن نويرة

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٢) تاريخ الخميس ج ٢

(٣) تاريخ ابن الاثير ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣

(٤) تاريخ الطبري ج ٣

دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فقال له : ما بلغ من وجدك على أخيك مالك ؟ قال : بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة ، وما رأيت ناراً إلا كدت أنقطع لها أسفا عليه ، لانه كان يوقد ناره الى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه . قال: فأنشدني بعض ما قلته فيه ، فأنشده مرثيته التي يقول فيها :

لعمري وما دهري بتأبين مالكٍ ولا جزع مما أصاب فأوجعا

لقد كفن المنهال تحت ثيابه فتى غير مبْطان العشيات أروعا

حتى بلغ الى قوله :

وكنا كندماني جذيمة حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا(١)

فقال عمر : هذا والله التأبين ؛ ولَوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك ؛ فقال متمم : لو أن أخي مات على مامات عليه أخوك ما رثيته . وكان زيد قتل باليمامة شهيداً فقال عمر رضي الله عنه : ما عزاني أحدٌ عن أخي بمثل ما عزاني متمم .

ثم قال له عمر : هل كان مالك يحبك مثل محبتك إياه ؟ وهل كان مثلك ؟ فقال : وأين أنا من مالك ؟ وهل أبلغ مالكاً ؟ والله ياأمير المؤمنين لقد أسرني حيٌّ من العرب فشدّوني وثاقاً بالقدّ وألقوني

(١) فتوح البلدان ، والأغاني ج ١٤

بفنائهم ؛ فبلغه خبري ؛ فأقبل على راحلته حتى انتهى الى القوم وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليّ أعرض عني ؛ ونظر القوم اليه فعدل اليهم ؛ وعرفت ما أراد ، فسلم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فوالله إن زال كذلك حتى ملأهم سروراً ، وحضر غداؤهم فسألوه ليتغدّى معهم ، فنزل وأكل ثم نظر الي وقال : إنه لقبيح أن نأكل ورجل ملقى بين أيدينا لا يأكل معنا ، وأمسك يده عن الطعام ، فلما رأى ذلك القومُ نهضوا وصبُّوا الماء على قِدّي حتى لان وحلوني ، ثم جاؤا بي فأجلسوني معهم على الغداء ، فلما أكلنا قال لهم : أما ترون تحرُّم هذا بنا وأكله معنا ! إنه لقبيح بكم أن تردُّوه الى القِد ، فخلّوا سبيلي ، فكان كما وصفت ، وما كذبت في شيء من صفته إلا أني وصفته خميص البطن ، وكان ذا بطن[1]

خبر مسيلمة الكذاب

هو مُسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة، وهي قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار بن مَعدّ بن عدنان وكان مُسيلمة قصيراً شديد الصفرة أخنس الانف أفطسه ، يكنى أبا ثمامة[2] وكان رئيساً في قومه ، فقدم مع وفد بني حنيفة على النبي ﷺ فأسلم ، واجتمع بالنبي ﷺ وسأله أن يجعل له الامر بعده ، وكان في يد النبي

(١) الأغاني ج ١٤ (٢) فتح الباري ج ٨ وفتوح البلدان .

ﷺ عسيب من سعف النخل ، فقال لمسيلمة : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتكه . فلما رجع الى اليمامة ارتد وادعى النبوة وقال : إني أشركت في الامر مع محمد ، فاتبعه بنو حنيفة ، وكتب الى الرسول ﷺ :

من مُسيْلِمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون .

فكتب النبي ﷺ : من محمد رسول الله إلى مسيْلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وقد أهلكت أهل الحِجْر[1] ، اباذك الله ومن صوّت معك .

فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ أخفاه ، وكتب عن رسول الله ﷺ كتاباً . زعم أنه وصله بثبوت الشركة بينهما ، وأخرج ذلك الكتاب إلى قومه فافتتنوا بذلك . وكان ذلك في آخر السنة العاشرة[2]

وكان قبل ادعائه النبوة يدور في الأسواق التي بين دور العرب والعجم ، يلتمس تعلم الحيل والنيرنجيات واحتيالات أصحاب الرقى

(١) الحِجْر : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام .

(٢) الفتوحات الاسلامية ج ١ وسيرة ابن هشام ج ٣ وغيرها .

والنجوم. ثم اشتغل بتأليف سجعات يزعم أنه يعارض بها القرآن، وهي ركيكة مُضحكة للعقلاء، منها قوله: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل، ومِشْفَرٌ وخُرطوم طويل، إن ذلك من خلق ربنا لقليل ومنها قوله: ياضفدع بنت ضفدعين، لحسن ما تنقنقين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، امكثي في الأرض يأتيك الخُفَّاش بالخبر اليقين. لنا نصف الارض ولقريش نصفها، ولكن قريش قومٌ لا يعدلون.

وسجع على سورة (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ) فقال: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إن مبغضك لفاجر.

ولما سمع (وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقًا) قال: والزارعات زرعاً، فالحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والحافرات حفراً، والخابزات خبزاً، فالثاردات ثرداً، فاللاقمات لقماً، والآكلات أكلاً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر [1] إلى أمثال ذلك من الهذر.

حدث عُمير بن طلحة النمري عن أبيه أنه جاء اليمامة [2] فقال: أين مُسَيْلِمة! فقالوا: مَهْ رسول الله، فقال: لا حتى أراه، فلما

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ والخميس ج ٢ والفتوحات الاسلامية ج ١

(٢) اليمامة: بينها وبين البحرين عشرة أيام وهي معدودة من نجد

جاءه قال : أنت مُسيلمة ؟ قال : نعم ، قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن . قال : أفي نور أو في ظلمة ، فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من من صادق مضر ، فقتل معه يوم عقرباء [1]

ولما قدم خالد بن الوليد على أبي بكر رضي الله عنهما من البُطاح. وذلك سنة إحدى عشرة وجهه الى مسيلمة وأوعب معه الناس ، وعلى الانصار ثابت بن قيس والبراء بن مالك ، وعلى المهاجرين أبو حُذيفة وزيد بن الخطاب ، وعلى القبائل على كل قبيلة رجل . وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح ، وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة ، فلما وصلوا اليه سار الى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثيرون ، كانت عدتهم أربعين الف مقاتل [2]

وقيل : إن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال حين انتهى من أسد وغطفان بالبطاح : والله لا أنتهي حتى أناطح مسيلمة ، فقالت الانصار : هذا رأيٌ لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة ، فقال : لا والله حتى أناطح مُسيلمة ، فرجعت الانصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله

(١) عقرباء : منزل من أرض اليمامة

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ وتاريخ ابن الاثير ج ٢

لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا ، ولئن هُزموا لقد خذلناهم ، فرجعوا ، ثم مضى خالد الى اليمامة[1]

وكان شُرَحْبيل بن حسنة قد عجل اليها وبادر خالداً بقتال مُسيلمة كما بادر قبله عكرمة بن أبي جهل فنكب فحاجز ، فلما قدم عليه خالد لامه ، وأمدّ أبو بكر رضي الله عنه خالداً بسَلِيط ليكون رِدْءاً له لئلا يؤتى من خلفه .

وكان مع مسيلمة نهار الرَّجال بن عُنْفُوَة ، وكان قد هاجر الى النبي ﷺ ، وقرأ القرآن وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة ، وليَشْغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين . فكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول : إنه قد أشرك معه فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكاتبة النبي ﷺ ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه ، فكان نهار الرَّجال بن عُنفُوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه وكان ينتهي الى أمره .

ولما بلغ مُسيلمةَ دنوُّ خالد رضي الله عنه ضرب عسكره بعَقْرَباء ، وخرج اليه الناس ، وخرج مُجاعة بن مُرارة في سَرِيَّة يطلب ثأراً لهم في بني عامر ، فأخذه المسلمون وأصحابه ، فقتلهم خالد رضي الله عنه واستبقاه لشرفه في بني حنيفة ، وكانوا ما بين أربعين الى ستين .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

ثم دعا خالد مُجّاعة ومن أخذ معه حين أصبح فقال : يا بني حنيفة ما تقولون ؟ قالوا : نقول منا نبي ومنكم نبي ، فعرضهم على السيف حتى إذا بقي منهم رجل يقال له سارية بن عامر ومجاعة بن مُرارة قال له سارية : أيها الرجل ! إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل ، يعني مُجاعة ، فأمر به خالد فأوثقه في الحديد ثم دفعه الى أم تميم امرأته فقال : استوصي به خيراً . ثم مضى حتى نزل على كثيب مشرف على اليمامة ، فضرب به عسكره ، وخرج أهل اليمامة مع مسيلمة وقد قدم في مقدمته الرّجال وترك مسيلمة الاموال وراء ظهره ، فقال شُرَحبيل بن مُسيلِمة ، يا بني حنيفة ! اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تُستردَف النساء سبيّات ، ويُنكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم ،وامنعوا عن نسائكم . فاقتتلوا بعَقْرَباء وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حُذيفة، فقالوا : نخشى علينا من نفسك شيئاً ، فقال : بئس حامل القرآن أنا أذاً . وكانت راية الانصار مع ثابت بن قيس بن شمّاس ، وكانت العرب على راياتها والتقى الناس ، وكان أول من لقي المسلمين نهار الرّجال بن عُنْفُوَة ، فقتله زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنهما ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط ، وانهزم المسلمون وخاص بنو حنيفة الى مُجاعة والى خالد فزال خالد عن فسطاطه فدخله أناس وفيه مجاعة عند

أم تميم ، فأرادوا قتلها فنهاهم مجاعة وقال : أنا لها جار فنعمت الحرة ، فتركوها ، ثم تداعى المسلمون فقال ثابت بن قيس : بئس ما عودتم أنفسكم يامعشر المسلمين ، اللهم إني أبرأ اليك مما يصنع هؤلاء ، يعني أهل اليمامة ، وأعتذر اليك مما يصنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، ثم قاتل حتى قتل . وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم : لا تحوّزَ بعد الرحال ، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكلمه بحجتي ، غضّوا أبصاركم ، وعضّوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قدُماً . وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن! زينوا القرآن بالفعال . وحمل خالد في الناس حتى ردهم إلى أبعدَ مما كانوا ، واشتدّ القتال ، وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالاً شديداً ، وكانت الحرب يومئذ تارةً للمسلمين ، وتارة للكافرين . وقتل سالم وأبو حذيفة وزيد بن الخطاب وغيرهم من أولي البصائر . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنه عبد الله حين رجع : ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حي ، فقال : قد حرصت على ذلك أن يكون ،ولكن نفسي تأخرت فأكرمه الله بالشهادة . وفي رواية قال : ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عني ؟ فقال : سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق اليّ فلم أعطها .

ولما رأى خالد رضي الله عنه ما الناس فيه قال : امتازوا أيها الناس

لنعلم بلاء كل حيّ ولنعلم من أين نُؤْتى ، فامتازوا ، وكان أهل البوادي قد جبّنوا المهاجرين والانصار ، وجبنهم المهاجرون والانصار ، فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : اليوم يستحى من الفرار ، فما رؤي يوم كان أعظم نكاية من ذلك اليوم ، ولم يُدْرَ أي الفريقين كان أعظم نكاية ، غير أن القتل كان في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر منه في أهل البوادي ، وثبت مُسيلِمة فدارت رحاهم عليه ، فعرف خالد رضي الله عنه أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، ولم تحفل بنو حنيفة بمن قتل منهم ، ثم برز خالد رضي الله عنه ودعا الى البراز ونادى بشعارهم ، وكان شعارهم يا محمداه ، فلم يبرز اليه أحد إلا قتله ، ودارت رحى المسلمين ، ودعا خالد رضي الله عنه مُسيلمة فأجابه ، فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة فلم يقبل وأعرض بوجهه ، فركبه خالد وأرهقه ، فأدبر وزال أصحابه ، وصاح خالد رضي الله عنه في الناس فركبوهم ، فكانت هزيمتهم ، وقالوا لمسيلمة : أين ما كنت تعدنا ! فقال : قاتلوا عن أحسابكم ، ونادى المُحَكَّم بن الطفيل : يا بني حنيفة الحَدِيقة الحَدِيقة[1] ، فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها . فقال البراء بن مالك أخو أنس : يامعشر المسلمين ! ألقوني عليهم في الحديقة ، فقالوا : لا نفعل ، فقال والله لَتَطْرَحُنَّني عليهم بها ، فاحتُمِل حتى أشرف على الجدار

(١) الحديقة : بستان لمُسيلمة كان يقال له حديقة الرحمن ، فلما قتل عندها سميت حديقة الموت .

فاقتحمها عليهم ، وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين ودخلوها عليهم ، فاقتتلوا أشدَّ قتال ، وكثر القتلى في الفريقين ، لاسيما في بني حنيفة . فلم يزالوا كذلك حتى قتل مُسيلِمة ، واشترك في قتله وحشيٌّ مولى جُبير بن مطعم ورجل من الانصار : أما وحشي فدفع عليه حربته فوقعت بين ثدييه، وضربه الانصاري بسيفه . فصرخ رجل : قتله العبد الاسود ، فولت بنو حنيفة عند قتله منهزمة ، وأخذهم السيف من كل جانب، وأُخبر خالد رضي الله عنه بقتل مسيلمة ، فخرج بمُجَّاعة يرسفُ في الحديد ليدُلّه على مسيلمة ، فجعل يكشف له القتلى .. ثم قال لخالد: ماجاءك إلا سَرَعان الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالاً ، فهلم الى الصلح على ما ورائي. فصالحه على كل شيء دون النفوس ، وقال أنطلق اليهم فأشاورهم ، فانطلق اليهم وليس في الحصون إلا النساء والصبيان ومَشْيَخَةٌ فانيةٌ ورجال ضَعْفى ، فألبسهم الحديد ، وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويُشرفن على الحصون حتى يرجع اليهم ، فرجع الى خالد فقال : قد أبوا أن يُجيزوا ما صنعت ، فرأى خالد رضي الله عنه الحصون مملوءة ، وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء ، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر ، ولم يدروا ما هو كائن ، وقد قتل من المهاجرين والانصار من أهل المدينة ثلاثمائة وستون ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلاثمائة رجل ، وقتل ثابت بن قيس ، وقتل من بني حنيفة

بمَقْرُبا ءسبعة آلاف ، وبالحديقة مثلها ، وفي الطاب نحوٌ منها ، وصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي وقيل ربعه ، فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء ، فقال خالد لمُجَّاعة : ويحك خدعتني ، فقال : هم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت .

ولما صالح خالد رضى الله عنه مجاعة على ما صالحه عليه فأبى بنو حنيفة ذلك قال خالد : أنت بالخيار ثلاثة أيام ، فقال سلمة بن عُمير : يابني حنيفة ؛ قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين ، والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء . فقال مُجَّاعة : يا بني حنيفة ! أطيعوني واعصوا سلَمة فإنه رجل مشئوم قبل أن يصيبكم ما قال شُرَحْبيل بن مُسيلمة ، قبل أن تُستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات ، فأطاعوه وعصوا سلمة .

ثم بعث أبو بكر رضي الله عنه بكتاب الى خالد مع سلمة بن سلامة بن وَقْش يأمره إن ظفَّره الله عز وجل أن يقتل من جرت عليه المواسي من بني حنيفة ، فقدم فوجده قد صالحهم ، فوفى لهم وتمّ على ما كان منه[1] وكتب إلى أبي بكر رضي الله عنه إني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحتى عجف الكُراع ، (الخيل) ونهك الخفّ ،(الإبل) ، ونهك المسلمون بالقتل والجراح[2]

(١) تاريخ الطبري ج ٣ وتاريخ ابن الأثير ج ٢

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

ثم حشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد ، وخالد في عسكره ، فلما اجتمعوا قال سَلَمة بن عُمير لمُجّاعة : استأذن لي على خالد أكلمه في حاجة له عندي ونصيحة ، وقد أجمع أن يفتك به ، فكلمه فأذن ، فأقبل سلمة بن عمير مشتملاً على السيف يريد ما يريد ، فقال خالد : من هذا المقبل ؟ قال مُجّاعة : هذا الذي كلمتك فيه وقد أذنت له ، قال : أخرجوه عني ، فأخرجوه عنه ، ففتشوه فوجدوا معه السيف ، فلعنوه وشتموه وأوثقوه وقالوا : لقد أردت أن تهلك قومك ، وايم الله ما أردت إلا أن تُستأصل بنو حنيفة ، وتسبى الذرية والنساء ، وايم الله لو أن خالداً أُعلم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ويسبي النساء بما فعلت ، ويحسب أن ذلك عن ملأ منا (أي تشاور) فأوثقوه وجعلوه في الحصن . وتتابع بنو حنيفة على البراءة مما كانوا عليه وعلى الاسلام ، وعاهدهم سَلمة على أن لا يُحْدث حدثاً ويعفوه ، فأبوا ولم يثقوا بحمقه أن يقبلوا منه عهداً ، فأفلت ليلاً فعمد إلى عسكر خالد ، فصاح به الحرس ، وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه في بعض الحوائط ، فشدّ عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة ، وأجال السيف على حلقه فقطع أوْداجه فسقط في بئر فمات .

وعن الضحاك بن يَرْبوع عن أبيه قال : صالح خالد بني حنيفة جميعاً ، إلا ما كان بالعِرْض والقُرَيَّة[1] فإنهم سُبُوا عند انبثاث الغارة ، فبعث إلى أبي بكر رضي الله عنه ممن جرى عليه القسم بالعِرْض والقُرَيَّة من بني حنيفة أو قيس بن ثعلبة أو يشكر خمسمائة رأس[2] ، وقال مُجَّاعة بن مُرارة :

أترى خالداً يقتلنا اليو م بذنب الأصيفر الكذاب

لم يدع ملة النبي ولا نحـ ن رجعنا فيها على الأعقاب[3]

ثم إن خالداً رضي الله عنه قال لمُجَّاعة : زوّجني ابنتك ، فقال له مجاعة : مهلاً إنك قاطعٌ ظهري وظهركَ معي عند صاحبك ، قال : أيها الرجل ! زوجني ، فزوجه ، فبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه ، فكتب إليه كتاباً يقطر الدم : لَعمري يا ابن أم خالد إنك لفارغٌ تنكح النساء ، وبفناء بيتك دم الف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفّ بعد ، ثم خدعك مجاعة عن رأيك فصالحك عن قومه وقد أمكنك الله منهم . فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول : هذا عمل

(١) العِرْضُ : وادي اليمامة ، والقَرِيّة : قرية من قراها .

(٢) تاريخ الخميس ج ٢

(٣) الاصابة ج ٣

الأعيسر ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكتب إلى أبي بكر جواب كتابه مع أبي بَرْزة الأسلمي :

أما بعد فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت بي الدار ، وما تزوجت إلا الى امرىء لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبلَ ، دع أني استثرت خطبتي إليه من تحت قدميّ ، فان كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك ، وأما حسن عزائي على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقي حياً أو يردّ ميتاً لأبقى حزني الحيّ وردّ الميت ، ولقد اقتحمت في طلب الشهادة حتى أيست من الحياة وأيقنت بالموت، وأما خدعة مُجّاعة إياي عن رأيي فاني لم أخطىء رأيي يومي ولم يكن لي علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلين خيراً ، أورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين [1].

وقفل خالد بعد ذلك من اليمامة إلى المدينة ، ومعه سبعة عشر رجلاً من وفد بني حنيفة ، فيهم مُجّاعة بن مُرارة وإخوته ، فلما دخل خالد المدينة دخل المسجد وعليه قَباء عليه صدأ الحديد ، متقلداً بالسيف معتمًّا في عمامته أسهم ، فمر بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يكلمه ، ودخل على أبي بكر رضي الله عنه فرأى منه كلما يحب فخرج مسروراً ، فعرف عمر أن أبا بكر قد أرضاه ، فأمسك عن كلامه ،

(١) تاريخ الخميس ج٢

وإنما كان عمر رضي الله عنه وجد عليه لأجل ماصنع بمالك بن نويرة وقتله إياه وتزوجه بامرأته ، وما كان في نفسه قبل ذلك من أمر بني جَذيمة[1]

وقد اختلف المؤرخون في عدة من استشهد باليمامة ، فأقل ما ذكروا من مبلغها سبعمائة، وأكثر ذلك الف وسبعمائة ، وقال بعضهم: إن عدتهم ألف ومائتان[2] واختلفوا ايضاً في تاريخ حرب المسلمين مرتدي أهل عُمان[3] ومَهْرَة[4] فقال إسحاق : كان فتح اليمامة واليمن والبَحْرَين[5] وبعث الجنود الى الشام سنة اثنتي عشرة ، وقال أبو معشر ويزيد بن عياض بن جُعْدُبة وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر وغيرهم من علماء أهل الشام وأهل العراق ؛ إن فتوح الردة كلها لخالد وغيره سنة إحدى عشرة ، إلا أمر ربيعة بن بُجَير التغلبي فانه كان سنة ثلاث عشرة ، وقصته أنه بلغ خالد بن الوليد رضي الله عنه

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٢) فتوح البلدان .

(٣) عُمان : كورة على ساحل بحر اليمن والهند .

(٤) مَهْرَة : قبيلة لها باليمن مخلاف بينه وبين عُمان نحو شهر .

(٥) البحرين : اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان .

أن ربيعة بالمُصَيَّخ والحُصَيد[1] فقام ربيعة وهو في جمع من المرتدين فقاتله خالد وغنم وسبى ، وبعث بالسبي إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وفيه ابنة لربيعة بن بُجير ، فصارت الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[2].



(١) المُصَيَّخ: ويقال له مُصَيَّخ بني البرشاء: هو قرب حوران ، والحصيد: موضع في أطراف العراق (٢) تاريخ الطبري ج ٣ وتاريخ ابن الاثير ج ٢

الفصل الخامس

الفتح الاسلامي

الروم والفرس قبل الفتح الاسلامي – عوامل النجاح في الفتح الاسلامي

الروم والفرس قبل الفتح الاسلامي

كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع السياسي والاداري والاجتماعي والديني ، فتعددت الفرق وتشعبت المذاهب،وخصوصاً في مايتعلق بالطبيعةوالطبيعيين والمشيئةوالمشيئتين.

وكان للانقسامات الدينيـة تأثير شـديد في السياسة ، لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل ذلك أحيانا إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم الى غيرهم ،

ويضاف الى ما تقدم ما كان بين الرومان واليهود من التباغض ، فقد بلغ غاية عظيمة في أيام هِرقل فثار اليهود في أنْطاكيَة فقتلوا بطْرِيَرْكها ، وفي صُور وقتلوا واليها ، واشتد غيظ اليهود على الامبراطورية البيزنطية في كل أنحائها ، حتى إنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى وذبحوهم .

وأما حالة الفرس قبيل الاسلام فكانت في غاية الانحطاط، لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب الدينية، كتعاليم زرادشت وماني ومزدك.

قال غوستاف لوبون: لما انتقل محمد (ﷺ) كانت سلطان قد اقتسمتا العالم: الامبراطورية الرومانية الشرقية، والامبراطورية الفارسية، فقد نهكت الحروب التي استعرت نيرانها بين الرومانيين والفرس قوى الأمتين جميعاً، وأدت بهما الى السقوط العظيم والانحلال السريع [1].

وقال لوثروب ستودارد: أجل هبّ الاسلام من شبه جزيرة هبوب العاصف الزعزع، فلاقى في سبيله جواً روحانياً خالياً، في ذلك العهد كانت مملكتا فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجافّ فارق عوده، لا نموّ فيه ولا حياة، وكان الدين في كلٍ من هاتين المملكتين ديناً يزرى عليه ويسخر منه.

وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت المزدكية الفارسية، والنصرانية البيزنطية شرّ مُمَزّق، وبذرت في كلٍ منهما بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية فنمت تلك البذور نمواً هائلاً ...

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون G. le Bon - La civilisation - des Arabes

وزد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حالٍ من الضعف شديدة بعيد حربٍ طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلتاهما منها مفتوتاً في عضدها منهوكة قواها [1].

الفتح الاسلامي

إن لهذا الفتح عوامل جرّأت العرب وساعدتهم على اكتساح تينك الدولتين العظيمتين : دولة الرومان الشرقية البيزنطية ، ودوله الفرس الساسانية .

جرّأ العرب على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها — اعتقادهم أنهم إنما يفتحون الدنيا في سبيل الله ، وأن الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الارض ، وأنه من مات منهم مات شهيداً ، وأن الآخرة خيرٌ وأبقى .

جرّأهم على ذلك تعاليم الاسلام التي أمرت بالمؤاخاة والتعاضد وتوحيد الكلمة ، وطرح العصبية القبلية في زوايا الإهمال .

جرّأهم على ذلك ضعف الروم والفرس السياسي والديني والاجتماعي والخلقي الخ ...

وقد زاد العرب رغبةً في حرب الشام والعراق ومصر ما علموه

(١) حاضر العالم الاسلامي للوثرب ستودارد ترجمة عجاج نويهض

من خصب تلك الأرضين وكثرة خيراتها ، وبلادهم قاحلة لا تفي بطامعهم .

وقصارى القول ان مما ساعد العرب على ركوب هذا المركب الخشن تعود معظمهم خشونة العيش ، واعتقادهم بالقضاء والقدر وأنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، وكفاءة رجال صدر الاسلام وقواده في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة والتقوى وصدق العزيمة ، يضاف الى ذلك نقمة الشعوب الى حكامهم كاليهود وغيرهم ، وعدل المسلمين ورفقهم وتسويتهم بين الناس ، الى غير ذلك من العوامل التي جعلت الجيش الاسلامي يقهر تينك الدولتين العظيمتين .

قال سيديو : عوّد النبي (ﷺ) الصحابة على الجهاد ، وأعلمهم بنحو الحديث جعل رزقي تحت ظل رمحي أن الدنيا نصيب المؤمنين بقوة عزائمهم ، فغلب عليهم في الجهاد هُيام ديني ، لا سيما إذا حثهم الرؤساء حين تقوم الحرب على ساقها بقولهم : إن الجنة أمامكم ، والنار خلفكم ، فانهم بهذه الموعظة المبشرة بالجنة ، والحماسة المثيرة طباع الحرب وشدة الضرب والطعن ، يلقون أنفسهم وسط المعركة فيفوزون في أكثر المقاتلات بالنصر ، بعد أن ينازل رئيسهم أشجع الاعداء قبل انعقاد الواقعة ، إلا أنهم كانوا يجهلون تعبئة الجيش العلمية ، فاعتنوا بمعرفة استعدادات أعدائهم الحربية ، وانتظاماتهم العسكرية فأخذوا يقلدونهم

حتى عودوا عساكرهم الانتظام ، وعرفوا كيف ينتفعون بفرسانهم بوضعهم على ميمنة الصفوف وميسرتها وقت القتـال . وبالجملة توالت للعرب نصرات ضعفت بها الفرس ، وكذا الروم المنقسمون الى أحزاب متعادية لاختلاف أديانها ، المتعودون أن يستأمنوا على مملكتهم للحماية عنها غرباء مؤجرين ، لا يعرفون قوة عزائم الأمة العربية ، ظانين أن حربها كالحروب القديمة التي كان يؤول أمرها الى الاتفاق والصلح مع الأعداء ، فضيعوا بذلك زمناً نفيساً لم يتداولوا فيه مع هؤلاء الرجال الذين كانوا إذا نصروا أو انهزموا لا يزالون مصرين على إلزام العـدو إما الدخول في الاسلام أو دفع الجزية مع الصغار ، على أن الرعايا الرومية كانت فرحة بحكم الاسلاميين لما رأت من صدقهم في المعاهدات والمعاملات ، وعدم تعسفهم واجحافهم ، فأخذ الروم يسلمون ، وكل من نطق بالشهادتين تثبت له الحقوق الاسلامية ، ثم تكامل اختلاط الروم بالعرب ، فأخذ العربي يتزوج بروميات في آن واحد[1] .

---

(١) خلاصة تاريخ العرب لسيديو

الفصل السادس

حروب خالد بن الوليد في العراق

مسير خالد إلى العراق وصلحه لابن صَلوبا ـ صلحه لأهل الحيرة ـ وقعة ذات السلاسل ـ وقعة المَذَار أو الثَّنْي ـ وقعة الوَلَجَة ـ وقعة أُلَيْس خبر أمْغِيشيا ـ وقعة يوم المَقْر وفرات بادَقْلَى وفتح الحيرة ـ أعمال خالد بعد فتح الحيرة ـ فتح الأنبار ـ فتح عَيْن التمْر ـ خبر دُومة الجَنْدَل وحُصَيْد والخَنَافس ـ وقعة مُصَيَّخ بني البَرْشاء ـ وقعة الثَّنِيّ والزُّميل ـ وقعة الفِرَاض ـ حجة خالد.

مسير خالد إلى العراق وصلحه لابن صلوبا

لما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من أمر اليمامة كتب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة فسيره أبو بكر رضي الله عنه إلى العراق، فمضى خالد حتى نزل بقريات من السواد[1] يقال بانِقْيا[2] وبارُوسْما[3] وأُلَّيس[4]، فصالحه أهلها، وكان الذي صالحه عليها بُصْبُهْرِي بن صَلُّوبا وذلك في سنة اثنتي عشرة.

---

(١) السَّوَاد: رستاق العراق وضياعها. (٢) بانِقْيا: ناحية من نواحي الكوفة.
(٣) بارُوسْما: ناحيتان من سواد بغداد.
(٤) أُلَيْس: موضع في أرض العراق من ناحية البادية وقيل قرية من قرى الأنبار.

فقبل منهم خالد رضي الله عنه الجزية و كتب لهم كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد لابن صَلوبا السوادي ، ومنزله بشاطىء الفرات ، انك آمن بأمان الله إذ حقن دمه بإعطاء الجزية ، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتيك بانِقيا وبارُوسْما ألف درهم ، فقبلتها منك ورضي من معي من المسلمين بها منك ، ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ وذمة المسلمين على ذلك ، وشهد هشام بن الوليد .

صلح خالد لأهل الحيرة

ثم أقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بمن معه حتى نزل الحِيرة [1] ، فخرج إليه أشرافهم مع إياس بن قَبِيصة الطائي ، وكان أمّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر ، فقال له خالد ولأصحابه : أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، فان أجبتم إليه فأنتم من المسلمين ، لكم مالهم وعليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فان أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياه ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم [2] .

فقال إياس بن قَبيصة والي الحيرة : ما لنا في حربك من حاجة ،

---

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثه أميال من الكوفة على النجف .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٢ .

وما نريد أن ندخل معك في دينك ، نقيم على ديننا ونعطيك الجزية ، فصالحه على ستين الف درهم[1] ورحل على أن لا يهدم لهم بيعةً ولا كنيسةً ولا قصراً من قصورهم التي كانوا يتحصنون فيها إذا نزل بهم عدو لهم ، ولا يُمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخراج الصلبان في يوم عيدهم ، وعلى أن لا يشتملوا على تَغَبَةٍ (أي فسادٍ) ، وعلى أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين مما يحل لهم من طعامهم وشرابهم ، وكتب لأهل الحيرة كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة ، إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أمرني أن أسير بعد مُنْصرَفي من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم ، بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام ، وأبشرهم بالجنة ، وأنذرهم من النار ، فان أجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين . وإني انتهيت الى الحيرة ، فخرج إليَّ إياس بن قَبيصه الطائي في أُناس من أهل الحيرة من رؤسائهم ، وإني دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا : لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحك عليه غيرنا

(١) رواية الطبري وابن الأثير : على تسعين ألفاً ، وفتوح البلدان أنها أربعة وثمانون ألفاً وزن خمسة تكون ستين وزن سبعة .

من أهل الكتاب في إعطاء الجزية ، وإني نظرت في عِدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زَمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف ، فصالحوني على ستين الفاً ، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ، ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلّوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذه أشدَّ ما أخذه على نبيٍّ من عهد أو ميثاقٍ أو ذمةٍ ، فان هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورَعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلينا المنع لهم ، فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشدَّ ما أخذ على نبيٍّ من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخٍ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبدٍ من عبيدهم أسلم أُقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يُقدر عليهم في غير الوكس ولا تعجيل ودُفع ثمنه الى صاحبه . ولهم كل مالبسوا من الزّي إلا زيّ الحرب

من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب، وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عمالهم منهم ، فان طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به، ومؤنة العون من بيت مال المسلمين[1] وكتب بذلك الى أبي بكر رضي الله عنه فأجازه[2] فكانت أول جزية وقعت بالعراق هي والقريات التي صالح عليها ابن صلوبا .

وقعة ذات السلاسل

قدم المثنى بن حارثة الشيباني على أبي بكر رضي الله عنه ،فقال : أمّرني على من قبَلي من قومي ، أُقاتل من يليني من أهـل فارس ، وأكفيك ناحيتي ، وكان المثنى يغير قبل ذلك على السواد في رجال من قومه ، فبلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه خبره فقال : من هـذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم المِنقَري: هذا رجلٌ غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني[3] فأمّره أبو بكر رضي الله عنه وكتب له في ذلك عهداً ،فأقبل فجمع قومه ، وأخذ يغيرُ بناحية كَسْكَر[4]

(١) الخراج لأبي يوسف . (٢) الخراج ليحيى بن آدم القرشي .
(٣) الاصابة ج ٣ وفتوح البلدان .
(٤) كَسْكَر : كورة واسعة في العراق .

مرة ، ومن أسفل الفرات مرة ، ونزل خالد بن الوليد رضي الله عنه النِّبَاج[1] ، والمثنى بن حارثة بخَفّان[2] معسكر . فكتب اليه خالد ابن الوليد رضي الله عنه ليأتيه ، وبعث اليه بكتاب من أبي بكر يأمره فيه بطاعته ، فانقضّ اليه جواداً حتى لحق به[3] غير أنه كره ذلك لأنه كان ظن أن أبا بكر سيوليه الأمر[4] .

وكان أبو بكر قد أمر خالداً وعياض بن غَنْم أن يستنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الاسلام بعد رسول الله ﷺ وأن لا يغزوَنّ مرتدّ ، ففعلا وكتب اليه يستمدانه ، فأمد خالداً بالقعقاع ابن عمرو التميمي ، فقيل له : أتمده برجل واحد ؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ، وأمد عياضاً بعبد بن غوث الحِمْيَري وكتب أبو بكر رضي الله عنه الى المثنى وحرملة بن سلمى ومذعور بن عدي وسُلمى بن القين أن يلحقوا بخالد بالأُبُلّة[5] .

فقدم خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل ، وكان مع المثنى وأصحابه ثمانية آف . ولما قدم خالد رضي الله عنه فرّق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد ، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظَفَر ، وسرّح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم

(١) النِّبَاجُ : موضع في طريق البصرة (٢) خفّانُ : موضع قرب الكوفة .
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ . (٤) الأخبار الطوال للدِّينَوَري .
(٥) الأُبُلّة : بلدة على شاطيء دجلة البصرة .

ابن نصر ، أحدهما قبل صاحبه بيوم ، وخرج خالد رضي الله عنه ودليله رافع بن عمير ، فواعدهم جميعاً الحَفِير [1] ليجتمعوا به وليصادموا به عـدوهم .

وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه الى هُرمُز صاحب الثغر يومئذ : أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما قدم الكتاب على هُرمُز كتب الى أردشير ملك الحيرة بالخبر ، وتعجـل الى الكواظم ليتلقى خالداً ، وبلغه أنهم تواعـدوا الحَفِير فسبقهم اليه وجعل على مقدمته قَباذ وأنوشَجان ، وكانا من أولاد أردشير الأكبر ، واقترنوا في السلاسل لئلا يفرّوا ، فسمع بهم خالد رضي الله عنه فمال بالناس الى كاظِمَة [2] . وبلغ هرمز ذلك فبادره الى كاظمة فنزلها وهو حسير ، وكان من أسوء أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب ، فكل العرب عليـه مَغيظ ، وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخبث ، حتى قالوا : أخبث من هُرمز ، وأكفر من هرمز . وتعبى هرمز وأصحابه والماء في أيديهم ، وقدم خالد فنزل على غير ماء ، فقالوا

---

(١) الحَفِير : أول منزل من البصرة لمن يريد مكة .

(٢) كاظمة : في طريق البحرين بينها وبين البصرة مرحلتان .

له في ذلك ، فأمر مناديه فنادى : ألا انزلوا وحطّوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين ، فحطت الاثقال والخيل وقوف ، وتقدم خالد الى الفرس فلاقاهم ، وأرسل الله سحابة فأغدرت ما وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم .

فلما علم هرمز بمجيئهم دعا خالداً الى البراز ، وأوطأ أصحابه على الغدر بخالد ، فبرز اليه خالد ومشى نحوه راجلاً ، ونزل هرمز أيضاً وتضاربا فاحتضنه خالد ، وحمل أصحاب هرمز فما شغله ذلك عن قتله . وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم ،وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم الى الليل ، وجمع خالد الرّثاث وفيها السلاسل ، فسميت الوقعة ذات السلاسل ، ونجا قباذ وأنو شجان ، وأخذ خالد رضي الله عنه سلَبُ هرمز ، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم فمن تمّ شرفه فقيمة قلَنْسُوَته مائة ألف ، فكان هرمز ممن تم شرفه ، فكانت قيمتها مائة ألف ، فنفّلها أبو بكر خالداً رضي الله عنهما وكانت مفصّصة بالجوهر ، وبعث خالد بالفتح والاخماس إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة ، وبعث المثنى في آثارهم . ولم يمسّ خالد رضي الله عنه وأمراؤه الفلاحين بسوء ، وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا

يقومون بأمور الاعاجم ، وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة[1] .

وقعة المذار وتسمى الثني[2]

لما وصل كتاب هُرمز إلى أردشير بخبر خالد بن الوليد رضي الله عنه أمدّه بقارِن بن قريانس ، فخرج قارِن من المدائن[3] ممداً لهرمز، حتى إذا انتهى إلى المَذَار بلغته الهزيمه وانتهت إليه الفُلاّل فتذامروا، وقال فُلاّل الأهواز[4] وفارس لفُلال السواد والجَبَل[5] : إن افترقتم لم تجتمعوا بعد أبداً ، فاجتمعوا على العود مرةً واحدة ، فهذا مدد الملك ، وهذا قارِن لعل الله يُديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض ما أصابوا منا ، ففعلوا وعسكر بالمَذَار ، واستعمل قارن على مُجَنِّبتة قباذ وأنوشجان ، وأرسل المثنى والمعَنّي إلى خالد بالخبر ، ولما انتهى الخبر إلي خالد رضي الله عنه عن قارِن قسم الفَيْء على من أفاءه الله عليه ، ونَفَلَ من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبي بكر رضي الله عنه وبالخبر عن القوم وباجتماعهم إلى

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ . وابن الأثير ج ٢

(٢) المَذَار : بين واسط والبصرة ، والثَّنيُ : نهر قرب البصرة .

(٣) المدائن : هي سبع مدائن كانت للأكاسرة بين الفرات ودجلة .

(٤) الأهواز : كورة بين البصرة وفارس .

(٥) الجبل : بلاد العراق .

الثِنْي المغيث منهم والمغاثِ مع الوليد بن عُقبة ، وخرج خالد سائراً حتى ينزل المَذَار على قارِن في جموعه ، فالتقوا وخالد على تعبيته ،فاقتتلوا على حنق وحفيظة ، وخرج قارن يدعو للبراز ، فبرز له خالد وأبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النبّاش فابتدراه ، فسبقه إليه معقل فقتله ، وقتل عاصِمٌ الأنوشجان ، وقتل عدي بن حاتم قباذ ، وكان شرف قارن قد انتهى ، ثم لم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه في الأعاجم ، وقتلت فارس مقتلةً عظيمة تبلغ ثلاثين ألفاً سوى من غرق ، فضموا السفن ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ، ولولا المياه لأُتي على آخرهم ، ولم يفلت منهم من أفلت إلا عُراةً وأشباه العراة . وأقام خالد بالمَذَار وسلّم الأسلاب لمن سلبها باللغةً ما بلغت ، وقسم الفيء ونفّل من الأخماس أهل البلاء ، وبعث ببقية الأخماس ، ووفد وفداً مع سعيد بن النعمان أخي بني عدي ، وأقرّ الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعد ما دُعوا . وسبى عيالات المقاتلة ومن أعانهم فكان في السبي والد الحسن البصري [1] قال القعقاع بن عمرو:

فنحن وطئنا بالكواظم (هُرمُزاً) وبالثِّنْي قرنَيْ (قارِن) بالجوارف [2]

وقعة الولجة

لما فرغ خالد من الثِّنْي وأتى الخبر أردشير بعث الأنْدَرْزَغر

(١) تاريخ الطبري ج ٤ (٢) معجم البلدان (الثّني) .

وكان فارسياً من مولدي السواد ، وأرسل بهمن جاذَوَيْه في أثره في جيش ، وحشر الى الأندَرْزَغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا الى جنب عسكره بالوَلجَة[3] ، ولما بلغ خالداً وهو بالثني خبر الأندرزغر ونزوله في الوَلجَة نادى بالرحيل ، وخلف سويد بن مُقرّن وأمره بلزوم الحفير ، وتقدم الى من خلف في أسفل دجلة ، وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار ، وخرج سائراً في الجنود نحو الولجة ، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً . حتى ظن الفريقان أن الصبر قد أفرغ ، ولم يلقوا بعد هرمز أحداً إلا كانت الوقعة الآخرة أعظم من التي قبلها ، واستبطأ خالد كمينه ، وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتين ، فخرج الكمين في وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا ، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم يرَ رجل منهم مقتل صاحبه ، ومضى الأندَرْزَغر في هزيمته فمات عطشاً ، وقام خالد في الناس خطيباً يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب ، وقال : ألا ترون الى الطعام كرَفْغ التراب ؟ (الرفغ : السعة والخصب) وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولّي الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما

---

(٣) الولَجَة : موضع بأرض كسكر بالعراق مما يلي البر .

أنتم عليه . وسار في الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم ، وكانت هذه الوقعة والتي قبلها واللتان بعدها في شهر صفر من سنة اثنتي عشرة[1] .

قال القعقاع بن عمرو :

ولم أرَ قوماً مثل قوم رأيتهم ... على وَلَجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرُّوَّاس في كل مجمعٍ ... إذا ضعضع الدهرُ الجموعَ وكبكبا[2]

وقعة أليس

لما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من نصارى بكر بن وائل الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الفرس وكاتبهم الفرس ، فاجتمعوا الى ألّيس وعليهم عبد الأسود العِجلي ، وكان أشدَّ الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عِجل عتيبة بن النّهاس وسعيد بن مرة وفُرات بن حيان والمثنى بن لاحق ومذعور ابن عدي .

وكتب أردشير الى بهمن جاذوَيه وهو بقُسْيَاثا[3] يأمره بالقدوم على نصارى العرب بأُلّيس ، فقدّم بهمن جاذَوَيْه جابان اليهم وأمره بالتوقف عن المحاربة الى أن يَقْدَم عليه ، ورجع بهمن جاذويه

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ .
(٢) معجم البلدان (الوَلَجة) .
(٣) قُسيَاثا : موضع بالعراق .

الى أردشير ليشاوره فيما يفعل ، فوجده مريضاً فتوقف عليه ، فاجتمع على جابان نصارى عِجل و تَيْم اللات و ضُبيعة وعربُ الضاحية من أهل الحيرة وجابر بن بجير .

ولما بلغ خالداً رضي الله عنه تجمعُ نصارى بكر وغيرهم سار اليهم ولا يشعر بدنو جابان ، فلما طلع على جابان بأُلّيس قالت الفرس لجابان : أنعاجلهم أم نَغدّي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ فقال جابان : إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظني بهم أن سيعجلوكم ويعاجلوكم عن الطعام ، فعصوه وبسطوا البُسُط ووضعوا الاطعمة و تَداعوا اليها وتوافوا اليها .

فلما انتهى خالد رضي الله عنه اليهم وقف وأمر بحط الأثقال فلما وضعت توجه اليهم بنفسه ، وطلب مبارزة عبد الأسود وابن أبجر ومالك بن قيس ، فبرز اليه مالك ، فقال له خالد : يا ابن الخبيثة ! ما جرأك عليّ من بينهم وليس فيك وفاء ؟ فضربه فقتله ، وأعجل الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا ، فقال جابان : ألم أقل لكم ياقوم ؟ أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلداً : ندعها حتى نفرغ منهم ونعود اليها ، فقال جابان : حيث لم تقدروا على الأكل فسُمُّوا الطعام ، فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت لهم هلكوا بأكله ، فلم يفعلوا ، واقتتلوا قتالاً

شديداً ، والمشركون يزيدهم كَلَباً وشدةً ما يتوقعون من قدوم بهمن جاذَوَيْه ، فصابروا المسلمين ؛ واشتد حنق المسلمين عليهم. وقال خالد رضي الله عنه : اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجري نهرهم بدمائهم ، فانهزمت فارس ، فنادى منادي خالد : الأسرَ الأسرَ ، لا تقتلوا إلا من امتنع ، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوقاً ، وقد وكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل ذلك بهم يوما وليلة ، فقال له القعقاع وغيره : لو قتلت أهل الارض لم تجْرِ دماؤهم ، فأرسل عليها الماء تَبَرَّ بيمينك ، ففعل فسمي نهر الدم .

ووقف خالد على الطعام وقال للمسلمين : نَفّلتكموه فهو لكم، فقد كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نَفّله ، فتعشى المسلمون ، وجعل من لم يَرَ الرُقاق (الخبز الرقيق) يقول : ما هذه الرقاع البيض ؟ وبلغ عدد القتلى سبعين الفاً ، وبعث خالد بالخبر مع رجل يدعى جنْدَلاً من بني عِجل ، فقدم على أبي بكر بالخبر وبفتح أُلّيس وبقدر الفيء وبعدة السبي وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء من الناس[1]

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ .

وقال خالد رضي الله عنه : ماالقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أُلّيس[1] .

خبر أمغيشيا

لما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من وقعة أُليس نهض فأتى أَمْغِيشِيا[2] ، وقد أعجلهم عما فيها من الاموال والأثاث والكُراع (الخيل) وغير ذلك ، وقد جلا أهلها وتفرقوا في السواد ، فأمر خالد بهدم أمغيشيا وكل شيء كان في حَيّزها ، وكانت مصراً كالحيرة ، وكان ُفرات بادَقْلى ينتهي اليها ، وكانت أليس من مسالحها ، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط ، ولم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا ، بلغ سهم الفارس الفاً وخمسمائة سوى النفل الذي نُفّله أهل البلاء . وقال أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه ذلك : يامعشر قريش ! يخبرهم بالذي أتاه ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراديله (أي لحمه المقطع) ، أعجزت النساء أن يُنشئن مثل خالد ؟[3]

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ .

(٢) أمغيشيا : موضع كان بالعراق .

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢

وفي تلك الوقعة قال أبو مُفَزِّر الأسود بن قُطْبة :

لقينا يوم أُلَّيس وأمْغى ... ويوم المقْر آسادَ النهار

فلم أرَ مثلها فضلاتِ حربٍ ... أشد على الجحاجحة الكبار

قتلنا منهم سبعين ألفاً ... بقية حربهم نَخْب الإسار

سوى من ليس يُحصى من قتيلٍ ... ومن قد غال جولانُ الغبار [1]

وقعة يوم المقر وفم فرات بادقلى وفتح الحيرة

ثم سار خالد رضي الله عنه من أمغِيشيا الى الحِيرة وحمل الرجال والأثقال في السفن . وأما الآزاذبه مرزبان الحيرة فقد علم أنه غير متروك . فأخذ في أمره وتهيأ لحرب خالد . وقدّم ابنه ثم خرج في أثره حتى عسكر خارجاً من الحيرة . وأمر ابنه بسدّ الفرات . فقطع الماء عن سفن خالد فبقيت على الأرض . فارتاع عسكر خالد ، وقال الملاّحون : إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه . فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار . فسار خالد في خيل نحو ابن الآزاذبه فتلقاه خيل من خيله وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة ، فقتلهم بالمَقر [2] ثم سار من فوره إلى ابن الآزاذبه وجنده ، فلقيهم على فم فُرات بادَقْلَى فاقتتلوا فأنامهم (أي قتلهم) وفجر الفرات وسدّ

(١) معجم (البلدان أمغيشيا)

(٢) المَقر : موضع قرب فرات بادقلى من ناحية البر من جهة الحِيرة .

الأنهار وسلك الماء سبيله . ولما أصاب خالد ابنَ الآزاذبه على فم فرات بادَقْلى سار نحو الحيرة واستلحق أصحابه ؛ وسار حتى نزل بين الخَوَرْنَق والنَّجَف [1] . فقدم خالد الخَوَرْنَق وقد قطع الآزاذبه الفرات هارباً من غير قتال . وإنما حداه على الهرب أن الخبر وقع إليه بموت أردشير وبمصاب ابنه ، ثم نزل عسكره بين الغَرِيَّين والقصر الأبيض [2] وتحصن أهل الحيرة فحصرهم في قصورهم فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره ، وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم . فكان ضِرار بن الأزْوَر محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قَبيصة الطائي . وكان ضِرَار بن الخطاب محاصراً قصر العَدَسِيِّين [3] وفيه عدي بن عدي المقتول . وكان ضرار بن مُقَرِّن المزني محاصراً قصر بني مازن وفيه جيريّ ابن أكَّال . وكان المثنى محاصراً قصر ابن بُقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح بن بُقيلة . وعهد خالد إلى أمرائه أن يبدأوا بالدعاء . فإن قبلوا قبلوا منهم . وإن أبَوا أن يؤجلوهم يوماً . وقال : لا تمكنوا عدوكم من آذانكم

(١) الخَوَرْنَق : موضع بالكوفة أو قصر كان بظهر الحيرة ، والنَّجَفُ : هو موضع بظهر الكوفة .

(٢) الغَرِيَّان : بناآن كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والقَصْر الأبيضُ : من قصور الحيرة .

(٣) قصر العَدَسيِّين : قصر بالكوفة في طرف الحيرة لبني عمَّار بن عبد المسيح .

فيتربصوا بكم الدوائر . ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم . فكان أول القواد أنشب القتال بعد يوم أجلَّوهم فيه ضرار بن الأزور ، وكان على قتال أهل القصر الأبيض . فأصبحوا وهم مُشرِفون . فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة ، فقاتلهم المسلمون فافتتحوا الدُّور والأديارَ وأكثروا القتل . فنادى القسيسون والرهبان : يا أهل القصور ! ما يقتلنا غيركم . فنادى أهل القصور : يامعشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث . فكُفُّوا عنا حتى تبلغونا خالداً . فخرجوا إليهم وأرسلوهم إلى خالد ، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدي وقال : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال له عدي : بل عرب عاربة ، وأخرى متعرّبة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسانٌ إلاَّ بالعربية ، فقال صدقت ، وقال : اختاروا واحدةً من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقومٍ هم على الموت أحرصُ منكم على الحياة . فقال : بل نعطيك الجزية ، فقال خالد : تباً لكم ، ويحكم

إن الكفر فلاةٌ مَضَلَّة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واستدلّ الأعجمي ، فصالحوه على مائة وقيل مائتي ألف وتسعين ألفاً ، وتتابعوا على ذلك وأهدوا له هدايا ، وبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر رضي الله عنه مع الهُذَيل الكاهلي ، فقبلها أبو بكر رضي الله عنه من الجزية ، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء إلا أن تكون من الجِزاء ، وخذ بقية ما عليهم فقوّ بها أصحابك . وقال ابن بُقيلة :

أَبعدَ المنذرينَ أرى سَواما تَروّحُ بالخوَرْنَق والسدير[1]

تحاماه فوارس كل حيّ مخافة ضيغم عالي الزئير

وبعد فوارس النعمان أرعى قَلوصاً بين مُرّةَ والحفير

فصرنا بعد هلك أبي قُبَيس كمثل الشاء في اليوم المَطير

تقسّمنا القبائل من معدٍّ علانيةً كأيسار الجَزور

وكنا لا يُرام لنا حريم فنحن كضرةِ الضَّرع الفخور

نؤدي الخرْجَ بعدخراج كسرى وخرجٍ من قُريظة والنَّضير

كذاك الدهر دَوْلَتُه سجالٌ فيوم من مساءةٍ أو سرور[2]

وقال عاصم بن عمر :

ألم ترنا غداةَ المقرِ فِئنا بأنهار وساكنها جهارا

(١) السَّدِيرُ : نهر ويقال قصر بالحيرة .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ومعجم البلدان (الخورنق) .

قتلناهم بها ثم انكفأنا — الى فم الفرات بما استجارا

لقينا من بني الأحرار فيها — فوارسَ ما يريدون الفرارا

وقال أيضاً :

جلبنا الخيل والإبل المهارى — الى الأعراض أعراض السّواد

ولم ترَ مثلنا كرماً ومجداً — ولم ترَ مثلنا شِنْخاب هاد

شحنّا جانب المِلْطاط (١) منا — بجمعٍ لا يزول عن البعاد

لزمنا جانب المِلْطاط حتى — رأينا الزرع يقمع بالحصاد

لنأتيَ معشراً ألبُوا علينا — الى الأنبار أنبار العباد

وقال أيضاً :

صبحنا الحيرة الرّوحاء خيلاً — ورَجْلاً فوق أثباج الركاب

حضرنا في نواحيها قصوراً — مشرّفة كأضراس الكلاب (٢)

وقال أخوه القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة :

سقى اللهُ قتلى في الفرات مُقيمةً — وأخرى بأثباج النجاف الكوانفِ

فنحن وطئنا بالكواظم هُرْمُزاً — وبالثِّنْيِ قرْنَيْ قارنٍ بالجوارف

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت — على الحيرة الرّوْحاء احدى المصارف

حططناهم منها وقد كاد عرشهم — يميلُ به فعْلُ الجبانِ المخالف

(١) المِلْطاط : هو ماولي الفرات من الكوفة .

(٢) معجم البلدان (المقر) و (الملطاط) و (الحيرة) .

رمينا عليهم بالقبُول وقد رأوا   غَبُوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا   الى الريف من أرض العُرَيْب المقانِف[1]

اعمال خالد بعد فتح الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد بن الوليد رضي الله عنه وينظرون مايصنع أهل الحيرة ، فلما صالحهم واستقام أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتته دهاقين الملطاطين ، وأتاه زاذ بن بُهَيْش دهقان فُرات سِرْيا[2] وصلوبا بن نسطونا بن بُصبْهُرى ، فصالحوه على مابين الفَلاليج[3] الى هُرمُزْجِرْد[4] على الفي الف ، وقيل على ألف ألف ثقيل ، وأن للمسلمين ما كان لآل كسرى ، ومن مال معهم عن المقام في داره فلم يدخل في الصلح ، وضرب خالد رِواقه في عسكره ، وكتب لهم كتابا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا ، إن لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البِهْقُباذ[5] الاسفل والاوسط على ألفي

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .
(٢) سريا : قرية قرب البصرة .
(٣) الفلاَليج : قرى السواد .
(٤) هُرمُزْجِرد : ناحية كانت بأطراف العراق .
(٥) البِهْقُباذ : اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سَقْي الفرات ، وهي الأعلى ، والأوسط ، والأسفل .

ألف تقبل في كل سنة ، ثم كل ذي يد ، سوى ما على بانقيا و بَسما ،[1] وإنكم قد أرضيتموني والمسلمين ، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقُباذ الأسفل ، ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم . شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الحِمْيَري وبشير بن عبد الله بن الخَصاصية وحنظلة بن الربيع وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر .

ثم بعث خالد بن الوليد عماله ومسالحه، فبعث في العمالة عبد الله بن وَثيمة النّصري ، فنزل في أعلى العمل بالفَلاليج على المنعة وقبض الجزية ، وجرير بن عبد الله على بانقيا وبَسما ، وبشير بن الخصاصية على النَّهْرَين، فنزل الكُوَيْفَة بيابْنُورَا[2]،وسويد بن مُقرّن المزني إلى تُستَر[3] فنزل العَقْر[4] ، فهؤلاء كانوا عمال الخراج ، وكانت الثغور في زمن خالد بالسَّيب[5] ، بعث ضرار بن الأزوَر وضرار بن الخطاب والمثنى بن حارثة وضرار بن مُقَرّن والقعقاع بن عمرو وبُسْر

(١) كذا في الطبري ولم يذكرها ياقوت بل ذكر بانِقْيا وسمّيا وقد تقدم ذكر بانقيا وبارُوسما في الصفحة الـ ٨٩

(٢) الكُوَيْفَة : تصغير الكوفة،وبابْنُورَا: ناحية بالحيرة من أرض العراق.

(٣) تُسْتَر : كانت أعظم مدينة بخوزستان بين الكوفة والبصرة .

(٤) العَقْرُ : قرية في العراق .

(٥) السِّيب : نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة .

ابن أبي رهم وعتيبة بن النهاس، فنزلوا على السيب في عرض سلطانه، فهؤلاء أمراء ثغور خالد، وأمرهم خالد بالغارة والإلحاح، فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطىء دجلة.

ثم دعا خالد رضي الله عنه برجل من أهل الحيرة ودعا صلوبا برجل وكتب معهما كتابين: كتاب إلى الخاصة وكتاب إلى العامة، أحداهما حيري والآخر نبطي، وقال لرسول أهل الحيرة: ما اسمك؟ قال مرة، قال خذ الكتاب فأت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا، وقال للآخر: ما اسمك؟ قال هزقيل، قال: فخذ الكتاب وقال: اللهم ازهق نفوسهم. وهذا نص الكتابين:

بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس. أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم، وإلا لكان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس: الحمد لله الذي فض خدمتكم، وفرق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب أموالكم، وأذل عزكم، فإذا أتاكم كتابي هذا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤.

فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا[1].

فلما وصلهم كتب خالد اتفق نساء آل كسرى على تولية أحد أمراء فارس إلي أن يجتمع آل كسرى على من يملكونه. وكان أهل فارس حينئذ مختلفين لموت أردشير في الملك مجتمعين على قتال خالد قد أنزلوا بهمن جاذويه بَهُرَسِير[2] كأنه مقدمة لهم ومعه الآزاذبه في أشباهٍ له، ثم جُبي الخراج الى خالد في خمسين ليلة فأعطاه المسلمين فقووا به على أمورهم، وأخذوا يمخرون مادون دجلة، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليس لأحدٍ منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه، وكتب العمال البراءآت لأهل الخراج من نسخة واحدة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد، وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد، والمسلمون لكم يدٌ على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم. أمانكم أمان، وصلحكم صلح، نحن لكم على الوفاء. وأشهدوا لهم النفر من الصحابة الذين كان خالد أشهدهم.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١.

(٢) بَهُرَسِير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن.

وقد كتب أهل الحيرة كتاباً : إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح ، والمسلمون عباد الله الصالحون ، على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم[1] .

فتح الأنبار

خرج خالد بن الوليد رضي الله عنه على تعبئته التي خرج فيها من الحيرة ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، فلما نزل الأقرع المنزل الذي يسلمه الى الأنبار[2] أنتج قوم من المسلمين إبلهم ، فلم يستطيعوا العرجة ولم يجدوا بداً من الإقدام ، ومعهم بنات مخاض تتبعهم ، فلما نودي بالرحيل صرّوا الأمهات ، واحتقبوا المنتوجات لأنها لم تطق السير ، فانتهوا ركباناً الى الأنبار ، وقد تحصن أهل الأنبار وتخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم ، وعلى تلك الجنود شيرزاذ صاحب ساباط[3] .

وقدم خالد رضي الله عنه على المقدمة ، فأطاف بالخندق ونشب القتال ، وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به ، وتقدم الى رُماته فأوصاهم وقال : إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد .

(٣) ساباط : موضع بالمدائن .

ولا تؤخّذوا غيرها ، فرموا رِشقاً واحداً ثم تابعوا ، ففقىء ألف عين يؤمئذ ، فسميت تلك الوقعة ذات العيون ، وتصايح القوم : ذهبت عيون أهل الأنبار .

ولما سمع شيرزاذ ذلك راسل خالداً رضي الله عنه في الصلح على أمرٍ لم يرضه خالد ، فردّ رسله ، وأتى خالد أضيق مكانٍ في الخندق ، ونحر من إبل العسكر كل ضعيف وألقاه في خندقهم ثم عبره ، فاجتمع المسلمون وأعداؤهم في الخندق ، فأرسل شيرزاذ إلى خالد رضي الله عنه وبذل له ما أراد ، فصالحه على أن يلحقه بمأمنه في جريدة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فخرج شيرزاذ حتى أتى بهمن جاذَويه فأخبره الخبر ، فلامه بهمن ، فاعتذر شيرزاذ بقوله : إني كنت في قومٍ ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب ، فسمعتهم مقْدَمَهم علينا يقضون على أنفسهم ، وقلّما قضى قوم على أنفسهم قضاءً إلاّ وجب عليهم ، ثم قاتلهم الجند ففقئوا فيهم وفي أهل الارض ألف عين ، فعرفت أن المسالمة أسلم .

ولما اطمأن خالد رضي الله عنه بالأنبار والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم ما أنتم ؟ فقالوا قومٌ من العرب ، نزلنا الى قومٍ من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بخت نصر حين أباح العرب ، ثم لم تَزُل عنها ،

فقال : ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قَوْمي إيادٌ لو أنهم أمَمُ أو لو أقاموا فتُهزلَ النَّعَمُ

قومٌ لهم باحةُ العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلمُ

وصالح خالد من حول الانبار وبعث اليه أهل كَلْوَذَى[1] ليعقد لهم فكاتبهم فكانوا عَيبته (موضع سرّه) من وراء دجلة[2] .

فتح عين التمر

لما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من الأنبار واستحكمت له استخلف عليها الزِّبرقان بن بدر وقصد لعين التمر[3] وبها يومئذ مهران ابن بهرام جُوبين في جمعٍ عظيمٍ من العجم ، وعَقّة بن أبي عَقة في جمع عظيم من العرب من النَّمر وتغلب وإياد ومن لاّفهم ، فلما سمعوا بخالد رضي الله عنه قال عقة لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً ، قال : صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا في قتال العجم ، فخدعه واتقى به وقال : دونكموهم وإن احتجتم الينا أعنّاكم .

فلزم مهران العين ، ونزل عقة لخالد على الطريق ، وبين عقة

(١) كلواذى : قرب بغداد . (٢) تاريخ الطبري ج ٤ .

(٣) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربيّ الكوفة .

ومهران روحة أو غدوة ، ومهران في الحِصن في رابطة فارس ، وعَقة على طريق الكَرْخ [1] ، فقدم عليه خالد وهو في تعبية جنده ، فعبى خالد جنده وحمل على عقة وهو يقيم صفوفه ، فاحتضنه فأخذه أسيراً ، وانهزم صفه من غير قتال ، فأكثر المسلمون فيهم الاسر واتبعوهم .

ولما جاء الخبر مهران هرب في جنده وتركوا الحصن ، وانتهت فُلال عَقّة من العرب والعجم إلى الحصن واقتحموه واعتصموا به ، ثم أقبل خالد رضي الله عنه في الناس حتى نزل على الحصن ومعه عَقة أسير وعمرو بن الصَّعِق فأمر خالد بهما فضربت أعناقهما ، ثم قتل أهل الحصن أجمعين ، وسبى كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه ، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهُن ، فقسمهم في أهل البلاء وكان منهم والد محمد بن سيرين ووالد موسى بن نُصير وغيرهما .

ثم بعث خالد إلى أبي بكر رضي الله عنهما بالخبر والأخماس مع الوليد بن عقبة ، فلما قدم الوليد على أبي بكر وجهه إلى عياض بن غَنْم وأمدَّه به . فقدم عليه وهو محاصر من بإزائه من نصارى العرب بناحية دُومة الجندل وهم محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق فأشجوا عياضاً

---

(١) الكرخ : اسم لعدة مواضع كلها في العراق .

وشجوا به فقال الوليد: الرأي في بعض الحالات خير من الجند الكثيف، ابعث إلى خالد فاستمدّه. ففعل.

خبر دُومة الجندل وحُصيد والخنافس

ولما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من وقعة عين التمر أتاه رسول عياض بن غَنْم يحمل كتابه مستغيثاً، فعجل خالد إلى عياض وكتب إليه:

من خالد إلى عياض، إياك أُريد.

لبّث قليلاً تأتك الحَلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائبٌ يتبعها كتائب

ثم إنه خلّف في العين عُوَيم بن الكاهل الأسلمي وخرج في تعبيته لإغاثة عياض فسلك الفَلّوجة[1] حتى نزل بَكَرْبلاء[2] وأقام عليها أياماً، فبلغ أهلَ دُومة مسيره إليهم فبعثوا إلى أحزابهم من بَهْراء وكلب وغسان وغيرهم، فلما بلغهم دنوُّ خالد رضي الله عنه وهم على رئيسين أُكَيْدر بن عبد الملك (أُنظر ص ٤٠) والجُودي بن ربيعة اختلفوا، فقال أُكيدر: أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحدّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا

(١) الفَلّوجة قرية كبيرة من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر.
(٢) كربلاء: موضع في طرف البرية عند الكوفة.

إلاّ انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم ، فخرج لطيّته .

وبلغ ذلك خالداً فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له فأخذه ، فقال إنما تلقيت الأمير خالداً ، فلما أتى به خالداً أمر به فضربت عنقه ، وأخذ ما كان معه من شيء ، ومضى خالد رضي الله عنه حتى ينزل على أهل دُومَة فجعل دُومَة بين عسكره وعسكر عياض .

وكان الذين أمدُّوا أهل دُومة من العرب محيطين بحصن دُومة لم يسعهم الحصن ، فلما اطمأن خالد رضي الله عنه خرج الجُودي فنهض بوديعة الكلبي فزحفا لخالد ، وخرج بن الحدْرِجان وابن الأيهم الى عياض فاقتتلوا ، فانهزم الجودي ووديعة على يدي خالد ، وهزم عياض من يليه ، وركبهم المسلمون وأخذ الجودي أسيراً وانهزموا الى الحصن ، فلما امتلأ غلقوا الباب دون أصحابهم فبقوا حوله ، فأخذهم خالد ، فقتلهم حتى سد باب الحصن ، وقتل الجودي والأسرى إلاّ أسرى كلب ، فان عاصماً والأقرع وبني تميم قالوا : قد أمنّاهم ، وكانوا حلفاءهم ، فأطلقهم لهم خالد وقال : مالي ولكم ؟ أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الاسلام ؟ فقال لهم عاصم : لا تحسدهم العافية ولا يحوّزهم الشيطان ثم أطاف خالد بباب الحصن فلم يُزل عنه حتى اقتلعه واقتحموا عليهم وأخذ خالد الحصن قهراً ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية

وأقام خالد رضي الله عنـه بدُومة الجندل ، فطمع الاعاجم وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعقة ، فخرج زَرْمِهْر من بغداد ومعه روزبه يريدان الأنبار ، واتّعدا حُصَيداً والخنافس [1] ، فكتب الزّبرقان وهو على الانبار الى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة ، فبعث القعقاع أعْبَدَ بن فَدَكي السعدي وأمره بالحصيد ، وبعث عروة بن الجَعْد البارقيّ وأمره بالخنافس ، وقال لهما : إن رأيتما مقْدَماً فأقدما ، فخرجا فحالا بينهما وبين الريف .

وانتظر روزبه وزرمهر بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة ، وقد كانوا تكاتبوا واتعدوا ، فلما رجع خالد رضي الله عنه من دُومة الى الحيرة وبلغه ذلك وقد عزم على مصادمة أهل المدائن ، كره مخالفة أبي بكر لأنه كان رضي الله عنه قد عهد اليه أن يأتي العراق من أسفلها ، وعهد الى عياض أن يأتيها من أعلاها وقال : إذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليقم بالحيرة أحدكما ، وليقتحم الآخر على القوم ، وجالدوهم عما في أيديهم ، واستعينوا بالله واتقوه الخ ،فعجّل خالد القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فَدكيّ الى روزبه وزرمهر ، فسبقاه

(١) حُصيد : وادٍ بين الكوفة والشام . والخنافس: أرض في طرف العراق قرب الأنبار .

الى عين التمر ، وقدم على خالد كتاب امرىء القيس الكلبي أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمُصَيَّخ ، ونزل ربيعة بن بجير بالثّني وبالبشر [1] في عسكر غضباً لعقة يريدان زرمهر وروزبه ، فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة عياض بن غَنْم وأخذوا طريق القعقاع وأبي ليلى الى الخَنَافس ، حتى قدم عليهما بعين التمر ، فبعث القعقاع الى الحُصَيْد وأمره على الناس ، وبعث أبا ليلى الى الخنافس فقال أبو ليلى :

وقالوا ما تريد فقلت أرْمي جموعاً بالخنافس بالخيول

فدونكم الخيولَ فألجموها الى قومٍ بأسفل ذي أثول

فلما أن أحسوا ما تولوا ولم يغررْهم ضَبْحُ الفُيول

وفينا بالخنافس باقياتٌ لمَهْبوذان في جُنح الأصيل

فلما رأى القعقاع أن زَرْمِهر وروزبه لا يتحركان سار نحو حصيد . ولما رأى روزبه أن القعقاع قد قصد له استمدّ زرمهر فأمدّه بنفسه واستخلف على عسكره المهْبوذان فالتقوا بحصيد فاقتتلوا وقُتلت الفرس مقتلةً عظيمة . وقتل القعقاع زرمهر (وسماه ياقوت رُوزمهر) وقتل عصمة بن عبد الله الضبي روزبه فقال القعقاع بن عمرو :

---

(١) البشر : قال ياقوت : هو اسم جبل يمتد من عرض الفرات من أرض الشام من جهة البادية ، وقال الطبري : الزُّميل هو البشر والثّنيّ معه ، وهما شرقيّ الرُّصافة .

ألا أبلغا أسماء أن خليلها   قضى وَطَراً من روزَمَهر الاعاجم
غداة صبَحنا في حُصيدٍ جموعهم   بهنْدِيّة تفري فراخ الجماجم (١)

وغنم المسلمون يوم حصيد غنائم كثيرة . وانهزمت الاعاجم الى الخنَافس . فسار أبو ليلى بمن معه اليها وبها المَهْبُوذان على العسكر . فلما أحسّ المهبوذان بهم هرب هو ومن معه الى المُصَيَّخ وبه الهذيل ابن عمران . ولم يلق بالخنافس كيداً . وبعثوا الى خالد رضي الله عنه بالخبر جميعاً .

وقعة مصيخ بني البرشاء

ولما انتهى الخبر الى خالد رضي الله عنه بمصاب أهل الحُصيد وهرب أهل الخنافس . كتب الى القعقاع وأبي ليلى وأعْبُد وعروة ووعدهم ليلةً وساعةً يجتمعون فيها الى المُصَيَّخ . وخرج خالد من العين قاصداً للمصيخ على الابل ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد اتفقوا جميعاً بالمصيخ ، فأغاروا على الهذيل ومن معه ومن أوى اليه وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوهم ، وأفلت الهذيل في ناس قليل ، وامتلأ الفضاء وكثر فيهم القتل ، وكان مع الهذيل عبد العزى بن أبي رُهم النمري ولَبيد بن جرير وكانا قد أسلما ومعهما كتاب أبي بكر باسلامهما ، فقال عبد العزى ليلة الغارة :

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ ومعجم البلدان (الخنافس) و (حصيد) .

أقول اذا طرق الصباحُ بغارةٍ　　سبحانك اللهم ربَّ محمدِ

سبحان ربي لا إله غيره　　ربّ البلاد ورب من يتوردُ

فقتل تلك الليلة هو ورفيقه ، فبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه فقال : سبحانك اللهم رب محمد ! ووداهما وأوصى بأولادهما وقال : أما إن ذلك ليس عليّ ، كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم.

وحدث عدي بن حاتم فقال : أغرنا على أهل المُصَيَّخ وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته ، وبينهم جَفْنةٌ من خمر وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة وفي أعجاز الليل ؟ فقال : اشربوا شرب وَداعٍ ، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، هذا خالد بالعين، وجنوده بحُصَيْد ، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا ، ثم قال :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهرِ　　بُعيد انتفاخ القوم بالعكر الدَّثْر

وقبل منايانا المصيبة بالقَدَر　　لحين لعمري لا يَزيد ولا يَحْري

فسبق اليه وهو في ذلك بعض الخيل فضرب رأسه ، فاذا هو في جفنته[1] .

وفي رواية لياقوت أن قبائل من ربيعة لما علمت بمسير خالد بن الوليد الى الشام تجمعت لحرب خالد وأرادت منعه من النفوذ ، وكان

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ .

الرئيس عليهم عَقَّة بن أبي عقة، فأوقع بهم خالد وأسر عقة وقتله وصلبه، فغضبت له ربيعة وتجمعت الى الهُذيل بن عمران، فنهاهم حُرقوص بن النعمان عن مكاشفته فعصوه، فرجع الى أهله وهو يقول:

ألا يا اسقياني[1] قبل جيش أبي بكر ... لعلّ منايانا قريبٌ ولا ندري

ألا يا اسقياني بالزُّجاج وكرِّرا ... علينا كُميت اللون صافيةً تجري

أظن خيول المسلمين وخالداً ... ستطرقكم عند الصباح على البِشْر

فهل لكمُ بالسير قبل قتالهم ... وقبل خروج المعصرات من الخدرِ

أريني سلاحي يا أميمة: إنني ... أخاف بيات القوم أو مطلع الفجرِ

فيقال: إن خالداً طرقهم وأعجلهم عن أخذ السلاح وضرب عنق حرقوص فوقع رأسه في جَفنة الخمر. وقيل: إن قتل حرقوص وهذه الوقعة ووقعة الثِّنيّ والزُّميل كانت كلها في مسير خالد الى الشام والله أعلم[2].

الثني والزميل

نزل ربيعة بن بجير التغلبي الثِّنيّ والبِشْرَ غضباً لعقّة، وواعد رُوزبه وزَرْمِهر والهذيل، فلما أصاب خالد رضي الله عنه أهل المُصيّخ بما أصابهم به تقدم الى القعقاع والى أبي ليلى بأن يرتحلا أمامه،

(١) في عيون الأخبار والطبري (ألا علّلاني) البيتين .

(٢) معجم البلدان (البشر) وعيون الأخبار لابن قتيبة ج١ وابن الأثير ج٢.

وواعدهما الليلة ليتفرقوا فيها للغارة عليهم من ثلاثة أوجه ، كما فعل بأهل المُصَيَّخ .

ثم خرج خالد رضي الله عنه من المصيخ فاجتمع هو وأصحابه بالثَّني ، فبعثهم من ثلاثة أوجه ، وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت من ذلك الجيش مخبر ، وغنم وسبى وبعث بالخبر والخمس الى أبي بكر رضي الله عنه مع النعمان بن عوف الشيباني وقسم الغنائم والسبايا .

ولما انهزم الهُذَيل بن عمران بالمصيخ لحق بعتّاب بن فلان وهو بالبشر في عسكر ضخم ، فبيتهم خالد غشاها غارة شعواء من ثلاثة أوجه قبل أن يصل اليهم خبر ربيعه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، لم يقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ما شاؤا ، وقسم الغنائم وبعث الخمس الى أبي بكر رضي الله عنه مع الصباح المزني ، وسار خالد من البِشْر الى الرُّضاب[1] وبها هلال بن عقة وقد أرفضّ عنه أصحابه حين سمعوا بدنوّ خالد ، وسار هلال عنها فلم يلق خالد بها كيداً . فقال :

طلبنا بالرُّضاب بني زهير وبالأكناف أكناف الجبال

فلم يزل الرُّضاب لهم مقاماً ولم يؤنسهمُ عند الرمال

فإن تثقفْ أسنتنا زهيراً يكفّ شريدهم أخرى الليالي

(١) الرُّضاب : موضع الرُّصافة قبل بناء هشام إياها .

وقال أبو مُفَزِّر :

ألا سالي الهذيل وما يُلاقي على الحدثان من نعت الحروب
وعتّاباً فلا تنسي وعمراً وأرباب الزّميل بني الرّقوب
ألم نفتقهم بالبِشْر طعناً وضرباً مثل تفتيق الضروب

وقال أيضاً :

طرقنا بالثّنِيّ بني بُجَير بياتاً قبل تصدية الديوك
فلم نترك بها أرْماً وعَجْماً مع النصر المؤزّر بالسهوك

وقعة الفراض

ثم قصد خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد الرُّضاب وبغتته تغلب إلى الفِراض[1]، فأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات ، وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس، وقد اغتاظوا واستمدّوا تغلب وإياداً والنّمِر فأمدّوهم ، وساروا إلى خالد رضي الله عنه ، فلما بلغوا الفُرات قالوا : إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم ، قال خالد : بل اعبروا ، قالوا : فتنحوا حتى نعبر ، فقال خالد : لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا ، فقالت الروم والفرس بعضهم لبعض : احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دينٍ وله عقلٌ وعلمٌ ووالله ليُنصرنّ ولنُخذلنّ. ثم لم ينتفعوا بذلك ، فعبروا أسفل من خالد ، فلما تتاموا قالت الروم:

(١) الفراض : تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات .

امتازوا حتى نعرف اليوم من يثبت ممن يولي ، ففعلوا ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً وانهزمت الروم ومن معهم، وقال خالد للمسلمين : ألحّوا عليهم ولا تُرفّهوا عنهم ، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزُمرة برماح أصحابه ، فاذا جمعوهم قتلوهم ، فقتل يوم الفِراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف ، وأقام خالد على الفِرَاض بعد الوقعة عشراً ،ثم أذن في القفل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة ، وأمر عاصم بن عمرو التميمي أن يسير بهم ، وأمر شجَرة بن الأعز أن يسوقهم ، وأظهر خالد أنه في الساقة (أي مؤخرة الجيش)[1]

قال القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفِراض جموعَ رومٍ   وفرسٍ غمّها طول السلام

أبدنا جمعهم لما التقينا   وبيّتنا بجمع بني رِزام

فما فتئت جنود السّلم حتى   رأينا القوم كالغنم السوَام[2]

حجة خالد

ثم خرج خالد رضي الله عنه حاجّاً من الفِراض سِراً ومعه عِدّة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة ، فحج ثم رجع ، فكانت غيبته عن الجند يسيرةً ، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٢ .

(٢) معجم البلدان (الفراض).

صاحب الساقة الذي وضعه ، فقدما معاً ، وخالد وأصحابه محلقون لم يعلم بحجه إلا من أفضى اليه بذلك من الساقة ، ولم يعلم أبو بكر رضي الله عنه بذلك إلا بعدُ ، فعتب عليه وكان عقوبته إياه أن صرفه الى الشام من العراق مُمِداً جموع المسلمين باليرموك[1] .

وأغار خالد قبل سفره الى اليرموك على سوق بغداد ، ووجّه المثنى فأغار على سوق فيها جمع لقضاعة وبكر ، وأغار أيضاً على مَسْكِنٍ[2] وقُطْرُبُّل[3] وتل عَقْرَقُوف[4] وبادُورَيا[5] .

قال الشاعر :

وللمثنى بالعال[6] معركةٌ	شاهدها من قبيله بشر
كتيبةٌ أفزعت بوقعتها	كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجع المسلمين إذ حذروا	وفي ضروب التجارب العبر
سهّل نهج السبيل فاقتفروا	آثاره والأمور تقتفر[7]

(١) اليرموك : وادٍ بناحية الشام في طرف الغور .

(٢) مسكنٌ : موضع على نهر دُجيل .

(٣) قُطرَبُّل : قرية بين بغداد وعُكبرا .

(٤) تل عَقَرقُوف : قرية من نواحي نهر عيسى ببغداد .

(٥) بادُورَيا : موضع بالجانب الغربي من بغداد .

(٦) العال يريد بها الأنبار وقُطرَبُّل ومسكن وبادُورَيا .

(٧) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ ومعجم البلدان (العال) .

الفصل السابع

حروب خالد بن الوليد في الشام

مسير خالد بن الوليد من العراق الى الشام — فتح بصرى — وقعة اليرموك — وقعة أجْنادَين — فتح دمشق — غزوة فِحْل — وقعة مرج الروم — فتح بعلبك وحمص وغيرها — فتح قِنَّسرين وغيرها عزل خالد بن الوليد عن الإمارة

مسير خالد بن الوليد من العراق الى الشام

لما رأى المسلمون مطاولة الروم لهم في الشام استمدوا أبا بكر رضي الله عنه، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير اليهم، فوافاه كتابه بالحِيرة مُنْصَرَفه من الحج وإذا فيه: سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فانهم قد شُجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فانه لم يُشج الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدلّ بعمل، فان الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء.

ثم أمره أن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه الى العراق ، فاستأثر خالد رضي الله عنه بأصحاب النبي ﷺ على المثنى ، وترك للمثنى عدادهم من أهل القناعة من ليس له صحبة ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى : والله لا أقيم إلا على إنفاذ أبي بكر ، وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ ، فلما رأى خالد ذلك أرضاه[1] وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه قال : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد وكتب إلى خالد رضي الله عنه :

أما بعد فدع العراق وخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليكم ورحمة الله[2] .

وكان خالد رضي الله عنه أراد أن يتخذ الحيرة داراً يقيم بها فكانت إقامته فيما بين فتح الحيرة الى خروجه الى الشام أكثر من سنة .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٢
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١

فلما أتاه كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه شخص الى الشام في شهر ربيع الآخر ويقال الأول سنة ثلاث عشرة واختلفوا في عدة من سار معه إلى الشام فأكثر ذلك عشرة آلاف وأقله خمسمائة والاول أقرب للصحة وكان مسيره الى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة .

فلما أراد المسير الى الشام دعا بالأدلة فارتحل من الحيرة سائراً الى دُومة ثم طعن في البر الى قُراقِر[1] ثم قال : كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؟ فكلهم قالوا : لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيش ، فإياك أن تغرّر بالمسلمين ، فعزم عليهم فلم يجبه الى ذلك إلا رافع بن عَميرة على تهيب شديد ، وكان دليلاً خرّيتاً (حازقاً) فقام فيهم خالد فقال : لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له ، فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، فطابقوه ونووا واحتسبوا[2] وقال رافع بن عميرة لخالد : خلف الأثقال واسلك هذه المفازة إن كنت فاعلاً ، فكره خالد أن يخلف أحداً وقال : لا بدّ من أن نكون جميعاً . فقال له رافع : والله إن الراكب المنفرد ليخافها على

(١) قُراقر : وادٍ لكلب بالسماوة من ناحية العراق :

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ وفتوح البلدان ، والخميس ج ٢.

نفسه ، وما يسلكها إلا مغرَّرٌ مخاطرٌ بنفسه ، فكيف أنت بمن معك؟ فقال : لا بدَّ من ذلك . فقال الطائي لخالد : أبغني عشرين جَزوراً مسَانَّ عظَاماً ، ففعل ، فظمّأهن ثم سقاهن حتى رَوِين ، ثم قطع مشافرهن وكعمهن لئلا تجترّ ، ثم قال خالد : سر بالخيول والأثقال فكلما نزلت منزلاً نحرت من تلك الجُزُر أربعاً ، ثم أخذت ما في بطونها من الماء فسقيته الخيل وشرب الناس مما تزودوا ، ففعل ، فلما صار الى آخر المفازة انقطع ذلك وجهد الناس وعطشت دوابهم ، فقال له خالد : ويحك ما عندك ؟ قال : أدركت الريَّ إن شاء الله ، أُنظروا هل تجدون شجرة عَوسَج على ظهر الطريق ؟ فنظروا فوجدوها ، فقال : احفروا في أصلها ، فحفروا فوجدوا عيناً فشربوا منها وتزودوا ، فقال رافع : والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام[1] فقال أبو أُحيحة القرشي في ذلك :

لله عينا رافع أنّى اهتدى	في مهمةٍ مشتبهٍ الى سُوَى[2]
والعين منه قد تغشاها الردى	معصوبة كأنها مَلأى ثَرى
فهو يرى بقلبه مالا يرى	من الصوى تترى له تمر الضوى (؟)
إذا التقى بعد النقا إذا سرى	وهو به يخبرنا وما دنا

(١) عيون الأخبار ج ١

(٢) سُوى : ماء لبَهْرآء من ناحية السماوة بين الكوفة والشام .

وما رآه ليس بالقلب حسى ... قلت حفيظ وفهاد قد على

فوّز من قُراقرٍ الى سُوى ... والسير زعزاع فما فيه ونى

خمس إذا ما سارها الجيش بكى ... في اليوم يومين رواحاً وسُرى

ما سارها من قبله إنس أرى ... هذا لعمري رافعٌ هو الهدى[1]

واقتصر ابن قتيبة وغيره على ذكر بيتين فقط هما :

لله درُّ رافعٍ أنى اهتدى ... فوَّزَ من قُراقِرٍ الى سُوى

خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها من قبله إنسٌ يُرى

ويقال : إن خالداً رضي الله عنه كتب حين خروجه من العراق كتابين أرسلهما مع عمرو بن الطفيل الأزدي أحدهما الى المسلمين :

أما بعد فان خليفة رسول الله ﷺ أتاني بالمسير اليكم، وقد شمرت وانكمشت ، وكأنْ قد أظلت عليكم خيلي ورجلي ، فأبشروا بانجاز موعد الله وحسن ثواب الله ، عصمنا الله وإياكم باليقين ، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين ، والسلام عليكم .

والكتاب الآخر الى أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه :

أما بعد فاني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا من كل سوء ، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير الى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها ، والله

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١

ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك التي كنت عليها ، لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين لا تنكر فضلك ولا نستغني عن رأيك ، تمم الله ما بنا وبك من إحسان ، ورحمنا وإياك من صلي النار ، والسلام عليكم ورحمة الله[1]

وسار خالد رضي الله عنه الى صَنْدَوداء[2] ثم المُصَيَّخ والحُصَيد ، ثم أخذ على السَّماوة[3] حتى انتهى إلى قُراقر[4] فأغار على أهلها ، ثم فوَّز منه إلى سُوىً — وبين قُراقِر وسُوى خمس ليالٍ في مفازة .

ثم خرج من سُوى إلى الكوائل[5] ، ثم أتى قَرْقِيسِياء[6] ، فخرج إليه صاحبها في خلق ، فتركه وانحاز إلى البر ومضى لوجهه ، وأتى خالد رضي الله عنه أرَك[7] فأغار على أهلها وحاصرهم ، ففتحها صلحاً على شيء أخذه منهم للمسلمين ، وأتى دُومة الجندل ففتحها ، ثم

---

(١) الخميس ج٢ والفتوحات الاسلامية ج ا

(٢) صندوداء : موضع في العراق .

(٣) السَّماوة : بين الكوفة والشام ، وقيل ماءة بالبادية لكلب .

(٤) قُراقِر : وادٍ لكلب بالسَّماوة من ناحية العراق :

(٥) الكوائل : موضع في أطراف الشام .

(٦) قَرْقِيسياء : بلدة على نهر الخابور .

(٧) أرَك : مدينة صغيرة في طرف بادية حلب قرب تدمر .

أتى قُصَم [1] فصالحه بنو مشجعة بن التيم من قضاعة، وكتب لهم أماناً، ثم أتى تَدْمُر [2] فامتنع أهلها وتحصنوا، ثم طلبوا الأمان فأمنهم على أن يكونوا ذمة، وعلى أن قَرَوُا المسلمين ورضخوا لهم، ثم أتى القَرِيتين [3]، فقابله أهلها فظفر وغنم، ثم أتى حُوّارِين [4] من سنير، فأغار على مواشي أهلها، فقاتلوه، وقد جاءهم مدد أهل بَعْلَبك [5] وأهل بُصْرَى [6] فظفر بهم وسبى وقتل.

ثم أتى مرج راهط [7] فأغار على غسان في فصحهم فسبى وقتل.

ثم وجه بُسْرَ بن أبي أرطاه العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري إلى غُوطة دمشق. فأغار على قرى من قراها، وجاء خالد إلى الثنية التي تعرف بثنيّة [8] العُقاب، فوقف عليها ساعة ناشراً رايته، وهي راية كانت لرسول الله ﷺ سوداء، فسميت ثنية العُقاب يومئذ، والعرب تسمي الراية عُقاباً، وقال عمرو بن محمد: لما بلغ

---

(١) قُصَم: موضع بالبادية قرب الشام من نواحي العراق.
(٢) تَدْمُر: مدينة قديمة في بادية الشام.
(٣) القريتان: بينها وبين تدمر مرحلتان ويقال هي حُوّارِين.
(٤) حُوّارِين: حصن من ناحية حمص، وسَنِير: جبل بين حمص وبعلبك.
(٥) بعلبك: مدينة قديمة في الشام.
(٦) بُصرى: قصبة كورة حوران من أعمال دمشق.
(٧) مرج راهط: موضع في غوطة دمشق.
(٨) ثنية العقاب: ثنية مشرفة على الغوطة يطؤها القاصد إلى حمص.

غسان خروج خالد بن الوليد رضي الله عنه على سُوَى وانتسافها ،
وغارته على مُصَيَّخ بَهراء [1] وانتسافها ، اجتمعوا بمرج راهط ،
فلما بلغ ذلك خالداً رضي اللهعنه وقد خلف ثغور الروموجنودها ممايلي
العراق ، فصار بينهم وبين اليرموك صمد لهم فخرج من سُوى بعد
ما رجع إليها بسبي بَهراء ، فنزل الرُّمانتين [2] ، ثم نزل الكُثَب [3]
حتى صار إلى دمشق ، ثم مرج الصُّفَّر [4] فالتقى عليه غسان ، وعليهم
الحارث بن الأيهم ، فانتسف عسكرهم وعيلاتهم ، ونزل بالمرج أياماً ،
وبعث إلى أبي بكر رضي الله عنه بالاخماس مع بلال بن الحارث
المزني ، ثم نزل خالد بالباب الشرقي من دمشق ، ويقال : بل نزل باب
الجابية [5] ، فأخرج إليه أسقف دمشق نُزُلاً وخدمةً ، فقال : احفظ
لي هذا العهد ، فوعده بذلك ، ثم سار خالد حتى انتهى إلى المسلمين
وهم بقناة بُصرى ، ويقال : إنه أتى الجابية وبها أبو عبيدة في جماعة
من المسلمين ، فالتقيا ومضيا جميعاً إلى بُصرى [6] .

---

(١) مُصَيَّخ بهرآء : ماء بالشام .
(٢) الرّمانتان : موضع في بلاد بني سعد وقيل:هما هضبتان في بلاد بني عبس .
(٣) الكُثَب : وادٍ في بلاد طيء .
(٤) مرج الصُّفَّر : موضع في الشام .
(٥) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان شمالي حوران وباب
الجابية بدمشق منسوب إليها .
(٦) فتوح البلدان وتاريخ الطبري ج ٤ .

فتح بصرى

لما وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بصرى وعليها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم اجتمعوا عليها فقاتل خالد من بها فظفر بهم ورابطها حتى صالحت على الجزية وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدائن الشام فتحاً في خلافة أبي بكر وأول مدينة فتحت في الشام على يد خالد بن الوليد وأهل العراق : وبعث بالأخماس الى أبي بكر رضي الله عنه .

ويقال : إن خالداً لما قدم بُصرى اجتمع المسلمون عليها وأمروه في حربها ثم الصقوا به وحاربوا بطريقها حتى ألجأوه وكماة أصحابه اليها .

وذكر بعض الرواة أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجَريب حنطة . وأن يؤمّنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم .

ثم انبثّ المسلمون في أرض حوران جميعاً فغلبوا عليها ، وأتاهم صاحب أذْرعات[1] فطلب الصلح على مثل ما صالحوا عليه أهل بصرى على أن جميع أرض البَثَنِيَّة[2] أرض خراج ، فأجابوهم الى ذلك ، ثم اجتمع المسلمون باليرموك[3]

(١) أذْرعات : بلد في أطراف الشام يجاور البلقاء وعمان .

(٢) البَثَنِيَّة : قيل هي قرية بين دمشق وأذرعات .

(٣) فتوح البلدان وتاريخ الطبري ج٤ وابن الأثير ج٢ وتهذيب ابن عساكر ج١

قال القعقاع بن عمرو يذكر مسير خالد من العراق إلى الشام :

بدأنا بجمع الصُّفَّرَيْن فلم ندع   لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به   سوى نفرٍ نجتذّهم بالبواتر
وجئنا إلى بُصرى وبُصرى مقيمةٌ   فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت   بنا العيس في اليرموك جمع العشائر [١]

وقعة اليرموك

لما تكامل جمع المسلمين باليَرْمُوك سنة ثلاث عشرة وقيل سنة خمس عشرة ، وكانوا سبعة وعشرين الفاً ، وقدم خالد بن الوليد رضي الله عنه في تسعة آلاف ، فصاروا ستة وثلاثين الفاً سوى عكرمة فانه كان ردءاً لهم ، وقيل : بل كانوا سبعة وعشرين الفاً وثلاثة آلاف من فُلال خالد بن سعيد ، وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد ،فصاروا أربعين الفاً سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل ، وقيل في عددهم غير ذلك وكان فيهم الف صحابي منهم مائه ممن شهد غزوة بدر ، وكان الروم في مائتي الف وأربعين الف مقاتل ، منهم ثمانون الف مقيد ، وأربعون الف مسلسل للموت ، وأربعون الفاً مربوطون بالعمائم لئلا يفرّوا ، ثمانون الف فارس ، وثمانون الف راجل ، وقيل : كانوا مائة الف .

(١) معجم البلدان (اليرموك) .

وكان المسلمون قبل مجيء خالد اليهم ، يقاتلون متساندين ، كل أمير على أصحابه لا تجمعهم إمارة عامة .

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كُورة : فسمى لأبي عبيدة بن الجرّاح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشُرَحْبيل بن حسَنة الأُرْدُن[1] ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مُجَزّز فلسطين[2] .

قال البلاذري : ولما قدم المسلمون الشام كان كل أمير منهم يقصد لناحية ليغزوها ويبث غاراته فيها ، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا عليه ، وإذا احتاج أحدهم إلى معاضدة صاحبه وإنجاده سارع إلى ذلك ، وكان أميرهم عند الاجتماع في حربهم اول أيام أبي بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ، حتى قدم خالد بن الوليد الشام فكان أمير المسلمين في كل حرب[3] .

وكان المسلمون عند قدوم خالد رضي الله عنه متضايقين بعدد الروم والروم نشاط بعددهم ، فالتقى خالد رضي الله عنه بالروم وهزمهم ، حتى ألجأهم وأمدادهم الى الخنادق والوَاقُوصَة[4] أحد حدوده فلزموا

(١) الأُرْدُنّ : كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بينها .
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .
(٣) فتوح البلدان .
(٤) الواقوصة : وادٍ بالشام في أرض حوران .

خندقهم عامّة شهر يحضضهم القسيسون والشمامشة والرهبان حتى استبصروا ، فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله ؛ فلما أحس المسلمون خروجهم وأرادوا الخروج متساندين سار فيهم خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا يومٌ من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فان هذا يومٌ له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، وأنتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن مَن وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته ، قالوا : فهات فما الرأي ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم ، وقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه أن دان لاحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا فان هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخرُ غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ،

ودعوني أَلِيكم اليوم ، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا اليه[1] .

وقيل : إن أبا بكر رضي الله عنه جعل خالد بن الوليد أميراً على الأمراء في حرب الشام ، (كما تقدم ذلك في كتابه اليه) وقال قوم : كان خالد رضي الله عنه أميراً على أصحابه الذين شخصوا معه ، وكان المسلمون إذا اجتمعوا لحربٍ أمّره الأمراء فيها لبأسه وكيده ويُمن نَقيبته[2] .

وبينما كان هرقل مقيماً في بيت المقدس أتاه الخبر بقرب جنود المسلمين فجمع الروم وقال : أرى من الرأي ألا تقاتلوا هولاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتَقرَّ لكم جبال الروم خيرٌ من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم ، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه وأمّر الأمراء ووجّه الى كل جند جنداً ، فلما اجتمع المسلمون أمرهم بمنزل جامع واسع حصين ، فنزل بالواقُصة ، وخرج فنزل حمص ، فلما بلغه أن خالداً رضي الله عنه قد أطلع على سُوى فانتسف أهله وأموالهم ، وعَمَد الى بُصرى فافتتحها وأباح عذراء[3] قال لجلسائه : ألم أقل لكم

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .
(٢) فتوح البلدان .
(٣) عذراء : قرية بغوطة دمشق .

لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم . إن دينهم دينٌ جديد يجدد لهم جدهم ونشاطهم ، ولا يقوم لهم أحد حتى يبلى ، فقالوا له : قاتل عن دينك ولا تجبّن الناس واقضِ الذى عليك ، فقال : وأي شيء أطلب بهذا إلا توفير دينكم ؟.

ولما نزلت جنود المسلمين اليَرْموك بعث اليهم المسلمون إنا نريد كلام أميركم وملاقاته ، فدعونا نأته ونكلمه ؟ فأبلغوه فأذن لهم ، فأتاه أبو عبيدة كالرسول ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وضِرار ابن الأزور وأبو جندل بن سهيل

وكان مع أخي ملك الروم يومئذ في عسكره ثلاثون رِواقاً وثلاثون سُرداقاً كلها من ديباج ، فلما انتهوا اليها أَبَوا أن يدخلوا عليه فيها وقالوا : لا نستحلّ الحرير فابرز الينا ، فبرز الى فرش له ممهدة ، وبلغ ذلك هِرقل فقال : ألم أقل لكم هذا أول الذل ؟ أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشئوم . ولم يتأت بينهم وبين المسلمين صلح ، فرجع أبو عبيدة وأصحابه ثم خرجت الروم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قط ، وخرج خالد بن الوليد رضي الله عنه في تعبية لم تُعبّها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كُردوساً الى الأربعين : وقال : إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس ، فجعل القلب كراديس وأقام

فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شُرَحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وكان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمر ، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان ، وكان القاضي أبو الدرداء ، وكان القاصّ (الخطيب) أبو سفيان بن حرب .

وقال رجل لخالد رضي الله عنه : ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) بَراءٌ من تَوجّيه وأنهم أضعفوا في العدد ، وكان فرسه قد حفِي في مسيره ، فأمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنّبتي القلب ، فأنشبا القتال ، وارتجز القعقاع وقال :

يا ليتني ألقاكَ في الطِرادِ ... قبل اعترام الجحفَل الورّادِ

وأنت في حَلْبتك الورادِ

وقال عِكرمة :

قد علِمَتْ بَهْكَنةُ الجواري ... أنّي على مَكْرُمةٍ أحامي

فالتحم الناس وتطارد الفرسان واقتتلوا ، فإنهم على ذلك إذ خرج جَرَجة بن تَوذرا أحد قواد الروم حتى كان بين الصفين ونادى ليخرج إليّ خالد ، فخرج اليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصفين ،

حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة : يا خالد اصدقني ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين ، قال : صدقتني ، ثم أعاد عليه جرجة : ياخالد أخبرني الى مَ تدعوني ؟ قال : الى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والاقرار بما جاء به من عند الله ، قال : فمن لم يجبكم قال : فالجزية ونمنعهم ، قال : فان لم يعطها ؟ قال : نؤذنه بحرب ثم نقاتله ، قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا ، ثم أعاد عليه جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل ما لكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل ، قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الامر

وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا ، أن يُسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا ، قال جرجة : باللّٰه لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني ؟ قال: باللّٰه لقد صدقتك وما لي اليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن اللّٰه لَوليّ ما سألت عنه . فقال : صدقتني ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال : علمني الاسلام ، فمال به خالد الى فسطاطه ، فشنّ عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلابه الى خالد وهم يرون أنها منه حملة ، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم ، إلا المحامية وعليهم عكرمة والحارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس فثابوا وتراجعت الروم الى مواقفهم ، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار الى جنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الأولى والعصر إيماءً ، وتضعضع الروم ونهد خالد رضي اللّٰه عنه بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المُطَّرَد ضيق المهرب ، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت ، وتركوا رجلهم في

مصافهم ، وخرجت خيلهم تشتدّ بهم في الصحراء .

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يحرجوها ، فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبل خالد والمسلمون من الرَّجل ففضوهم ، فكأنما هُدم بهم حائط ، فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم ، فعمدوا الى الواقُوصة حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشِعت نفسه ، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة الف : ثمانون الف مقترن ، وأربعون الف مطلق ، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل ، فكان سهم الفارس يومئذ ألفاً وخمسمائة ، وتجلل جماعة من أشراف الروم برانسهم، ثم جلسوا وقالوا : لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، فأصيبوا في تزملهم: وقتل الله في صناديدهم ورؤوسهم وفرسانهم وفيهم أخو هرقل[1] .

ويروى أن وقعة اليرموك كانت بعد فتح دمشق وما والاها ، فيحكي القائلون بهذا أنه لما جرى صلح دمشق وحمص كان قيصر هو وجنوده بأَنْطاكِيَة[2] ، يريد أن يدخل بهم بلاده ، فأتاه بطارقة من

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .

(٢) أنطاكية : بينها وبين حلب يوم وليلة .

الروم وأهل قِنَّسْرِين[1] وأهل الجزيرة[2] وألحوا عليه بأن يسيرهم فيقاتلوا المسلمين ، فأبى عليهم ، فقالوا له : اجعل علينا رجلاً أميراً وسير نا معه ، ففعل ، وجعل عليهم ماهان الرومي الأرمني ، وسير معه من الروم مائتي الف ، ولحقهم كثير من روم قنسرين وأهل الجزيرة وغيرهم .

فبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا على حمص ، فأجمعوا أمرهم على المسير الى إخوانهم الذين بدمشق ، ليكون أمرهم واحداً ، فقال لهم أهل مدينة حمص : نحن على صلحنا إن ظفرتم ، ونحن الآن لا نكثر الأعداء عليكم ولا نمدهم ، قالوا : نعم ، فسار المسلمون الى دمشق ، وسارت الروم الى حمص ، ثم الى بَعْلبَك[3] ، ثم الى البِقاع[4] ، ثم على حُولة[5] دمشق ، فخاف المسلمون أن يحال بينهم وبين إخوانهم المرابطين في سواد الأُرْدُنّ وما والاه ، فساروا حتى نزلوا الجَابيَة ، وانضم اليهم اخوانهم فكانوا جميعاً ، ثم اجتمع الأمراء في خباء يزيد ابن أبي سفيان ينتظرون خبر عين (جاسوس) لهم من قضاعة كانوا

---

(١) قِنَّسْرِين : مدينة قرب حمص .

(٢) الجزيرة : وتسمى جزيرة أقُور هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام

(٣) بعلبك : مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل اثنا عشر فرسخاً

(٤) البِقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق .

(٥) الحولة : اسم لنا حيتين بالشام إحداهما من أعمال دمشق والأخرى من أعمال حمص

أرسلوه ليخبرهم بكثرة القوم ، وكان منزلهم على نهر الرواد ومرج الجولان .

فبينما هم على ذلك إذ طاف بهم أبو سفيان ، فقال : ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أُغْلِمَةَ قريش يذكرون أمر حربهم ، ويتذاكرون بم يكيدون به عدوهم في منزلي ولا يحضروني ، فقال بعضهم لبعض : هل لكم الى رأي شيخكم ؟ ثم قالوا : ادخل يا أبا سفيان ، فدخل فقال : ماعندكم ؟ فأخبروه بخبر القضاعي ، فقال : إن معسكركم هذا ليس بمعسكر ، إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والاردُن فيحولون بينكم وبين مددكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أذْرِعَات خلف أظهركم ، فيأتيكم المدد والخبر ، فقبلوا ذلك من رأيه ، ثم قال : إذ قبلتم هذا من رأيي فاجعلوا خالد بن الوليد أميراً على الخيل ، ومروه بالوقوف فيما بين العسكرين وبين الخيل ، فإنه سيكون لرحيل العسكر وقت السَّحَر أصواتٌ عالية تحدث لعدوكم فيكم طمعاً ، فإن أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفتها ، وإن كانت للخيول جولةٌ دافعت عنها الرُّماة ، فقبلوا ذلك منه ونادوا بالرحيل وقت السحر .

فنادت الروم أن العرب قد هربت ، فأقبلت ، فلقيتها الخيول فكفتها حتى سار العسكر ، وتبعتها الرماة وساقتها الخيول حتى نزلوا

خلف اليرموك ، وجعلوا أذْرِعات خلف ظهورهم ، ونزلت الروم بين دير أيوب[1] إلى ما يليه من نهر اليَرْمُوك ، بينهم النهر ، فعسكروا هنالك أياماً ، فبعث ماهان إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه : إن رأيت أن تخرج إليّ في فوارس وأخرج إليك بمثلهم أذكرك أمراً لنا ولكم فيه صلاح وخير ، ففعل خالد بن الوليد موافقة له ؛ فلما اجتمعا كان فيما عرض عليه أن قال له : قد علمت أن الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السعر وضيق الأمر بكم ، وإني قد رأيت أن أعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة والادم ، فترجعون بها إلى بلادكم وتعيشون بها أهاليكم ، ونحن نعين لكم هذا في هذه المرة ، فإذا كان من قابل بعثتم إلينا فبعثنا إليكم بمثله ، فإنا قد جئناكم ومعنا من الجيوش والعُدَد مالا قِبَلَ لكم به، فقال له خالد : ما أخرجنا من بلادنا جوع ولا ضيق أمر ، ولكنا معشرَ العرب نشرب الدماء ، فقيل لنا أن لا دم أحلى من دم الروم ، فأقبلنا لنهريق دماءكم ونشربها ، فنظر أصحابه بعضهم إلى بعض وقالوا : هذا ما كنا نحدَّث به عن العرب من شربها الدماء ، ثم انصرفا .

ولما سمع ماهان من خالد ما سمع زحف على المسلمين ، فتقدم أبو عبيدة وقد جعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته قِباثَةَ بن

---

(١) دير أيوب : قرية من نواحي دمشق .

أسامة الكناني ، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وعلى الخيل خالد بن الوليد رضي الله عنه .

ثم سار أبو عبيدة رضي الله عنه بالمسلمين وهو يقول : عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ياعباد الله اصبروا فان الصبر مَنجاةٌ من الكفر ، ومَرضاةٌ للرب ، ومَدْحضةٌ للعار ، ولاتتركوا مَصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدأوهم بالقتال ، واشرعوا الرماح واستتروا بالدَّرق (الترس) ، والزموا الصمت إلاّ من ذكر الله عزوجل في انفسكم ، حتى يتم أمركم إن شاء الله .

وخرج مُعاذ بن جبل رضي الله عنه على الناس فجعل يذكّرهم ويقول : يا أهل القرآن ! يامستحفظي الكتاب وأنصار الحق والهدى والرحمة ، إن رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالأماني ولا يُولي الله المغفرة والرحمة الواسعه إلا الصادق المصدق ، ألم تسمعوا قول الله عز وجل : (وَعَدَ اللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ .) إلى آخر الآية ، واستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فارّين من عدوكم وأنتم في قبضته ، وليس لكم مُلتحَد (ملجأ) من دونه ، ولا عز بغيره . ثم أن معاذاً رضي الله عنه جعل يمشي في الصفوف ويذكرهم ، حتى إذا بلغ من ذلك ما أحب ورأى في الناس الذي سره حرّضهم وانصرف إلى موقفه .

وسار عمرو بن العاص في الناس وهو أحد الأمراء كسيرأخيه معاذ بن جبل رضي الله عنه فجعل يحرّضهم ويقول : يا أيها المسلمون ! غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فَثِبُوا في وجوههم وِثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحساناً ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفْراً كَفْراً (قرية قرية) ، وقصراً قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عَدَدهم فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير أولاد الحجول . فلما انقضى كلامه رجع فوقف في موقفه معهم .

ثم قام أبو سفيان بن حرب فسار في صف المسلمين وهو يقول : يامعشر المسلمين ! أنتم العرب ؛ وقد أصبحتم في دار العجم ؛ منقطعين عن الاصل ، تأثيراً من أمير المؤمنين وامداداً لله ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ولا تبلغوا رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة إلا إنها سنةٌ لازمة ، وإن الارض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ، ولا مُعَوّل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله . فهو خير مُعوّل ، فامتنعوا

بسيوفكم ، وتعاونوا بها ولتكن هي الحصون . ثم رجع أبو سفيان الى النساء اللائي مع المسلمين . وكان كثيرٌ من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن . وأجلسن خلف صفوف المسلمين ، وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن . ثم قال : لا يرجع اليكن أحد من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة ، وقلن له : من يرجو كم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النساء وهم أمام العدو لله .

ثم عاد أبو سفيان فنادى المسلمين فقال : يامعشر أهل الاسلام حضر ما ترون . فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم ، والنار والشيطان خلفكم . ثم وقف موقفه . وزحفت الروم الى المسلمين ولهم زجل كزجل الرعد .

فلما نظر خالد بن الوليد رضي الله عنه اليهم وهم مقبلون أقبل يركض حتى قطع صف المسلمين الى النساء ، وهن على تل مرتفع من العسكر ، ومعهن أبو سفيان ، فقال : يانساء المسلمين ! أيما رجل أقبل اليكم منهزماً فاقتلنه . ثم انصرف فأتى أبا عبيدة رضي الله عنه فقال : إن هؤلاء قد أقبلوا بعدة ولهم زَجلٌ ومرح . وإن لهم حدَّةً لا يردّها شيء . وليست خيلي بالكثيرة . ولا والله لا قامت خيلي بشدة خيلهم ورجالهم أبداً . وكانت خيله يومئذ أمام صفوف المسلمين ثلاثة . فقال خالد رضي الله عنه : قد رأيت أن أفرّق خيلي فأكون

في إحدى الخيلين . وقيس بن هُبَيرة في الخيل الاخرى . ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة . فاذا حمل الناس ثبت الله أقدامهم . وإن تكن الاخرى حمات خيولنا عليهم وهي حامية . وتكون الأعداء قد انتهت شدتهم . وتفرقت جماعتهم . فأطلق الأعِنَّةَ عند ذلك الى أن يُظفرنا الله بهم ، ويجعل الدائرة عليهم . وقد رأيت أن يجلس سعيد ابن زيد مجلسك هذا . ويقفَ من ورائه وبحذائه مائتان أو ثلاثمائة يكونون للناس ردْءاً . فقبل أبو عبيدة رضي الله عنه مَشُورة خالد وقال له : افعل ما أراك الله ، وأنا فاعلٌ ما أردت . وأجاس أبو عبيدة سعيد ابن زيد مكانه ، وفعل ما أمره به خالد . فركب فرسه وأقبل يسير في الناس ويحرضهم . ويوصيهم بتقوى الله والصبر . ثم انصرف فوقف من خلف الناس ردْءاً لهم .

ثم إن الروم تداعوا وتحاضّوا وذكّرتهم الأساقفة والرهبان . وكان مُعاذ بن جبل رضي الله عنه إذا سمع ذلك منهم يقول : اللهم زلزل أقدامهم . وأنزل علينا السكينة . وألزمنا كلمة التقوى ، وحبب الينا اللقاء ، ورضّنا بالقضاء .

وخرج ماهان صاحب الروم فجال فيهم حتى وقف وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريهم وأموالهم وسلطانهم ، ثم بعث الى صاحب الميسرة أن أحمل وكان متنسكاً ، فقال للبطارقة والرؤوس الذين معه :

قد أمركم أميركم أن تحملوا ، قالوا : فتهيأت البطارقة فشدت من ميمنة المسلمين وفيها قبائل الأزْدو مَذْحِج وحضرموت وحِمْيَر و خَولان، فثبتوا حتى صدموا أعداءهم فقاتلوهم قتالاً شديداً طويلاً ، ثم إنه ركبهم من الروم أمثال الجبال ، فزال المسلمون من الميمنة الى ناحية القلب ، وانكشف طائفة من الناس الى العسكر ، وثبت صدرٌ عظيم من المسلمين يقاتلون تحت راياتهم ، وانكشفت قبيلة زُبَيد يومئذ وهي في الميمنة ، فتنادوا فترادُّوا واجتمعوا جميعاً وهم خمسمائة رجل ، فشدوا شدة نهنهوا بها من قِبَلهم من الروم ، وشغلوهم عن اتباع ما انكشف من الميمنة ، وتراد جماعة من الميمنة المتحيِّزة ، فشدَت حِمير وحضرموت وخَولان بعد ما زالوا حتى وقفوا مواقفهم في الصف ، واستقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين معهن عمد البيوت ، وأخذن يضربن وجوههم ويرمين بالحجارة .

ثم ثاب الناس وثبت النساء على مواقفهن ، واستمر القتال في الأزد فأصيبوا بما لم يُقتل مثله من القبائل ، وقتل يومئذٍ عمرو بن الطفيل الدَّوسي ، وهو يقول : يا معشر الأزد لا يؤتين المسلمون من قِبَلكم .

وقتل جُندَبُ بن عمرو ، وكان يقول : يامعشر الأزد إنه لا ينجو من القتل والعدو والاثم إلا من قاتل ، ألا وإن المقتول الشهيد

والخائب من تولى ، يا معشر الأزد لا يمنع الراية إلا الأبطال .

وبرز أبو هريرة رضي الله عنه الى الأزد يعاونها ، فجعل يقول : سارعوا الى الحور العين وجوارِ ربكم عز وجل في جنات النعيم ، ما أنتم الى ربكم في موطنٍ أحبّ اليه منكم في مثل هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم . فأطافت به الأزد ثم اضطربوا حتى صارت الروم تجول في مجالٍ واحدٍ كما تدور الرحى .

ثم انقضّ خالد بن الوليد رضي الله عنه فحمل على الميسرة التي دخلت العسكر ، واضطربت ميمنة المسلمين الى القلب ، فصارت الميمنة والقلب شيئاً واحداً ، فقتل خالدٌ هو وخيله نحواً من ستة آلاف ، ودخل سائرهم بيوت المسلمين في العسكر مجروحين ، وخرج خالد بخيله يطرد من كان من الروم قريباً من العسكر ، حتى إذا أرادوا أن يمكروا به نادى عند ذلك : يا أهل الإسلام ! لم يتوسد القوم من الجلد والشدة إلا ما رأيتم ، الشدةَ الشدةَ ، فوالذى نفسي بيده إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم .

فاعترض صفوان الروم وإن في جانبه الذي يستقبل لمائة الف من الروم ، فحمل عليهم وما هو إلا في نحو الف فارس ، فلما بلغتهم الحملة فضّ الله جمعهم ،وشد المسلمون على من يليهم من رجالتهم ، فانكشفوا واتبعهم المسلمون من قِبَل ميمنتهم .

ثم إن خالداً رضي الله عنه انتهى في تلك الحملة الى صاحب ميسرة الروم وقد قال لأصحابه : لُفُّوني في الثياب ، فلفوه بها ، وقال : وددت أن الله كان عافاني من حرب هؤلاء القوم فلم أرهم ولم يروني ، ولم أُنصر عليهم ولم ينصروا عليّ ، وهذا يوم شر ، ولم يقاتل حتى غشيه القوم فقتلوه ، ثم إن قناطر وكان في ميمنة الروم قال لجرجين صاحب أرمينية : احمل ، فقال له : أنت تأمرني أن أحمل وأنا أمير مثلك ؟ فقال له قناطر : أنت أمير وأنا أمير وأنا فوقك وقد أمرت بطاعتي ، فاختلفا .

ثم إن قناطر حمل حملةً شديدةً على قبائل كنانة وقيس وخثعم وجُذام وقضاعة وعاملة وغسان ، وهم فيما بين ميسرة المسلمين إلى القلب ، فكشفوا المسلمين وزالت الميسرة عن مصافّها ، وثبت أهل الرايات وأهل الحفائظ فقاتلوا ، وركبت الروم أكتاف من انهزم حتى دخلوا معهم العسكر ، فاستقبلهم نساء المسلمين بعمد الفساطيط يضربون بها وجوههم ويرمونهم بالحجارة ويقولون : أين عز الاسلام والأمهات والأزواج ؟ فيعطف هؤلاء الذين انهزموا إلى المسلمين وينادي الناس بالحفائظ (أي المدافعة والصبر) ثم إن قِيَاثة بن أسامة شدّ فقاتل قتالاً شديداً وجعل يرتجز ويقول :

إن تفقدوني تفقدوا خير فارس ... لدى الغمرات والرئيس المحاميا
وذا فَخرَ لا يملأُ الهولُ قلبه ... ضروباً بنصل السيف أروعَ ماضيا

فكسر في القوم ثلاثة رماح يؤمئذ ، وقطع سيفين ، وأخذ يقول كلما قطع سيفاً أو كسر رمحاً : من يُعير سيفاً أو رمحاً في سبيل الله رجلاً حبس نفسه مع أولياء الله ؟ وقد عاهد الله أن لا يفرّ ولا يبرح يقاتل المشركين ، حتى يظهر المسلمون أو يموت ، فكان من أحسن الناس بلاء في ذلك اليوم .

ونزل أيضاً أبو الأعور السُّلمي فقال : يامعشر قيس ! خذوا نصيبكم من الأجر والصبر ، فإن الصبر في الدنيا عزٌّ ومكرمة ، وفي الآخرة رحمة وفضيلةٌ ، فاصبروا وصابروا .

ثم إن الناس حيزوا إلى القلب وفيه سعيد بن زيد حيث وضعه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، فلما نظر سعيد إلى الروم وخافها ، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيه ، حتى إذا دنا منهم طعن برايته أول رجل من القوم ، ثم ثار في وجوههم كأنه الليث ، وأخذ يقاتل ويعطف الناس إليه .

وكان يزيد بن أبي سفيان يومئذ من أعظم الناس ثباتاً ، وقد كان أبوه مرّ به فقال له : يابني ؟ عليك بتقوى الله والصبر ، فإنه ليس رجلٌ بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلوا أُمور المسلمين ؟ أُولئك أحق الناس بالجهاد والنصيحة ، فاتق الله يابني والزم في أمرك ، ولا يكونن أحد من إخوانك

بأرغبَ في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الاسلام منك، فقال : أفعل ، فقاتل يومئذ في الجانب الذي كان فيه واقفاً قتالاً شديداً ، وكان مما يلي القلب .

وشدَّ طرفٌ من الروم على عمرو بن العاص رضي الله عنه فانكشف هو وأصحابه حتى دخلوا أول العسكر ، وهم في ذلك يقاتلون ويشدّون ، ولم ينهزموا هزيمةً ولَّوْا فيها الظهر ، فنزل النساء بعمدهن من التل ، فضربن وجوه الرجال ، ونادت الناسَ ابنةُ ابن العاص : قبح الله رجلاً يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفرّ عن كريمته ، وسُمِع نسوة من نساء المسلمين يقلن : لستم بعولتنا إن لم تمنعونا ، فتراد المسلمون ، وزحف عمرو وأصحابه حتى عادوا إلى قريب من موقفهم .

وقاتل أيضاً شُرَحبيل بن حَسَنة في ربعه الذي كان فيه ، فكان وسطاً من الناس إلى جنب سعيد بن زيد ، وانكشف عنه أصحابه فثبت وهو يقول: (إنَّ اللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ) إلى آخر الآية . أين الذين يبيعون أنفسهم لله ابتغاء مرضاة الله ؟ وأين المشتاقون إلى جوار الله في داره ؟ فرجع إليه ناسٌ كثيرٌ ، وبقي القلب لم ينكشف أهله ،

للمكان الذي كان فيه سعيد بن زيد ، وكان أبو عبيدة رضي الله عنه من وراء ظهره ردءاً له وللمسلمين .

فلما رأى قيس بن هُبَيرة خيل المسلمين وراء صفهم مما يلي الميسرة ، وأن المسلمين قد دخلت ميسرتهم العسكر ، وأن الروم قد صمدت لهم اعترض الروم بخيله تلك ينتظر خيل خالد بن الوليد ، فعطف بعضهم على بعض ورجع المسلمون في آثارهم فقاتلوهم ، وحمل على من يليه من الروم وهو في ميمنة المسلمين حتى اضطروهم إلى صفوفهم ، فلما رأى خالد بن الوليد رضي الله عنه أن قيساً قد كشف من يليه ، وأن المسلمين قد رجعت راجعتهم ، حمل على من يليه من الروم بعطف بعضهم على بعض ، وزحف المسلمون اليهم رويداً ، حتى إذا دنوا منهم ينقضون عليهم .

فلما رأى أبو عبيدة رضي الله عنه ذلك بعث الى سعيد بن زيد أن شدّ عليهم ، فشد المسلمون بأجمعهم شدّةً واحدة وأظهروا التكبير ، ثم صكوهم صكة واحدة ، فطعنوا بالرماح ، وضربوا بالسيوف ، وأنزل الله عليهم نصره ، فضرب الله وجوه أعدائه ومنح أكتافهم وزلزل أقدامهم ، وولت المسلمون أكتافهم ، وسُمع صوت كاد يملأ العسكر يقول : يا نصر الله اقترب ، الثباتَ الثباتَ ، يا لِمعشر المسلمين فعطفوا عليه فاذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه .

وشدَّ خالد رضي الله عنه في سَرعان الناس (أوائلهم) ، وشد المسلمون معه يَقتلون كل قتلة ، وركب بعضهم بعضاً حتى انتهوا الى مكان مشرف على أهوية ، فأخذ الروم يتساقطون فيها وما يبصرون ، وكان يوماً ذا ضباب ، ومنهم من قال كان ذلك في الليل ، فأخذ آخرهم لا يعلم ما لقي أولهم ، يتساقطون فيها وهم لا يبصرون ، حتى سقط فيها ما يبلغ ثمانين ألفاً .

وبعث أبو عبيدة رضي الله عنه شدّاد بن أوس ابن أخي حسان ابن ثابت بعدَهم بعد ذلك اليوم بيوم، فوجد من سقط في تلك الاهوية بعد ما عدهم بالقصب ثمانين الفاً يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً ، وسميت تلك الأهوية بالواقُوصة من يومئذ ، لانهم وقصوا فيها (أي كسرت أعناقهم) فأخذوا وجهاً آخر ، وقتل المسلمون في المعركة بعد ما أدبروا مالا يحصى ، وجنَّ عليهم الليل فبات المسلمون ، فلما أصبحوا نظروا فاذا هم لا يرون شيئاً ، فقالوا كمن أعداء الله لنا ، فلما بعثوا الخيول في الوادي لينظروا هل لهم من كمين لو نزلوا بوَطاء من المسلمين ، فاذا الدعاة يخبرونهم بأنهم قد سقطوا في الواقوصة ، وأن عظيم الروم قد ترحَّل البارحة بأربعين الفاً ، فسار خالد بن الوليد في أثر من انهزم . قالوا : ولما فتح الله على المسلمين من آخر الليل وقتلوا الأعداء حتى الصباح ، اقتسموا الغنائم ودفنوا قتلى المسلمين فبلغوا

ثلاثة آلاف، وصلى كل أمير قوم على قتلاهم، ثم دفع خالد بن الوليد العهد الى أبي عبيدة رضي الله عنهما بعد ما فرغ من القسم ودفن الشهداء وتراجع الطلب، فولي أبو عبيدة النفل من الاخماس فنفل، وأكثروا الكتب بالفتح والارسال بالاخماس، وبعث أبا جندل بشيراً.

ولما قدمت مُنْهَزِمَةُ الروم على هِرَقل وهو بأنطاكِيَة قال لأصحابه: ويلكم من هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم؟ أليس هم بشر مثلكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ قال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الارض. فقال له: أنت صدقتني[1].

وفي رواية للبلاذُري أن هرقل جمع جموعاً كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وإرْمينيَة[2] تكون زهاء مائتي الف، وولى عليهم رجلاً من خاصته، وبعث على مقدمته جَبلة بن الأيهم

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١.

(٢) إرْمينية: صقع عظيم واسع في جهة الشمال.

الغساني في مستعربة الشام من لخْمٍ وجُذام وغيرهم ، وعزم على محاربة المسلمين،فان ظهروا وإلا دخل بلاد الروم، فأقام بالقُسْطَنْطِينِيَّة[1]، واجتمع المسلمون فرجعوا اليهم ، فاقتتلوا على اليرموك أشدَّ قتال وأبرحه ، وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين الفاً، وتساسلت الروم وأتباعهم يومئذ لئلا يطمعوا أنفسهم في الهرب ، فقتل الله منهم زهاء سبعين الفاً ، وهرب فلُّهم فلحقوا بِفِلَسْطِين وأَنْطاكِيَة وحلب والجزيرة وإرْمِينِية، وقاتل يوم اليَرْموك نساءٌ من نساء المسلمين قتالاً شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه تقول : عضدوا الغُلفان (الذين لم يختنوا) بسيوفكم .

وعقد أبو عبيدة رضي الله عنه لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الطلب ، فجعل يقتل من أدرك ، وانحاز جبلة بن الأيهم الى الانصار فقال : أنتم إخوتنا وبنو أبينا ، وأظهر الاسلام .

ولما بلغ هِرَقْل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده هرب من انطاكية الى القسطنطينية ، فلما جاوز الدَّرْب[2] قال عليك يا سُورِيةُ السلام ، ونعم البلد هذا للعدو ، يعني أرض الشام لكثرة مراعيها . وكانت وقعة اليرموك على هذه الرواية في رجب سنة خمس عشرة .

(١) القسطنطينة : إصطنبول وكانت دار ملك الروم .

(٢) الدَّرب : ما بين طَرَسوس وبلاد الروم .

ولما جمع هِرَقْل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم لوقعة اليَرْمُوك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحبُّ الينا مما كنا فيه من الظلم والغَشم، ولندفعنّ جند هرقل عن مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الابواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزمت الروم وظهر المسلمون عليهم فتحوا مدنهم وأخرجوا المقاسين فلعبوا وأدّوا الخراج[1]، (التقليس: الضرب بالدف واستقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو)

قال القَعْقَاع بن عمرو يوم اليرموك:

ألم ترنا على اليَرْموك فزنا ... كما فزنا بأيام العراق

فتحنا قبلها بُصرى وكانت ... محرّمة الجَناب لدى التلاقي

وعَذْراء المدائن قد فتحنا ... ومرج الصُفَّرين من العتاق

قتلنا من أقام لنا وفئنا ... لهامهم بأسياف رقاق

قتلنا الروم حتى ما تساوي ... على اليرموك مفروق الوراق

(١) فتوح البلدان للبلاذري .

فضضنا جمعهم لما استحالوا على الواقوص بالبتر الرقاق(؟)
غداة تهافتوا فيها فصاروا الى أمرٍ يعضّل بالذواق[1]

وقعة أجنادين

اختلف الرواة في هذه الوقعة اختلافهم في اليرموك ، فبعضهم قال إنها أول وقعة شهدها خالد في الشام ،وبعضهم يقول إنها بعد اليرموك، ومنهم من يذكر أنها كانت سنة خمس عشرة . فما ذكره الطبري عقب وقعة اليرموك أنه قال :

سار خالد بن الوليد رضي الله عنه حتى نزل على قناة بُصْرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشُرَحْبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صالحت بصرى على الجزية ، ثم ساروا جميعاً سنة ثلاث عشرة الى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص ، وعمرو مقيم بالعَرَبات[2] من غور فِلَسطين .

وسمعت الروم بهم فانكشفوا عن جِلّق[3] الى أجنادين[4] وعليهم تذارق أخو هرقل لأبيه وأمه ، وسار عمرو بن العاص حين سمع بأبي

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ . ومعجم البلدان (الواقوصة) .

(٢) عرَبات : طريق في جبل بطريق مصر .

(٣) جلّق : اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل: بل هي دمشق نفسها ، وقيل: جلِق موضع بقرية من قرى دمشق .

(٤) أجْنادين : موضع بالشام من نواحي فلسطين بين الرملة وبيت جبرين .

عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم حتى لقيهم ، فاجتمعوا بأجنادين وعسكروا عليهم .

وقيل : كان على الروم رجل منهم يقال له (القُبُقْلار) ، استخلفه هِرَقْل على أمراء الشام حين سار الى القُسْطَنطينية ، واليه انصرف (تذارق) بمن معه من الروم .

ولما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلاً عربياً يقال إنه من قضاعة يدعى ابن هُزارِف فقال : ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم ، قال : فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه ، فقال له : ما وراءك ؟ قال : بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجم ، لإقامة الحق فيهم ، فقال له القُبُقْلار : لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خيرٌ من لقاء هولاء على ظهرها ، ولوددت من الله أن يخلي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا ، فلما رأى القُبُقْلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم . لفوا رأسي بثوب ، قالوا له : لمَ ؟ قال : يوم البئيس لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يوماً أشدّ من هذا ، فاحتزّ المسلمون رأسه وإنه لمُلَفّف ، وهزمت الروم واستشهد رجالٌ من المسلمين[1]

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .

وقال البلاذُري : شهد وقعة أَجنادين من الروم زُهاء مائة أُلف ، سرّب هرقل أكثرهم ، وتجمع باقوهم من النواحي ، وهرقل يؤمئذٍ مقيمٌ بحمص ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً ، وأبلى خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذٍ بلاء حسناً ، وهزم الله أعداءهم ومزقهم كل مُمَزَّق ، وقُتل منهم خلقٌ كثير ، واستشهد نفرٌ من الصحابة.

ولما انتهى خبر هذه الوقعة إلى هرقل نخب قلبه (أي جبن) وسُقط في يده وملىء رعباً ، فهرب من حمص إلى أنْطاكية ، وقد ذكر بعضهم أن هربه من حمص إلى أنطاكية كان عند قدوم المسلمين الشام ، وكانت وقعة أجنادين يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة ، ويقال : لليلتين خلتا من جمادى الآخرة ، ويقال : لليلتين بقيتا منه .

ثم جمعت الروم جمعاً بالياقوصة — والياقوصة وادفه الفوّارة — فلقيهم المسلمون هناك فكشفوهم وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم ولحق فَلُّهم بمدن الشام[1].

وكتب خالد إلى أبي بكر رضي الله عنهما : لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ، من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، سلام عليك فإني أخبرك أيها الصدّيق أنا التقينا نحن

(١) فتوح البلدان للبلاذري .

والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعاً جمةً بأجنادين، وقد رفعوا صليبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يفنونا أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا واثقين بالله، متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح شيئاً، ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار نحر جَزور، ثم أن الله انزل نصره، وأنجز وعده، وهزم الكافرين، فقتلناهم في كل فجٍ وشِعب وغائط، فالحمد لله على اعزاز دينه، وإذلال عدوه، وحسن الصنيع لأوليائه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعث خالد رضي الله عنه بكتابه هذا مع عبد الرحمن بن حنبل الجُمحي، فلما قرىء على أبي بكر رضي الله عنه وهو مريض مرضه الذي توفاه الله فيه أعجبه ذلك، وقال: الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقرّ عيني بذلك[1].

قال زياد بن حنظلة:

ونحن تركنا (أرْطبونَ) مُطرَّداً ... الى المسجد الأقصى وفيه حُسُورُ

عشيّةَ أجنادين لما تتابعوا ... وقامت عليهم بالعَراء نسورُ

عطفنا له تحت العَجاج بطعنةٍ ... لها نشجٌ نائي الشهيق غزيرُ

فطَمنا به الروم العريضة بعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطيرُ

تولّت جموعُ الروم تتبع إثره ... تكاد من الذُّعر الشديد تطيرُ

وغُودِرَ صرعى في المكَرّ كثيرة ... وعاد اليه الفَلُّ وهو حسيرُ[2]

(١) الخميس ج ٢.

(٢) معجم البلدان (أجنادين).

فتح دمشق

لما هزم الله الروم استخلف أبو عبيدة رضي الله عنه على اليرموك بشير بن كعب الحِمْيَري ، وسار حتى ينزل الصُّفَّر ، وكان الروم قد جمعوا فيه جمعاً عظيماً وأمدهم هِرَقْل بعدد ، فلقيهم المسلمون فيه وهم متوجهون الى دمشق ، وذلك لهلال المحرم سنة أربع عشرة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى جرت الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة ، وجرح من المسلمين زُهاء أربعة آلاف ، ثم ولت الروم منهزمين مفلولين لا يلوون على شيء ، حتى أتوا دمشق وبيت المقدس [١] .

ثم أتى الخبر أبا عبيدة بأن المنهزمين اجتمعوا بفحْل [٢] وأن المدد أتي أهل دمشق من حمص ، فأصبح لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل ، فكتب في ذلك الى عمر رضي الله عنه وانتظر الجواب فاذا فيه :

أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون بازائهم وفي نحورهم ، وأهلَ فلسطين وأهلَ حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ . وفتوح البلدان .

(٢) فِحْل : موضع بالشام من بلاد الأردُنّ .

فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ، ودع شُرَحبيل وعَمراً وأخلهما بالأُرْدُن وفلسطين ، وأمير كل بلدٍ وجنـد على الناس حتى يخرجوا من إمارته .

فسرّح أبوعبيدة رضى الله عنه عشرة قوّاد ، فساروا حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فوحلت الأرض ، فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ، ثم أهل دمشق .

وبعث أبوعبيدة رضي الله عنه جنداً فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين ، وسار أبو عبيـدة وخالد رضي الله عنهما فقدموا على دمشق،وعليها نسطاس بن نُسْطُوس فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها .

فنزل أبو عبيدة رضي الله عنـه على ناحية من جهـة باب الجابية ، ونزل خالد بن الوليد رضي الله على ناحية من جهة باب توما والبـاب الشرقي ، ونزل عمرو بن العاص من ناحية أخرى[1] .

وكان هرقل يومئذ بحمص ، فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق ، وهممعتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب ، وكانوا قد استمدوه[2]

(١) تاريخ أبي الفداء ج ١ .
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ .

وبعثوا اليه وهو بأنطاكية رسلاً يقولون له : إن العرب قد حاصرونا وليست لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مراراً فعجزنا عنهم ، فإن كان لك فينا وفي السلطان علينا حاجة فأمددنا وأعنا وإلا فإنا في ضيق وجهد فاعذرنا ، وقد أعطانا القوم الأمان ورضوا منا بالجزية اليسيرة ، فسرّح اليهم أن تمسكوا بحصنكم ، وقاتلوا عدوكم على دينكم ، فإنكم إن صالحتموهم وفتحتم حصنكم لهم لم يفوا لكم ، وأجبروكم على دينهم ، واقتسموكم بينهم ، وأنا مسرّح اليكم الجيش في أثر رسولي هذا . فانتظروا جيشه فأبطأ عليهم . وكتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما يأمره بالمناهضة[1] .

وفي رواية أن خيول هرقل جاءت مغيثة لأهل دمشق ، فمنعها خيول المسلمين التي عند حمص ، فخذل أهل دمشق وأيقنوا أن الأمداد لا تصل اليهم ، فشلوا ووهنوا ، وازداد المسلمون طمعاً فيهم.

وولد للبطويك الذي على أهل دمشق مولود ، فصنع طعاماً ، فأكل القوم وشربوا ، وغفلوا عن مواقفهم ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلا ما كان من خالد رضي الله عنه ، فإنه كان لا ينام ولا ينيم، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية ، وهو معنيٌّ بما يليه ، قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً (والوهق الحبل يُرمى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .

في أنشوطة فتؤخذ به الدابة أو الانسان) ، فلما أمسى ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم ، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وأمثاله من أصحابه .وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارْقوْا الينا وانهدوا للباب ، فلما إنتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رَموا بالحبال الشُرَف ، فعلق بها حبلان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ، ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها بالشرف ، وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشدّه مدخلاً ، وتوافو لذلك ، فلم يبقَ ممن دخل معه أحدٌ إلا صعد ودنا من الباب ، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم ، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي ، وأمرهم بالتكبير ، فكبر الذين على رأس السور ، فنهد المسلمون الي الباب ومال إلى الحبال بشرٌ كثيرٌ فوثبوا فيها ، وانتهى خالد رضي الله عنه الى أول من يليه فأنامهم (قتلهم) ، وانحدر الى الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة وفزعوا ولا يدرون ما الحال ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، وقطع خالد بن الوليد رضي الله عنه ومن معه أغلاق الباب بالسيوف ، وفتحوا للمسلمين ، فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم .

فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة رضي الله عنه وبذلوا له

الصلح ، فقبل منهم وفتحوا له الابواب ، وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الباب ، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد رضي الله عنه مما يليه عَنوة ، فالتقى هو والقواد في وسطها . فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً[1] .

وفي رواية أن أبا عبيدة رضي الله عنه ولي حصار دمشق ، وولي خالد بن الوليد رضي الله عنه القتال على الباب الشرقي ، وولاه الخيل إذا كان يوم يجتمع المسلمون فيه للقتال ، فحاصروا دمشق بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه حولاً كاملاً وأياماً ، وأنه لما طال على صاحب دمشق انتظار مدد قيصر ، ورأى المسلمين لا يزدادون إلا كثرةً وقوةً ، وأنهم لا يفارقونه ، أقبل يبعث الى أبي عبيدة رضي الله عنه يسأله الصلح ، وكان أبو عبيدة أحبَّ الى الروم وسكان الشام من خالد، وكان يكون الكتاب منه أحبَّ اليهم ، فكانت رسل صاحب دمشق إنما تأتي أبا عبيدة ، وخالد يلح على أهل الباب الذي يليه ، فأرسل صاحب دمشق الى أبي عبيدة فصالحه وفتح له باب الجابية وألحَّ خالد ابن الوليد رضي الله عنه على الباب الشرقي ففتحه عَنوةً ، فقال خالد لأبي عبيدة رضي الله عنهما : اسْبِهِم فإني قد فتحتها عَنوة ، فقال أبو عبيدة : إني قد أمنتهم ، فأبرم لهم أبو عبيدة رضي الله عنه الصلح .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ . وابن الأثير ج ٢ .

وقيل : لما دخل أبو عبيدة بالأمان وخالد بالسيف فالتقيا لم يدروا أيهما كان أولاً : العنوة أم الأمان ، فقالوا : والله إن أخذنا ما ليس لنا فسفكنا الدماء وأخذنا الاموال لنأثمن ، ولئن تركنا بعض مالنا لا نأثم ، فاجتمعوا على أن أمضوه صلحاً [1] .

وكان صلح دمشق على المقاسمة الديار والعقار ودينار عن كل رأس ، فاقتسموا الأسلاب ، فكان أصحاب خالد رضي الله عنه فيها كأصحاب سائر القواد ، وقسموا معهم للجنود التي عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين [2] وتولى سبرة بن فاتك قسمة المساكن بعد الفتح فكان يترك الرومي في العلو ويترك المسلم في السفل لئلا يضر بالذمي [3] ، وأرسل أبو عبيدة الى عمر رضي الله عنهما بالفتح ، وكان فتح دمشق سنة ثلاث عشرة وقيل أربع عشرة [4] وقيل خمس عشرة [5] على الاختلاف في أي الوقائع كانت قبل الاخرى .

وأنكر الواقدي المقاسمة وقال : قرأت كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ،

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١
(٤) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢ .
(٥) فتوح البلدان .

وقد روي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه، ولكن دمشق لما فتحت لحق بشرٌ كثيرٌ من أهلها بهِرَقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون.

وقد ذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد رضي الله عنه صالح أهل دمشق فيما صالحهم عليه، على أن ألزم كل رجل من الجزية ديناراً وجَرِيب حنطةٍ وخلاً وزيتاً لقوت المسلمين، وقال الأوزاعي: ثم وضعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الوَرِق (الفضة) أربعين درهماً، وجعلهم طبقات: لغنى الغني، وإقلال المقلّ، وتوسط المتوسط.

وقال هشام بن عمار: سمعت الوليد بن مسلم يذكر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه شرط لأهل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطاً في خراجهم بالتخفيف عنهم حين أعطوه سلماً صعد عليه، فأنفذه لهم أبو عبيدة رضي الله عنه.

وفي بعض روايات البَلاذُري أن المسلمين لما فرغوا من قتال من اجتمع لهم بالمرج أقاموا خمس عشرة ليلةً، ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة، فأخذوا الغوطة وكنائسها عَنوةً، وتحصن أهل المدينة وأغلقوا بابها، فنزل خالد بن الوليد رضي الله عنه على الباب الشرقي في زُهاء خمسة آلاف.

وكان الأسقف الذي أقام لخالد النُّزُل في بدأته ربما وقف على السور فدعا له خالد ، فإذا أتى سلم عليه وحادثه ، فقال له ذات يوم : يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ، ولي عليك عِدَةٌ ، فصالحني عن هذه المدينة ، فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها : أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسُور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية .

ثم إن بعض أصحاب الأسقف أتى خالداً رضي الله عنه في ليلة من الليالي ، فأعلمه أنها ليلة عيدٍ لأهل المدينة ، وأنهم في شغل ، وأن الباب الشرقي قد ردم بالحجارة وترك ، وأشار عليه أن نلتمس سلماً ، فأتاه قومٌ من أهل الدير الذي عند عسكره بسلمين ، فرقي جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلى السور ، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجلٌ أو رجلان ، فتعاونوا عليه وفتحوه ، وذلك عند طلوع الشمس . وقد كان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عانى فتح باب الجابية ، وأصعد جماعةً من المسلمين على حائطه ، فانصبّ مقاتلة الروم إلى ناحيته ، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ، ثم إنهم ولّوا مدبرين ، وفتح أبو عبيدة رضي الله عنه والمسلمون معه باب الجابية عَنوةً ودخلوا منه ، فالتقى

أبو عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما بالمقسلاط (؟) وهو موضع بالنحاسين بدمشق وهو البريص المذكور في شعر حسان .

وقد روي أن الروم أخرجوا ميتاً لهم من باب الجابية ليلاً وقد أحاط بجنازته خلق من شجعانهم و كُماتهم، وانصبّ سائرهم إلى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله إلى رجوع أصحابهم من دفن الميت ، وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم : وإن المسلمين نذروا بهم (أي علموا بهم فحذروهم) فقاتلوهم على الباب أشدّ قتال وأبرَحه حتى فتحوه في وقت طلوع الشمس .

فلما رأى الأسقف أن أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي ، فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الذى كتبه له، فقال بعض المسلمين : والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ، فقال أبو عبيدة : إنه يجيز على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه وأمضاه ولم يلتفت إلى ما فتح عَنوة ، فصارت دمشق صلحاً كلها ، وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر رضي الله عنهما فأنفذه[1] .

قال القعقاع بن عمرو في يوم دمشق :

أقمنا على داريْ سليمان أشهراً ... نجالد روماً قد حموا بالصوارم

فضضنا بها الباب العراقي عَنوةً ... فدان لنا مستسلماً كل قائم

(١) فتوح البلدان .

أقول وقد دارت رحانا بدارهم أقيموا لهم حرَّ الذرى والغلاصم

فلما رأوا بابيْ دمشق بحوزهم وتـدمر عضوا منهم بالأباهم

وقال أبو نُجيد نافع بن الأسود :

فلا تحسبني وابن أميَ صلصلاً كقابسة الباكين من كبَّة الحرب

تركنا دمشقاً منهلاً بطريقنا نجرّ إليها ما نجرّ من الكرب

كأنك لم تشهد دمشقاً وحايلاً ويوماً ببُصرى حين فيظ بني لهب

كأنا وإياهم سحابٌ بقفرةٍ تلقحها الأرواح بالصيِّب السكب

منعناكُم منهم وقد زعزع القنا وكنا قديماً نمنع الجار ذا الذنب

هنالك إذ لا يمنع الناس وسمـة وإذ أنت محروب بمدْرجة الترب

وقـد علمت ابنا تميم بأننا لنا العزُّ قدماً عند دائرة النهب

وأما موالينـا تعزَ بعزنا ومولاكم المأكول إن كان ذا سهب

وقال أيضاً :

من ذا على الأجداث عز كعزنا إذا الحرب قامت بالجموع على قفر

فسائل بنا نسطاس والروم حوله غداةَ دمشقٍ والحتوف بها تجري

ينبوك أنا في الحروب مصالت نسيل إذا جاش الأعاجم بالثغر

بقوم تراهم في الدهور أعزةً لهم عرضُ ما بين الفرائض والوتر

أبى الله إلا أن عمراً بناهم قوائم حرب لاتلين ولا تجري [1]

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .

وقال عبد الرحمن بن أبي سَرْح :

ألا ابلغ أبا سفيان عنا بأننا على خير حالٍ كان جيش يكونها

وأنا على بابٍ لتُوماء نرتمي وقد حانَ من بابٍ لتُوما حيونُها[1]

غزوة فحل

سار أبو عبيدة رضي الله عنه الى فِحْل[2] بعد فتح دمشق واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان ، وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه على المقدمة وعلى الناس شُرَحبيل بن حسنة ، وكان على المُجَنِّبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص ، وعلى الخيل ضِرار بن الأزْوَر ، وعلى الرَّجل عياض بن غَنْم ، وقد كان أهل فحل قصدوا بَيْسان[3] فكان بين الروم وبين المسلمين تلك المياه والأوحال التي بثقوها ، وكتبوا الى عمر رضى الله عنه بالخبر وهم يحدثون أنفسهم بالمقام حتى يرجع جواب كتابهم على عند عمر ، ولا يستطيعون الإقدام على عدوهم لما دونهم على الأوحال ، وأصابوا من ريف الأرْدُنّ أفضل مما فيه عدوهم ، مادَّتهم متواصلة ، وخِصبهم رغد ، فاغترهم الروم وعليهم سَقَلار بن مِخراق ورجوا أن يكونوا على غِرة ، فأتوهم والمسلمون على حذر ، وكان شُرحبيل رضي الله عنه لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية ،

(١) معجم البلدان (باب توماء) .

(٢) فِحْل : موضع بالشام من أرض الأرْدُنّ .

(٣) بيسان : مدينة بالأرْدُنّ بالغور الشامي بين حوران وفلسطين .

فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم ، واقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم الى الليل ،فانهزموا وهم حيارى لا يعرفون مأخذهم وقد أصيب رئيسهم سقّلار والذي يليه ، فأسلمتهم هزيمتهم الى الوحل فركبوه ، ولحق أوائل المسلمين بهم وقد وحلوا ، فركبوهم وما يمنعون يد لامس، فوخزوهم بالرماح ، فكانت الهزيمة في فِحْل والقتل في الرِّداغ (الأوحال الشديدة) فأصيب الروم وهم ثمانون الفاً لم يفلت منهم إلا الشريد ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهناه ، وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون ، كرهوا البثوق والأوحال فكانت عوناً لهم على عدوهم ليزدادوا بصيرةً وجداً ، واقتسموا ما أفاء الله عليهم من الاموال ، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فحل الى حمص [1] .

وقال البلاذُري : كان سبب وقعة فحل أن هِرَقْل لما صار الى أنطاكية استنفر الروم وأهل الجزيرة ، وبعث عليهم رجلا من خاصته وثقاته في نفسه، فلقوا المسلمين بفحل من الارْدُن ، فقاتلوا أشدَّ قتال وأبرَحه ، حتى أظهرهم الله عليهم ، وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه ، وتفرق الباقون في مدن الشام ، ولحق بعضهم بهرقل ، وتحصن أهل فحل ، فحصرهم المسلمون حتى سألوا الامان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، فأُمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وأن لا

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢

تُهدم حيطانهم، وتولى عقد ذلك أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ويقال: تولاه شُرَحبيل بن حَسنة[1].

قال القعقاع بن عمرو في يوم فِحل:

كم من أبٍ لي قد ورثت فعاله	جمّ المكارم بحره تيّار
ورث المكارم عن أبيه وجده	فبنى بناءهم له استنصار
فبنيت مجدهم وما هدّمته	وبَنِيَّ بعدي إن بقوا عُمّار
ما زال منا في الحروب مروَّس	ملكٌ يغير وخلفه جَرّار
بطل اللقاء إذا الثغور توكلت	عند الثغور مجرَّب مظفار
وغداة فِحْلٍ قد رأوني مُعْلَما	والخيل تنْحِط والبلا أطوار
يفدي بلأي عندها متكلف	ساس المياسر عوده خوّار
ما زالت الخيلُ العِرابُ تدوسهم	في حوم فِحْلٍ والقنا مَوّار
حتى رمين سَراتهم عن أُسرهم	في ردغةٍ ما بعدها استمرار
يوم الرِّدَاغ فعند فحل ساعة	وخز الرماح عليهم مدرار
ولقد أبرنا في الرداغ جموعهم	طرّاً ونحوي تبسم الأبصار

وقال أيضاً:

وغداة فِحْلٍ قد شهدنا مأقِطاً	ينسي الكميّ سلاحه في الدار
ما زلت أرميهم بقرحة كاملٍ	كر المبيح رياثة الأيسار (؟)

(١) فتوح البلدان.

حتى فضضنا جميعهم بتردس (؟) ينفي العدو إذا سما جرّار
نحن الأولى جسوا العراق بخيلهم والشام جساً في ذرى الأسفار [1]

وقعة مرج الروم

كانت الوقعة بمرج الروم [2] سنة خمسة عشرة وكان من ذلك أن أبا عبيدة رضي الله عنه خرج بخالد بن الوليد بعد انهزام الروم من فحْل الى حمص ، وانصرف بمن أضيف اليهم من اليرْموك ، فنزلوا جميعاً على ذي الكلاع الحِمْيري ، وقد بلغ الخبرُ هِرقْل ،فبعث توذَر البطريق ، حتى نزل بمرج دمشق وغربها ، فبدأ أبو عبيدة رضي الله عنه بمرج الروم وجمعهم هذا ، وقد هجم الشتاء عليهم ، والجراح فيهم فاشية ، فلما نزل على القوم بمرج الروم نازله يوم نزل عليه شنس الرومي في مثل خيل توذَرا ، إمداداً لتوذَرا ، ورِدءاً لأهل حمص ، فنزل في عسكرٍ على حِدَةٍ ، فلما كان من الليل أصبحت الأرض من توذرا بلاقع ، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس ، وأتى خالداً الخبر أن توذرا قد رحل الى دمشق ، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة رضي الله عنهما أن يُتبعه خالد ، فأتبعه خالد من ليلته في جريدة من الخيل ، وقد بلغ يزيد ابن أبي سفيان فعل توذرا فاستقبله ، فاقتتلوا ولحق بهم خالد رضي الله

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .

(٢) مرج الروم : هو البقاع قاله احمد زكي في قاموس الجغرافية القديمة

عنه وهم يقتتلون ، فأخذهم من خلفهم ،فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم ولم يُفلت منهم إلا الشريد ، فأصاب المسلمون ما شاءوا أصحابه من ظهرٍ (رِكاب) وأداةٍ وثياب ، وقسم ذلك يزيد بن أبي سفيان على أصحابه وأصحاب خالد ، ثم انصرف يزيد الى دمشق ، وانصرف خالد الى أبي عبيدة رضي الله عنهما ، وقد قتل خالد توذرا وقال خالد :

نحن قتلنا توذَرا وشوذرا   وقبله ما قد قتلنا حَيْدرا(؟)

نحن أزَرْنا الغَيضة الأَكَيْدرا

وقد ناهد أبو عبيدة رضي الله شنس بعد خروج خالد في أثر توذَرا فاقتتلوا بمرج الروم ، فقتلهم قتلة عظيمةً ، وقتل أبو عبيدة رضي الله عنه شنس ، وامتلأْ المرج من قتلاهم ، فأنتنت منهم الأَرض وهرب من هرب منهم ، فلم يُفلتهم وتبعهم المسلمون إلى حمص[1] .

فتح بعلبك وحمص :

قيل : إن أبا عبيدة رضي الله عنه لما فرغ من أمر دمشق وسار إلى حمص مرّ ببعلبكّ ، فطلب أهلها الأَمان والصلح ، فصالحهم على أن آمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبكّ رومها وفرسها وعربها ، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٤ وابن خلدون ج ٢

ودُورهم ، داخل المدينة وخارجها ، وعلى أرحائهم ، وللروم أن يرعَوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله مالنا ، وعليه ماعلينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزيةُ والخراج ، شهد الله وكفى بالله شهيداً[١]. ويقال : لما بلغ هرقل الخبر بمقتل أهل المرج أمر أمير حمص بالسير والمضيّ إلى حمص ، وقال : إنه بلغني أن طعام العرب لحوم الإبل ، وشرابهم ألبانها ، وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد ، فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد ، وارتحل هو إلى الرُّهاء[٢] وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حمص وتبعه خالد ، فكان الروم يُغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ، ولقي المسلمون بها برداً شديداً ، والروم حصاراً طويلاً ، فصبروا جميعاً ، فأما المسلمون فصبروا رجاء أن يعقبهم الله النصر ، وأما الروم فرجاء أن يهلك المسلمين الشتاء ، فلما انخنس الشتاء قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين فعصوه ، ثم قام فيهم آخر فقال : ذهب الشتاء ، وانقطع الرجاء ، فماذا تنتظرون ؟ فقالوا : البِرْسام (وهى علة

---

(١) فتوح البلدان .

(٢) الرُّهاء بالمد والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

التهاب الصدر) ، فإنما يسكن في الشتاء ويظهر في الصيف ، فقال : إن هولاء قومٌ يعانون ، ولأن تأتوهم بعهدٍ وميثاق خيرٌ من أن تؤْخذوا عَنوة ، أجيبوني محمودين ، قبل أن تجيبوني مذمومين ، فقالوا : شيخ خرِف ، ولا علم له بالحرب .

وكان هِرقل قد أرسل إلي حمص يعدهم المدد ، وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز إلي حمص ، فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين ، فسير سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السرايا من العراق الى هيت[1] وحصروها ، وسار بعضهم الى قَرْقِيسِياء[2] ، فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص . ومما أثاب الله به المسلمين على صبرهم أيام حمص أن زلزل بأهل حمص ومعهم الروم ، فتصدعت الحيطان وتهافتت الدُور ، ففزعوا الى رؤسائهم وذوي رأيهم ممن كان يدعوهم الى المسالمة ، فقالوا : ألا ترون الى عذاب الله ؟ فأجابوهم لا يطلب الصلح غيركم ، فأشرفوا فنادوا : الصلحَ الصلحَ والمسلمون لا يشعرون بما حدث فيهم ، فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دُورهم ، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم ، لا ينزلونه عليهم ، فتركوه لهم ، فصالح بعضهم على صلح دمشق : على دينار وطعام على كل

---

(١) هِيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار .

(٢) قَرْقِيسِياء : بلدة على نهر الخابور من أرض الجزيرة .

جريبٌ (٤٨ صاعاً) أبداً، أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته، إن زاد ماله زِيد عليه، وإن نقص نُقص، وكذلك كان صلح دمشق والأرْدُن.

وأقام أبو عبيدة في عسكره فكتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالفتح، وبعث بالأخماس مع عبد الله بن مسعود، فكتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما أن أقم في مدينتك، وادع أهل القوة والجلَد من عرب الشام، فإني غير تارك البعثة اليك بمن يكانفك (يعاونك) إن شاء الله[1].

وذكر بعض الرواة أن السِّمط بن الاسود الكندي كان صالح أهل حمص فلما قدم ابو عبيدة رضي الله عنه أمضى صلحه، وان السمط قسم حمص، خِطَطاً بين المسلمين حتى نزلوها، وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله، أو ساحةٍ متروكة.

وفي رواية الواقدي وغيره أنه بينا كان المسلمون على أبواب مدينة دمشق إذ أقبلت خيلٌ للعدو كثيفة، فخرجت اليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لِهْيَا[2] والثَّنية[3] فولُّوا منهزمين نحو حمص على طريق قارة[4]، واتبعوهم حتى وافوا حمص، فألفوهم قد عدلوا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢

(٢) بيت لِهْيَا: قرية مشهورة بغوطة دمشق.

(٣) الثنية: هي ثنية العُقاب المشرفة من الغوطة يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص

(٤) قارة. قرية كبيرة هي منزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق.

عنها ، ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين (مهزولين) لهرب هِرَقْل عنهم ، وما كان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم ، فأعطوا بأيديهم (أي انقادوا) وهتفوا بطلب الأمان ، فأمنهم المسلمون وكفّوا أيديَهم عنهم ، فأخرجوا اليهم العلف والطعام ، وأقاموا على الأُرُنْطِ[1] .

وفي رواية أخرى أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لما فرغ من دمشق قدم أمامه خالد بن الوليد و مِلْحان بن زياد الطائي ثم أتبعهما فلما توافوا بحمص قاتلهم أهلها ، ثم لجأوا الى المدينة وطلبوا الأمان والصلح ، فصالحوه على مائة الف وسبعين الف دينار[2] .

فتح قنسرين وغيرها

بعث أبو عبيدة رضي الله عنه بعد فتح حمص خالد بن الوليد الى قِنَّسْرِين[3] ، فلما نزل بالحاضر[4] زحف اليهم الروم وعليهم ميناس ، وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل ، فالتقوا بالحاضر فقتل

(١) كذا في فتوح البلدان بالطاء وفسره بأنه النهر الذي يأتي أنطاكية ثم يصب في البحر بساحلها . وفي معجم البلدان الأُرُنْد بالدال قال : وهو نهر الرَّستن المعروف بالعاصي ، يقال له في أوله الميماس ، فاذا مر بحماة قيل له العاصي فاذا انتهى إلى انطاكية قيل له الأُرُنْد وله أسماء أخرى في مواضع أُخر .

(٢) فتوح البلدان .

(٣) قِنَّسرين : كورة بالشام كانت مدينة بينها و بين حلب مرحلة من جهة حمص

(٤) الحاضر : الحي العظيم والمراد به هنا حاضر قنسرين .

ميناس ومن معه مقتلةً لم يُقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد ، وأما أهل الحاضر فأرسلوا الى خالد أنهم عرب ، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم .

ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك قال : أمَّر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال مني . وسار خالد حتى نزل على قِنَّسْرين ، فتحصنوا منه ، فقال : إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم ، أو لأنْزلكم الله الينا . فنظروا في أمرهم وذكروا مالقي أهل حمص ، فصالحوه على صلح حمص ، فأبى خالد إلا على إخراب المدينة فأخربها واتّطأت (أي تسهلت وتهيأت) حمص وقِنَّسْرين ، فعند ذلك خنس هِرَقْل ثم سار الى القسطنطينية فاختلف في حين شخوصه اليها وتركه بلاد الشام ، فقيل سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ست عشرة .

وقد كان هِرقل كلما حج بيت المقدس فخلف سُورِيَةَ وظعن في أرض الروم التفت فقال : عليك السلام يا سورية تسليم مودّعٍ لم يقض منك وطره وهو عائد ، فلما فتحت قنّسرين وقفل داخلاً بلاد الروم التفت الى سورية فقال : قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، ولا يعود اليك رومي أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد المولود المشئوم وليته لم يولد .

ثم مضى حتى نزل القُسْطَنْطِينِيَّة ، وأخذ معه أهل الحصون التي بين إسكندرية[1] وطرَسوس[2] لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكِيَة وبلاد الروم ، وشعّث الحصون ، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً ، وربما كمن عندها الروم فأصابوا غِرّة المتخلفين ، فاحتاط المسلمون لذلك .

ثم سير أبو عبيدة مع خالد بن الوليد رضي الله عنهما جيشاً الى مَرْعَش[3] ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها ، وفتح حصن الحَدَث[4] ، وذلك سنة خمس عشرة ، وقيل ست عشرة .

وفي سنة سبع عشرة قصد الروم أبا عبيدة رضي الله عنه ومن معه من المسلمين بحمص ، وكان المهيج للروم أهل الجزيرة ، فانهم أرسلوا إلى ملكهم وبعثوه على إرسال الجنود إلى الشام . ووعدوا من أنفسهم المعاونة ، ففعل ذلك ، فلما سمع المسلمون باجتماعهم ضمّ أبو عبيدة إليه مسالحه ، وعسكر بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد من قِنَّسْرِين حتى انضمّ إليهم ، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغياث ، فأشار خالد بالمناجزة ، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر ،

---

(١) الاسكندرية : قرية بين حلب وحماة .

(٢) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم .

(٣) مَرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم .

(٤) الحَدَث : قلعة حصينة قريبة من مرعش .

فأطاعهم وكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، وكان عمر قد اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدةً لكون إن كان، فكان بالكوفة (١) من ذلك أربعة آلاف فرس، وبالبصرة (٢) نحوٌ منها، فان نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس.

فلما وقع الخبر لعمر رضي الله عنه كتب إلى سعد بن مالك في ما كتب إليه أن أندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي الى حمص، فان أبا عبيدة قد أُحيط به، وتقدم اليهم في الجدّ والحث، فمضى القعقاع في أربعة آلاف نحو حمص؛ وتوجّه كل أمير الى الكورة (المدينة أو الناحيه) التي أُمّر عليها، وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة حتى نزل الجابية؛ ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص وهم معهم خبرُ الجنود الإسلامية تفرقوا الى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم؛ فلما فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً رضي الله عنهما في الخروج فأشار به فقاتلوهم ففتح الله عليهم.

وقدم القعقاع بن عمرو في أهل الكوفة بعد الوقعة بثلاثة أيام،

---

(١) الكوفة : المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق.

(٢) البصرة : بلدة عظمى بالعراق.

فكتبوا الى عمر وقد انتهى الى الجابية يعلمونه بالفتح وبقدوم المدد عليهم ويسألونه عن الحكم في ذلك ، فكتب اليهم أن أشركوهم فانهم نفروا اليكم وتفرّق لهم عدوكم ، وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ، ويُمدُّون أهل الأمصار .

عزل خالد بن الوليد عن الإمارة

تبين من مطالعة كتب التاريخ أن خالد بن الوليد رضي الله عنه عزل مرتين : عزل في المرة الأولى عن الامارة العامة ، ونُحي في الأخرى عن جيش المسلمين . أما عزله في المرة الأولى فقد اختلف المؤرخون فيه فقال بعضهم . جاء العزل خالد بن الوليد وهو في اليرموك [1] وقال بعضهم : بل جاءه العزل وهو على حصار دمشق [2] وقد تقدم الاختلاف أيضاً أيهما كان أولاً اليرموك أم دمشق ، وأما تنحيته عن الجيش فقد كانت سنة سبع عشرة . وكلا العزلين كان بأمرٍ من سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان عمر قبل خلافته يرى عزل خالد ويشير به على أبي بكر :

فقد حدث مالك بن أنس أن عمر قال لأبي بكر رضي الله عنهما : اكتب الى خالد لا يعطي شيئاً الا بأمرك . فكتب اليه بذلك ، فأجابه

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وغيره .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ وغيره

خالد : إما أن تدعني وعملي ، والا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمن يجزي عني جزآء خالد ؟ قال عمر : أنا ، قال : فأنت ، فتجهز عمر حتى أنيخ الظَّهر (الركاب) في الدار ، فمشى أصحاب النبي ﷺ الى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج اليه ؟ وما لك عزلت خالداً وقد كفاك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، على وتكتب الى خالد فيقيم على عمله ، ففعل ، فلما ولي عمر كتب الى خالد أن لا تعطِ شاةً ولا بعيراً الا بأمري ، فكتب اليه خالد بمثل ما كتب الى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه. ثم كان يدعوه الى أن يعمل فيأبى الا أن يخليه يفعل ما يشاء ، فيأبى عمر (١) .

وكان رضي الله عنه يقول قبل خلافته : أما والله لئن صير الله هذا الأمر الي لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلما أن الله هو الذي نصر ، ليساهما (٢) .

فلما ولي الخلافة أرسل رسولاً الى الشام بكتاب،الى أبي عبيدة رضي الله عنه بتوليته وعزل خالد ، فاتفق وصول الرسول وهم مشغولون بالحرب ، فجعل الناس يسألون الرسول عن سبب قدومه ، فأخبرهم

---

(١) الاصابة ج ١ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

بالسلامة ، ووعدهم أن وراءه مدداً لهم ، وكتم عنهم موت أبي بكر رضي الله عنه ، ثم وصل الى أبي عبيدة بن الجراح فأخبره سراً بموت أبي بكر ، وناوله كتاب عمر بتوليته وعزل خالد ، فاستحيا أبو عبيدة من خالد رضي الله عنهما ، وكره أن يعلمه بالعزل ، وهو قد بذل جهده في القتال ، فكتم أبو عبيدة الخبر عن خالد ، وصبر حتى تمّ الفتح وكُتب الكتاب باسم خالد ، ثم أعلمه بموت أبي بكر رضي الله عنه وبعزله ، فسلم اليه الجيش [1] وقال له خالد : ما دعاك — رحمك الله — الى ما فعلت ؟ قال كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو [2] .

وقيل لما فتح خالد دمشق نظر الى راكب على الثَّنِية وكان من أحدّ الرجال بصراً ، فقال : كأني بهذا الراكب انساب في الناس ، فأتاه أبو عبيدة رضي الله عنه بكتاب ، فقال له خالد : متى أتاك هذا الكتاب ؟ قال : عشية فتحت دمشق ، قال : فما منعك أن تأتينا به ؟ فقال : كان فتحٌ فتحه الله على يديك فكرهت أن أنقصكه [3] .

وقيل : إن خالداً أتاه عزله وهم محاصرو دمشق [4] .

(١) الفخري في الآداب السلطانية .
(٢) فتوح البلدان .
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥
(٤) فتوح البلدان .

وكان أول كتاب كتبه عمر رضي الله عنه حين ولي الخلافة الى أبي عبيدة يوليه على جند خالد : أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا الى الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لاتقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم : وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كثف (جماعة) من الناس ، وإياك والقاء المسلمين في الهلكة ، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم[1] وقيل : بل كتب اليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فان أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق ، العامل بالحق ، والآمر بالقسط ، والآخذ بالعرف ، اللين الستير ، الوادع السهل ، القريب الحكيم ، نحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى ، وأرغب الى الله في العصمة بالتقى في

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ .

رحمته ، والعمل بطاعته ما أحيانا ، والحول في جنته إذا توفانا ، فإنه على كل شيء قدير ، وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين ، فبُثَّ سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين ، ولا يحملنك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت اليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه[1] .

ولما دفع أبو عبيدة رضي الله عنه ذلك الكتاب الى خالد بن الوليد بعد فتح دمشق بنحو عشرين ليلة ، أقبل حتى دخل على أبي عبيدة . فقال : يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني ، وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ، فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنت لأكثر عليك حزنك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل وإن ما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوانٌ وقُوَّامٌ بأمر الله عز وجل ، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه ، بل يعلم الوالي أنه

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ .

يكاد يكون أدناهما الى الفتنة ، وأوقعهما في الخطيئه ، لما تعرّض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليلٌ ما هم .

وروي أن عمر رضي الله عنه لما عزل خالداً عن الشام واستعمل عليه أبا عبيدة بن الجراح قام خالد فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن أمير المؤمنين استعملني على الشام ، حتى إذا كانت بَثنيّة (زبدة) وعسلاً عزلني وآثر بها غيري ، فقام اليه رجل فقال : اصبر أيها الامير فانها الفتنة ، فقال خالد : أما وابن الخطاب حيٌّ فلا ، ولكن ذاك إذا كان الناس بذي بَليٍّ (أي طوائف وفرقاً من غير إمام) قال : فلما بلغ عمر ما قال خالد ، قال : أما لأنزعنّ خالداً حتى يعلم أن الله ينصر دينه ليس هو[1] .

وفي رواية أخرى أن عمر عزل خالداً رضي الله عنهما وجعل الامر كله الى أبي عبيدة بن الجراح وخيف من فتنة تحدث من عزل خالد إذا بلغه الخبر ، فلما بلغه ذلك قال : والله لو ولّى عليّ عُمر إمرأةً لسمعت وأطعت . فاستُصْوب ذلك منه واستحسن[2] .

وأما عزله عن الجيش سنة سبع عشرة فقد كان سببه أنه كان أدرب (سار الى أرض العدو) هو وعياض بن غَنْم فأصابا أموالاً

(١) الخراج لأبي يوسف ، والفائق للزمخشري ، والنهاية لابن الأثير .

(٢) مرآة الجنان لليافعي ج ١

عظيمة ، وكانا توجها من الجابية ، مَرجعَ عمر الى المدينة ، وعلى حمص
حينئذ أبو عبيدة ، وخالد تحت يديه على قِنَّسْرين ، وعلى دمشق يزيد
ابن أبي سفيان ، وعلى كل عمل عاملٌ ، ولما قفل خالد وبلغ الناس
ما أصاب تلك الصائفة انتجعه رجال ، وكان منهم الأشعث بن قيس
فأجازه بعشرة آلاف ، وكان عمر رضي الله عنه لا يخفى عليه شيء من
عمله ، يكتب اليه من العراق بخروج من خرج منها ، ومن الشام
بجائزة من أجيز فيها ، فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة أن يقيم
خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قَلَنْسُوته حتى يعلمهم من أين أجاز
الأشعث هل من مال الله أم من ماله أم من من إصابة أصابها ؟ فان زعم أنه
من إصابة أصابها فقد أقرّ بالخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ،
واعزله على كل حال ، وأضمم اليك عمله . فكتب أبو عبيدة الى خالد
رضي الله عنهما فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام
البريد فقال : يا خالد أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم
يجبه . حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ، فقام
بلال مولى أبي بكر اليه فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا
ثم تناول عمامته فنقضها لا يمنعه خالد سمعاً وطاعة ، ثم وضع قَلَنْسُوَته ،
ثم أقامه فعقله بعمامته فقال : ما تقول أمن مالك أم من إصابة ؟ فقال :
لا بل من مالي ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ، ثم عممه بيده ، وقال : نسمع

ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا[1] .

وقيل : كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما أن ينزع عمامة خالد عن رأسه ويقاسمه ماله نصفين ، ففعل ، وقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ، فقال خالد : أجل ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ، فأخذ نعلاً وأعطاه نعلاً .

ويقال : إن خالداً رضي الله عنه لما أعلم بعزله رُفع الى قِنَّسْرِين ، فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص ، فخطب أهلها وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك الى المسلمين ، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا الثراء ؟ فقال : من الأنفال والسُّهمان ، ما زاد على الستين الفاً فلك ، فقوّم عروضه فخرجت اليه عشرون الفاً ، فأدخلها بيت المال ، فقيل له : يا أمير المومنين لو رددت على خالد ماله ، فقال : أنا تاجر المسلمين ، والله لا أرده عليه أبداً . ثم قال : يا خالد والله إنك عليّ لكريم ، وإنك إليّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء .

أما الاسباب التي دعت عمر رضي الله عنه لعزل خالد فأهمها أنه كان في نفس عمر شيء من خالد منذ قتل مالك بن نُوَيرة ، وما كان

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ وابن الأثير ج ٢

يصنع بالمال، فقد كان خالد إذا صار اليه شيء منه قسمه في أهل الغنى ولم يرفع الى أبي بكر رضي الله عنه حسابه، وكان فيه تقدم على أبي بكر يفعل الاشياء التي لا يراها أبو بكر رضي الله عنه وقيل: نزعه لكلام كان خالد تكلم به[1]، وقيل: بل عزله لأنه كان يَرِدُ المهالك في الحروب، ولأنه نازع أبا عبيدة وكان أميراً في الشام على المسلمين، وكان عمر يحب أبا عبيدة حباً شديداً لأنه كان يحفظ الغنائم[2]

وخير ما يقال في عزله أن عمر رضي الله عنه لم يعزله إلا لمصلحة ظهر له رجحانها وأوضحها في كتابه الى أهل الامصار، فقد كتب اليهم:

إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فُتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليه ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعُرض فتنة[3].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥
(٢) مرآة الجنان لليافعي ج ١
(٣) تاريخ الطبري ج ٤

الفصل الثامن

خاتمة خالد بن الوليد

وفاة خالد - أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضله — أقوال عمر ابن الخطاب فيه — بعض ما قيل فيه من الشعر — دخوله مصر — تسمية الرواة عنه وعدة ما رواه من الحديث — ولده — نفسه .

وفاة خالد

انتهت حياة ذلك القائد العظيم ولفظ أنفاسه الأخيرة سنة احدى وعشرين [1] ، وقيل سنة اثنتين [2] وعشرين ، بعد أن قضى معظم حياته مجاهداً فاتحاً ، وله من العمر ستون سنة [3] .

واختلف في موضع قبره فقال جمهور المحدثين والمؤرخين : إنه بحمص [4] وهو الأرجح ، وقال بعضهم : هو بقرية على ميل من

(١) أسد الغابة ج ٢ وتاريخ أبي الفداء ج ١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ومرآة الجنان ج ١ وغيرها .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ج ١

(٣) مرآة الجنان ج ١ ودول الاسلام للذهبي ج ١

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ودول الاسلام ج ١ وتاريخ ابي الفداء ج ١ وغيرها

حمص[1] وقيل بالمدينة[2] ويقال : إن قبر خالد الذي يزار بحمص هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية[3] وقال ياقوت في معجم البلاد (الجزيرة) : والصحيح أن خالداً لزم حمص حتى توفي بها سنة ٢١هـ وأوصى الى عمر، ويزعم بعضهم أنه مات بالمدينة ، وموته بحمص أثبت اهـ .

ومما يرجح رواية الجمهور ما روي عن ثعلبة بن أبي مالك أنه قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقُباء[4] يوم السبت ومعه نفرٌ من المهاجرين والأنصار ، فاذا أناس من أهل الشام يصلون في مسجد قُباء حجاجاً ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا من اليمن ، قال : أي مدائن الشام نزلتم ؟ قالوا : حمص ، قال : هل معكم من خبر ؟ قالوا : نعم ، خرجنا من حمص يوم موت خالد بن الوليد رضى الله عنه[5] .

ولما حضرت الوفاة خالداً بكى وقال : لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبرٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم،أو طعنةٌ برمح ،وهاأنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير،فلا نامت أعين الجبناء ، وقال رجل ممن حوله : والله ليسوءني ، فقال له: ولكنها

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ج ١

(٢) الاستيعاب وتاريخ أبي الفداء ج ١وأسد الغابة ج ١ ج٢ ومعجم البلدان (حمص) وغيرها .

(٣) معجم البلدان (حمص)

(٤) قُباء : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة .

(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ومنتخب كنز العمال ج ٥

سيئة التي قبلها أجلّ ، وأستعين الله على ذلك[1] وقال رضي الله عنه : لقد طلبت القتل في مظانّه ، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد ، في سَرِيّة من المهاجرين ، بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ ، وأنا أنتظر الصبح حتى أُغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد ، ثم قال : إذا أنا متُّ فانظروا في سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عُدّةً في سبيل الله[2] .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : إن خالداً احتبس أدراعه وأعْتُدَه في سبيل الله[3] .

احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل خالد

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً ، فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله ﷺ : من هذا يا أبا هريرة ؟ فأقول : فلان ، فيقول : نعم عبد الله هذا ، ويقول : من هذا ؟ فأقول : فلان ، فيقول بئس عبد الله هذا ، حتى مرّ خالد بن الوليد فقال : نعم عبد الله خالد بن الوليد ، سيفٌ من سيوف الله .

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ وعيون الأخبار ج ١

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ والاصابة ج ١

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ج ١

(رواه الترمذي).[1]

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خالد سيفٌ من سيوف الله عز وجلّ ، ونعم فتى العشيرة.
(رواه الامام أحمد في مسنده[2]).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله (رواه البغوي).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سَلّهُ الله على المشركين .
(رواه ابن عساكر).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله . (رواه الديلمي في مسند الفردوس)[3] .

وعن ابن عباس أيضاً قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضي الله عنهما كلام ، فقال عمار : لقد هممت أن لا أكلمك أبداً ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال يا خالد ! مالك ولعمار ؟ رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدراً ، وقال لعمار : إن خالداً يا عمار سيف من سيوف

(١) تيسير الوصول ج ٣
(٢) شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ج ٥
(٣) الجامع الصغير للسيوطي ، وشرح المشكاة عنه .

الله على الكفار ، قال خالد : فما زلت أحب عماراً من يومئذ [1] .

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال : شكا عبد الرحمن بن عوف خالد ابن الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خالد ! لم تؤذي رجلاً من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أُحُد ذهباً لم تدرك عمله ، فقال يا رسول الله يقعون فيَّ فأردُّ عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : لا تؤذوا خالداً فانه سيفٌ من سيوف الله صبه الله على الكفار (أخرجه ابن حبان والحاكم) [2] .

وعن أبي عثمان النهدي أن خالداً لما قدم من غزوة مؤتة على النبي ﷺ قال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، فقال له : ما غضب الله عليك ولا رسوله ، ولكنك سيفٌ من سيوف الله [3] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رَواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم (أي يوم مؤتة أنظر ص ٢٦) فقال أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رَوَاحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . (رواه البخاري في صحيحه) قال الحافظ ابن حجر : ومن يومئذ تسمى سيف الله [4] .

---

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ج ١ وأخرجه الامام أحمد في المسند مطولاً

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ والاستيعاب ج ١ وفتح الباري ج ٧

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٣) فتح الباري ج ٧

اقوال عمر بن الخطاب في خالد

لما علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بموت خالد قال : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) مراراً ، ونكس وأكثر الترحم عليه وقال : كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة [١] .

فلما بلغه أنه لم يوجد له بعد موته إلا فرسه وغلامه وسلاحه قال : رحم الله أبا سليمان ، كان على غير ما ظنناه به .

وقال لأمه وقد بكت عليه يا أم خالد ! خالداً وأجره ترزئين جميعاً ، عزمت عليك أن لا تبيتي حتى تسودّ يداك من الخطاب [٢] .

وقد بلغه أن نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد فبكى وقال : ليقلن نساء بني مخزوم في أبي سليمان ما شئن ، فإنهن وعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي [٣] ويقال : جعل نساء بني المغيرة يشققن الجيوب ، ويضربن الوجوه ، ويطعمن الطعام ، وما ينهاهن عمر ، ولم تبق امرأة من بني مخزوم إلا وحلقت لِمَّتها ووضعتها على قبر خالد رضي الله عنه [٤] .

والصحيح في ذلك ما رواه البخاري في التاريخ الأوسط من

---

(١) منتخب كنز العمال ج ٥ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٢) طبقات ابن سعد ج ٧ القسم الثاني وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٣) الأغاني ج ١٩

(٤) طبقات ابن سعد ج ٧ القسم الثانى و تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٥

طريق الأعمش عن شقيق قال : لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة وهن بنات عم خالد يبكين عليه فقيل لعمر : أرسل إليهن فانْهَهُنَّ فقال عمر : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقعٌ أو لَقْلقة (قال البخاري : والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت) .

وروى البخاري أيضاً قول عمر هذا في صحيحه غير موصول بما قبله . وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني : وأخرجه ابن سعد عن وكيع وغير واحد عن الأعمش[1] .

ودخل هشام بن البختري في أناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له : ياهشام أنشدني شعرك في خالد ،فأنشده فقال : قصرت في الثناء على أبي سليمان ، رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله ، ثم قال عمر رضي الله عنه : قاتل الله أخا بني تميم ما أشعره حيث قال :

فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى   تهيأ لاخرى مثلها فكأن قدِ
فما عيش من قد عاش بعدي بنافعي   ولا موت من قد مات قبلي بمخلدي

ثم قال : رحم الله أبا سليمان ، ماعند الله خيرٌ له مما كان فيه ،ولقد مات فقيداً ، وعاش حميداً ، ولقد رأيت الدهر ليس بقـائل ، وقال : لقد كنا نظن به أموراً ما كانت[2] .

(١) فتح الباري ج ٣

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ومنتخب كنز العمال ج ٥ والاصابة ج ٣

وذكر رضي الله عنه خالداً وموته فقال . قد ثُلم في الاسلام ثلمة لا ترتق ، قيل : يا أمير المؤمنين لم يكن رأيك فيه في حياته على هذا ، قال : ندمت على ما كان مني اليه[1] .

وقيل له : لو عهدت يا أمير المؤمنين، فقال : لو أدركت أباعبيدة ابن الجراح ثَمَّ وليته ، ثم قدمت على ربي فقال لي : لمَ استخلفته على أمة محمد ، لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالداً ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : من استخلفت على أمة محمد لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين

ورأى عمر رضي الله عنه امرأة محرمة تبكيه وتقول :

أنت خير من الف الفٍ من النـ ... ـاس اذا ما كَبَتْ وجوه الرجال
أشجاعٌ فأنت أشجع من ليـ ... ـثِ عرينٍ جهم أبي أشبال
أجوادٌ فأنت أجود من سيـ ... ـلٍ أتيٍّ يسيل بين الجبال

فقال عمر رضي الله عنه : من هـذه ؟ فقيل : أمه ، فقال أمـه ؟ والإلهِ ثلاثاً هل قامت النساء عن مثل خالد ؟ فكان عمر رضي الله عنه يتمثل في طية تلك الثلاث في ليلة وبعد ما قدم (؟) :

أتبكي ما وصلت به الندامى ... ولا تبكي فوارس كالجبال

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ومنتخب كنز العمال ج ٥

أولئك إن بكيت أشد فقداً — من الأدهان والعكر الحلال

تمنى بعدهم قومٌ مداهم — فلم يدنوا لأسباب الكمال[1]

بعض ماقيل فيه من الشعر

قال عبد عمر بن المطرح يمدح خالداً :

بني عمرٍ أنتم عصبةٌ — لعالي المكارم مبتاعه

وقد زان مجدكمُ خالدٌ — بإطلاقه غُلّ مُجّاعه

وسارية القوم قد فكه — وكان رهينة جعجاعه

بغضبٍ حسامٍ رقيق به — بكف فتى غير هجّاعه

رأيت المحارب لابن الوليد — أذلّ من الفَقْع بالقاعه

فيا ابن الوليد وأنت امرؤ — تقاتل من شك في الساعه

ومن منح الحق من ماله — ونفسك للذل مناعه

وكفاك كف تضير العدى — وكف لمن شئت نفاعه

فما لليمامة من ملجأٍ — سوى السمع لله والطاعه[2]

وقال عمر بن أحمد :

إذا قال سيف الله كرّوا عليهمُ — كررت بقلب رابط الجأش صارم[3]

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٥ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٣) الأغاني ج ٧

دخول خالد مصر

لقد عدّ ابن تغري بردي الأتابكي خالد بن الوليد رضي عنه في الصحابة الذين دخلوا مصر ، ولم نر أحداً ذكر ذلك غيره فليحرر[1]

تسمية الرواة عنه وعدة ما رواه من الحديث

روى خالد عن النبي ﷺ ، وروى عنه ابن عباس وهو ابن خالته ، وجابر بن عبد الله ، والمقدام بن معد يكرب ، وأبو أمامة أسعد ابن سهيل بن حنيف ، وقيس بن حازم ، ومالك بن الحارث الأشتر النّخَعي ، واليسع بن المغيرة المخزومي ، وعلقمة بن قيس ، وجُبير بن نُفير ، وأبو العالية رُفيع بن مهران الرياحي ، وأبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي وغيرهم . وأخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والامام أحمد[2] . وعدة ما أسند من الحديث الى رسول الله ﷺ ثمانية عشر حديثاً .

ولد خالد

اختلف الرواة في ولد خالد ، فقال بعضهم أن ولده قد انقرضوا ولم يبق منهم أحد ، وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة[3] ، وقيل :

(١) النجوم الزاهرة ج ١

(٢) تهذيب التهذيب ج ٣ وتهذيب الأسماء واللغات ج ١ والاصابة ج ١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج ٢

كان لخالد بالشام من الولد عدد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلاً فبادوا [1] .

وأكبر ولده سليمان وبه كان يكنى [2] والمشهور منهم عبد الرحمن وله مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قصة ذكرها الاصبهاني في الاغاني [3]

واستعمله معاوية على الصائفة ثم قال له : ما تصنع بعهدي قال : أتخذه إماماً لا أعصيه ، قال : اردد عليّ عهدي [4] .

نفس خالد

إذا نظرنا إلى نفس خالد بن الوليد رضي الله عنه نجدها نفساً تحلّت بالشجاعة التامة ، وضمت إليها صفة القيادة في الحرب قبل كل شيء آخر .

فلقد أمّ خالد الناس بالحيرة فقرأ من سُوَر شتى فلما سلم التفت إلى الناس فقال : شغلني الجهاد عن تعلم القرآن . وفي لفظٍ : عن كثير من قراءة القرآن [5] .

ولقد تطورت تلك النفس وتأثرت حسب العوامل التي عملت

---

(١) المعارف لابن قتيبة
(٢) الاصابة ج ٢
(٣) الأغاني ج ١٥
(٤) الاصابة ج ٢ (ترجمة عبد الله بن مسعدة) .
(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥

بها ، فقد كانت في صدر الإسلام غيرها في الجاهلية ، ثم كانت في آخر حياته غيرها في صدر الإسلام .

أما نفسه في الجاهلية فكانت نفس قائد حرب لا يعرف إلا الحرب والغارات ، ولا يخفى أن نفس الحربي لا يتجلى أمامها إلا ضرب الرقاب وتدمير القرى والبلدان ، وليس همها إلا النهب والسلب ، وفي ذلك ما فيه من ظلم وعدوان على بني الإنسان إن لم هناك يكن غاية شريفة توقد نار الحرب من أجلها . وهي كانت مفقودة لدى خالد في جاهليته ، وماشعر بها إلا حينما دخل في الاسلام ، وأي غاية اشرف وأسمى من إعلاء كلمة الله ونشر دينه الحق وتحطيم الأوثان والأصنام وتأديب أرباب الشر والفساد ؟

لا جرم أن نفسه قد تطورت بتعاليم الإسلام تطوراً زادها قوةً ورباطة جأش ، وجعلها تقاتل لنشر الفضيلة وطي الرذيلة ، وعلمها أن من عاش عاش حميداً ، ومن مات مات شهيداً .

بيد أن هناك بعض مآخذ أُخذ بها خالد رضي الله عنه في حروبه ، منها فعلته في بني جذيمة وقتله مالك بن نُوَيرة وغير ذلك مما تقدم ذكره . وقد اعتذر خالد عن نفسه بأعذار قبلها منه أبو بكر رضي الله عنه ، وقد رأيت في هذا الكتاب من الاختلافات التي وردت بشأن قتل مالك ابن نُوَيرة مالا يصلح أن يكون حجة على إدانة خالد . ولو

أنه ثبت عليه جرم يستحق به الحدّ لحُدّ كما يحدّ أضعف الناس .

على أنه ليس من البعيد أن يجتهد القائد في أمر يكون فيه بعض القسوة أو الخطاء ، لأن نفس الحربي منطبعة على الخشونة والتسرع في القتل والتهور أحياناً ، وهذه النفس مهما اجتهد الإسلام في أن يلطف من حدتها لا بد من النزوع إلى شيمتها الأولى وقتاً ما .

لقد زكت نفس خالد بالإسلام وأشربت مبادئه وتأثرت بها فتحلت بالفضائل واشتملت على كريم الخلال حتى بلغت في أواخر أيامه منزلة تدنو من حدّ الكمال . ولا أدلّ على هذا من خضوعه لأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونزوله على ارادته ، في حين لو أراد أن يقيم عليه ثورة لأقامها ، ولو شاء أن يكرّ بجيشه على المدينة لفعل ، ولكن هناك رادعاً قوياً ردعه ولطف من حدة نفسه الحربية ، وجعله يذعن إليه كأنه مستضعف لا حول له ولا صول .

لاجرم أن هذا الرادع هو تعاليم الاسلام التي أمرت بطاعة أولي الأمر ما داموا يطيعون الله ورسوله ؛ ولولا تلك النفس الإسلامية التي اشتمل عليها خالد فعمت جميع جوارحه لكان له مع الخليفة شأن غير شأنه ، ولأصاب الدعوة الاسلامية في الصميم فوقفت عن تقدمها في الروم والفرس ، وربما أطمع ذلك الخصوم في العدوان على جزيرة العرب وإطفاء ذلك النور المنبعث منها .

ما أعظم تلك الخدمة التي أداها خالد الى الاسلام والمسلمين بخضوعه لأوامر أمير المؤمنين ! فانها وحدها كافية لان تجعله في أسنى المراتب وأعلاها ، وتخلد اسمه في سجل التاريخ الاسلامي مقروناً بالتعظيم والاكبار ، وهي وحدها كفيلة له بمحو كل ما أتاه من الهفوات ، وإن شئت فقل من الخطيئات .

رحم الله تلك النفس العالية التي قضت أيامها في الجهاد لإعلاء كلمة الله ، تلك النفس التي طبعت بطابع الاسلام واصطبغت بصبغته ، تلك النفس التي عاملت المغلوبين والذميين أحسن معاملة ولم تمس أحداً من الفلاحين بسوء ، تلك النفس التي لم تخلف غير فرس وسلاح حبس في سبيل الله ، تلك النفس التي ماتت ولم تضمر شراً لاحد حتى ولا للذي أنزلها عن عرش الامارة .

قال خالد رضي الله عنه : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحبّ إليّ من عمر ، والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه[1] .

نحمد الله برحمته وإحسانه تلك النفس التي أسفت أن تموت على فراشها ، وتمنت الموت في ساحات الوغى ، وهي تجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق .

رحم الله خالد بن الوليد ورضي عنه

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢

ثبت المصادر

مرتبأ على حروف الهجاء

الأخبار الطوال للدِّينَوَري
الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (بهامش الاصابة)
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير
الاسلام خواطر وسوانح لهنري دي كاستري
« لهنري ماسه (بالفرنسية)
الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني
الأصنام لابن الكلبي
الأغاني للأصبهاني
تاريخ ابن الأثير
تاريخ الطبري
تاريخ ابن خلدون
تاريخ أبي الفدآء
تاريخ التشريع الاسلامي للخضري
« الخلفآء للسيوطي
تهذيب الأسماء واللغات للنووي
« تاريخ ابن عساكر
« التهذيب لابن حجر العسقلاني
تيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن الدَّيبع
الجامع الصغير للسيوطي
حاضر العالم الاسلامي للوثروب ستودارد

حضارة العرب لغوستاف لوبون (بالفرنسية)
الخراج لأبي يوسف
الخراج ليحيى بن آدم القرشي
خلاصة تاريخ العرب لسيديو
الخميس في أحوال أنفس نفيس للديار بكري
دول الاسلام للذهبي
رسالة في بيان كيفية انتشار الأديان لرفيق العظم
زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية
السيرة الحلبية
سيرة ابن هشام
صحيح البخاري
كتاب الطبقات الكبير لابن سعد
العالم جزيرة العرب لدفرجه (بالفرنسية)
العقد الفريد لابن عبد ربه
عيون الأخبار لابن قتيبة
الفائق للزمخشري
فتح الباري لابن حجر العسقلاني
« العلام لنور الحسن خان
الفتوحات الاسلامية لزيني دحلان
فتوح البلدان للبلاذري
الفخري لابن الطقطقي
قاموس الجغرافية القديمة لأحمد زكي
القاموس المحيط للفيروزابادي
مرآة الجنان لليافعي
مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري
مسند الامام أحمد بن حنبل

مشكاة العلوم والبراهين لأحمد فوزي الساعاتي

المعارف لابن قتيبة

معجم البلدان لياقوت الحموي

مقدمة ابن خلدون

منتخب كنز العمال للمتقي الهندي (بهامش مسند الامام أحمد)

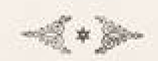
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي

النهاية لابن الأثير

هداية الحيارى لابن قيم الجوزية

الوزراء والكتّاب للجهشياري

وهناك كتب اخرى في الحديث والسيرة والتاريخ واللغة وغيرها رجعنا إليها في الضبط والتصحيح ولم ننقل منها .



محاضرة عسكرية

في

الخطط الحربية التي انتهجها في أوائل فتوح الشام

خالد بن الوليد رضي الله عنه

ألقاها

في نادي الضباط القدماء العقيد الركن

أحمد اللحام

المكتبة العربية في دمشق

مقدمة

إن لكل أمة من أمم الغرب ، عدا تاريخها السياسي والمدني ، تاريخاً عسكريا تنحصر بحوثه في الأصول الحربية المتبعة في كل دور من أدوار حياة تلك الأمه ، وفي حالة جيوشها والحروب المهمة التي خاضتها ، والقواد الذين اشتهروا فيها . وما الى ذلك من شؤون لها علاقتها المباشرة بحالة تلك الأمة الجندية ، ويُلخص من ذلك التاريخ دروس عملية يتلقاها الخلف عن السلف ، ويتألف من مجموعها « الفن الحربي » الذي كاد يبلغ أسمى درجة الرقي في عصرنا الحاضر .

والتاريخ العسكري عند العرب ، مع ما بلغته هذه الأمة من مدارج الحضارة في الزمن الغابر ، لا يزال حلقةً مفقودةً ، وإن الوقائع التي قام بها العرب ظلت مشوشةً غامضة ، ذلك لأن مؤرخيهم اكتفوا بسردها كقصص وروايات مختلفة يكاد القارىء يضل بين سطورها ، مع أنها لو تمحصت وتناولها البحث والتدقيق بصورة فنية لا نجلى عنها الغموض،وظهر ماتحتويه من أسرار عسكرية وتدبيرات فنية ، إن لم تكن تفوق أمثالها في تاريخ الأمم فلا تنقص عنها خبرةً وعلماً ودقة وخطورة ، وإن من قواد العرب من هم أطول باعاً وأسرع سباقاً في ميدان الفن العسكري من أمثالهم من الامم الاخرى .ومن هؤلاء القواد الذين أسسوا مجد العرب ، وخلدوا في التاريخ ذكراً لا

ينمحي على كر الدهور ، الصحابي الجليل خالد بن الوليد المخزومي فاتح الشام الحقيقي ، ومذل دولة الرومان فيها . وهو ينتمي الى قبيلة قريش ، وتعلمون أن قريشاً تتشعب الى بطون ، ولكن من انتهى اليه الشرف عشرة أبطن منها بنو مخزوم ، واليهم ينتسب خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وكان عزيزاً في الجاهلية كما كان عزيزاً في الاسلام وكانت له (القبة) ، أي كان أمين خزانة ما يجمع من التبرع ، وكانت قريش تضرب قبةً يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ، وكان هو الرقيب المحافظ عليها ، وكذلك كان من أمهر القواد في الجاهلية ، كما كان من أعظم رجال العسكرية تدبيراً بعد إسلامه ، فلقد كانت له في الجاهلية الأعنة ، أي إنه كان القائد الأعظم لفرسان قريش في جميع الحروب والغزوات ، وحارب في الاسلام تحت قيادة رسول الله ﷺ وأبدى من معجبات الحرب وخوارق البسالة مادعا الرسول عليه الصلاة والسلام الى أن يسميه سيف الله . ووسدت اليه في عهد الخليفة الاول قيادة جيش العراق ، وتولى أمر فتح هذا القطر في بَداءة الأمر ، ثم انتقل منه الى القطر الشامي ، يقود الجيش الاسلامي فيه ، ويُجلي الروم عنه ، ومحاضرتنا هذه تتناول أعمال ابن الوليد الحربية في الشام الى حرب اليرموك ، وتكشف عن الخطة المثلى التي سلكها في حركات الشام .

تمهيد

لا بد لنا قبل الشروع في شرح خطة خالد من أن نعرض مختصر الحوادث المتقدمة عليها ، ونبين الاوضاع الحربية التي اتخذها كلٌ من الفريقين المتحاربين في الديار الشامية ، قبل أن يوافيهـا خالد بن الوليد بفرقته من العراق ويشرف على ادارة الحرب فيها .

تبـدأ الحملات الحربيـة ألجدية التي وجهها الاسلام لفتح الشام والعراق في مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة النبوية ، في عهد الخليفـة الاول أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه فبعد أن أنهى هذا الخليفة العظيم حروب الردة وأعاد للاسلام شوكته ووطد ما كاد ينهار على أثر وفاة رسول الله ﷺ من دعائم نهضته ، أخذ يفكر بتنفيذ فكرة صاحب الرسالة ﷺ ، من نشر الدين الجديد ، وتوحيد كلمة العرب ، وإجلاء الاجانب عن ربوع الجزيرة العربيه ، وكانت الخطة الحربية التي اتخذها في بادىء الامر تنحصر في التعرض لدولة الفرس في العراق، ومهاجمة جيشها فيه . والاكتفاء أثناء ذلك بمراقبة الديار الشامية بفرق صغيرة ترابط على حدودها ، وبتعبير آخر كان من رأيه اختيارُ خطة الهجوم إزاء العراق ، وخطة الدفاع تجاه الشام ، وليس معنى ذلك أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه كان يفضل فتح العراق على فتح الشام، بل بالعكس كان يتطلع الى فتح الشام أكثر من غيره ويقدره حق

قدره ولقد قال : لفتح قرية في الشام أفضل عندي من فتح بلد في العراق ، غير أن المصاعب العظيمة التي كانت البعثات العسكرية السابقة تلاقيها أثناء حركاتها في أرض الشام ، وقوة الدفاع وشدة البأس اللتين يعترف بهما العرب لبني الأصفر (الرومان) ، واستلزام هذه الحروب معدات حربية زائدة وقوى فائقة . كل هذا كان من الأسباب التي حملت الخليفة المشار اليه على إيثاره فتح العراق وإحراز الظفر أولاً على دولة الفرس المجوسية التي كانت حينذاك أضعف شأناً وأقل مقاومة من دولة الرومان ، وبذلك يكون الجيش العربي قد غنم الكثير من المعدات الحربية وازداد بها قوةً واستعداداً ، وصار من السهل عليه مهاجمةُ الرومانيين وقتالهم في الشام . وتطبيقاً لهذه الخطة أرسل خالد بن الوليد للإستيلاء على العراق في الوقت الذي عقد فيه لخالد بن سعيد بن العاص لواءً على فرقة عسكرية وبعثه نحو الشام ، وأمره في بادىء الأمر أن لا يتخطى حدود تيماء [1] وأن يدعو من حوله من العرب للانضمام إليه ، وأن لا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمر آخر . هذه خلاصة الخطة الحربية الأولى والتي فكر بها الخليفه أبو بكر رضي الله عنه وشرع في تنفيذها ، ولندع الآن الحركات العسكرية التي قام بها خالد بن الوليد في العراق ولنتتبع الحركات التي

(١) تيماء هي الأرض الواقعة شرقاً لجنوب من تبوك

وقعت تجاه الشام ، مستعرضين التطورات التي طرأت على خطة الحرب الأصلية .

حركات فرقة خالد بن سعيد بن العاص

سار هذا القائد على رأس فرقته حتى بلغ تيماء ، فنزل بها وشرع في نشر الدعوة بين القبائل المجاورة ، وبث العيون والأرصاد نحو البلاد الشامية ، يستطلع أحوالها ويلتقط أخبارها ، سائراً على الخطة التي رسمها له الخليفة ، فبلغه في ما بلغه أن جيشاً رومانياً مؤلفاً من عدة فرق نظامية وقبائل عربية يقودها البطريق ماهان أو باهان « Le patrec Baânes » يتأهب للإغارة على فرقته . فكتب بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه يستأمره في ما يفعل ، فأمره بالزحف على هذا الجيش ومهاجمته إياه قبل أن يتم اجتماعه ويستكمل معداته ، على شرط أن يحافظ دائماً على خط رجعته ، وأن لا يتوغل كثيراً في حركات التقدم ، كيلا يجعل فرقته هدفاً لتطويق العدو إياها وقطع طريق الرجعة عليها ، فجاوز خالد بن سعيد بن العاص بفرقته تيماء مولياً وجهه شطر الشمال ، حتى نزل أرض الزيزاء والقسطل [1] فما إن شعر القائد الروماني باهان بتقدم الفرقة العربية نحوه حتى مشى

---

(١) الزَّيْزَاء تقع على بعد عشرين كيلومتراً من شرقي مأدبة ، والقسطل منها وكلتاهما اليوم مندثرة .

إليها بما اجتمع له من جيشه ، ووقعت بين الفريقين مصادمة عنيفة أبلى بها المجاهدون البلاء الحسن فشتتوا الجيش الروماني ومَنوه بالهزيمة الكاملة ، فكتب القائد خالد بن سعيد إلى الخليفة يبشره بالظفر ويستنجده ويستأذنه في متابعة التقدم في أرض الشام مطارداً قوى العدو المنهزمة أمامه ، فأذن له الخليفة وأمده بالرجال ، وكان فيهم من مشاهير الامراء ذو الكَلاع الحِميري وعِكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة بسراياهم . غير أن خالداً ما كاد يتلقى أمر الزحف وخبر إرسال النجدات من المدينة حتى تسرع بالتقدم من دون أن ينتظر قدوم النجدات اليه ، تدفعه لذلك نشوة الظفر الأول وسهولته ، ويستهويه أمل النصر بجنده وحده ، ومما زاد في اشتطاطه ودفع به الى ملاحقة الجيش الروماني حتى مرج الصُّفَّر [١] أن القائد الروماني لجأ تجاهه الى الخديعة فأظهر الكسر مكيدةً ، وأخذ ينسحب أمامه ويستدرجه رويداً رويداً الى الداخل ، وجازت هذه الحيلة الحربية على القائد العربي فنسي وصية الخليفة له بالمحافظة في تقدمه على خط رجعته وعدم تعريض فرقته لحركة تطويقية من قبل الخصم وما كادت هذه الفرقة العربية تجاوز البلقاء الى حوران حتى داهمتها قوة العدو من ورائها وجناحها (وهي على الأغلب القوة الرومانية الموجهة

---

(١) السهل الواقع جنوب نهر الأعوج من شمال أرض حوران .

من جهة فلسطين لمؤخرة الفرقة العربية) وفتكت بقسم عظيم منها ، وكان فيمن استشهد من رجالها نجل القائد نفسه ، ولو لم ينجدها الامير عكرمة أحد أمراء جيش النجدة في الوقت اللازم بسريته وينقذها من الخطر المداهم لأتى العدو عليها . وعندما يئس القائد خالد ابن سعيد من الظفر ترك عكرمة مع سريته ردءاً لفرقته (أي قوة احتياطية) ، وقفل راجعاً مع فرقته المغلوبة تلقاء المدينة حتى نزل ذا المَرْوَة . ولما بلغ خبر هذه الهزيمة الخليفة أبا بكر رضي الله عنه أمر بعزل القائد خالد بن سعيد وكتب اليه الكتاب الآتي :

« أقم مكانك فلعمري إنك مقدام محجام نجّاء من الغمرات ، لا تخوضها الى حق ولا تصبر عليه » .

ثم استخدمه كجندى عقاباً له على انهزامه ومنعه من دخول المدينة لكيلا ينتشر خبر تلك الهزيمة بين الناس فيؤثر على قواهم المعنوية ولم يدخل ذلك القائد المدينة إلا بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه في أول خلافة عمر رضي الله عنه ، وهكذا كان يعاقب القواد في صدر الاسلام على خطإهم في التدبير ومخالفتهم لما رُسم لهم .

ثم أعلن أبو بكر رضي الله عنه النفير العام في الحجاز ونجد واليمن ، وهيأ جيشاً عظيماً لغزو الشام ، ومما سهل له تنفيذ هذه الفكرة الاوضاع الحربية في العراق ، إذ كانت مساعدة جداً للجيش العربي ، وكان قائد

تلك الجبهة الامير خالد بن الوليد رضي الله عنه يتقدم فيها ظافراً، ويُنزل بجيش الفرس الهزيمة تلو الهزيمة، ولذلك أصبح في الامكان نقل بعض القوى من هذه الجبهة الى جبهة أخرى ، ومن أجل ذلك عزم الخليفة على نقل حركات التعرض الى جبهة الشام، وأخذ يبذل جهوده لحشد جيش عظيم في المدينة يبعثه إلى فتح الشام وما كادت هذه الخطة الجديدة تقرر ويعلن النفير العام في المدينة حتى شرعت جموع المجاهدين تتوافد إليها من كل صوب وحدب الى أن احتشدت في « الجرف » الواقع على مقربةٍ منها، وقد تألف من مجموع القبائل القادمة جيش عرمرمٌ ، فألف الخليفة منه في البدآءة ثلاث فرق ثم عززها برابعة. وكانت قوة كلٍّ من هذه الفرق تتراوح في أول الأمر بين الثلاثة آلاف وسبعة آلاف جلهم فرسان ، ويرأس هذه الفرق أمراء من خيرة القواد المحنكين الذين اختبروا الحروب ومارسوها ، وسبقت لهم فيها تجارب طويلة ، وإليك بيان قوات هذه الفرق وأسماء قوادها والأهداف الحربية المعينة لها :

الفرقة الأولى : قوتها من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ مجاهد ؛ قائدها الأمير يزيد بن أبي سفيان ، خط حركتها أي (طريق مسيرها) : المدينة تبوك ـ البلقآء ، هدفها الأخير مدينة دمشق .

الفرقة الثانية قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد ؛ قائدها الأمير شُرَحبيل بن حسنة ، خط حركتها : المدينة — تبوك — الأرْدُنّ ، هدفها الأخير بُصرى عاصمة حوران .

الفرقة الثالثة : قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد أيضاً ، قائدها أبو عبيدة بن الجراح ، خط حركتها : المدينة — تبوك — البلقاء ، هدفها الأخير مدينة حمص .

الفرقة الرابعة : قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد ؛ قائدها عمرو ابن العاص ، خط حركتها : المدينة ـ الوجه ـ العقبة (أيلة) « Aila » وتسمى هذه الطريق في ذلك العهد « المعرّقة » وهدف هذه الفرقة الأخير فلسطين .

وتألفت ما عدا هذه الفرق فرقة احتياطية بقيادة الأمير عكرمة سيقت من وراء الجيش لتكون ردءاً له (أي إحتياطاً عامّاً) ، وكلما توارد المجاهدون على المدينة أرسلهم الخليفة تقوية لهذا الجيش ، حتى بلغ رجاله أربعين ألفاً في حرب اليرموك الشهيرة .

حركات هذه الفرق :

غادرت الفرقة الأولى من هذا الجيش المدينة في أواخر العام الثاني عشر للهجرة (٦٣٤م) ثم تبعتها الفرق الأخرى ، ولم يطلع العام الثالث عشر إلا ومعظم وحدات هذا الجيش قد جاوزت الحدود

الحجازية إلى بقاع الشام ، فأخذت تتقدم فيها رويداً رويداً ، ولم يكن
لهذا الجيش في البداءة قائد عام يناط به توحيد القيادة وتنظيم
الحركات العامة ، فكل فرقة منه كانت مستقلةً عن الأخرى تعمل
وحدها ضمن المنطقة المخصصة لها . وما كان ليغرب عن ذهن
الخليفة ملافاة المحذور الناشيء عن عدم تسمية قائد عام لمجموع الجيش
لذلك جعلهم مكلفين بنجدة بعضهم بعضاً عند مسيس الحاجة وإن كانوا
مستقلين بحركاتهم ضمن مناطقهم ، فإذا اجتمع فرقتان أو أكثر
لهذه الغاية في منطقة واحدة ، فالأمير عليهم جميعاً قائد تلك المنطقة التي
يقع فيها الاجتماع ، فاذا فكر الانسان في ترتيب هذا الجيش وانقسامه
على الصورة المار ذكرها يتضح له أن الخطة الحربية التي كان العرب
يسيرون عليها حتى تلك الساعة في غزو الشام ومحاربة الجيش الروماني،
والتي كانت عبارة عن إرسال جيش صغير يجاوز الحدود الحجازية ،
وينازل الخصم والقبائل الموالية له حيثما وجدهم ، ثم يقفل راجعاً ببعض
الغنائم ، قد طرأ عليها شيء مهم من التبديل والتعديل ، ذلك لأن
التجارب السابقة علمت مجاهدي العرب : أولاً أنه لا قبل لجيش
صغير تنقصه المعدات الحربية الموجودة بكثرة في جيش خصمه بمنازلة
هذا الجيش مجتمعاً وجهاً لوجه ، لا سيما إذا كان هذا الخصم فائقاً عليه
بالعدد والعُدد وهو يحارب في قلب بلاده ، وعلى مقربة من قواعد

تموينه وتجهيزه ، على خلاف ما هو عليه ذاك الجيش الصغير جيش العرب من بعد الديار وبطء النجدات ، وخصومة أهل البلاد ، على مثال ما وقع لجيش زيد بن حارثة رضي الله عنه في موقعة (مُؤتة) ، ولجيش خالد بن سعيد بن العاص في محاربة (مرج الصُّفَّر) ، وكانت نتيجتهما انهزام الجيش العربي .

وعلمتهم ثانياً أن من الصعوبة بمكان عظيم سوق جيش كبير من طريق واحدة طويلة تمر في بادية قاحلة حارة . لا يجد فيها هذا الجيش ما يسد عوزه من القوت والماء والذخيرة ، لا سيما في طريق تقطن حواليها قبائل مخاصمة تهاجم قوافله ، وتهدد دائماً أجنحته وخطوط رجعته ، وهكذا كان شأن الجيش الكبير جيش العسرة الذي قاده رسول الله ﷺ بنفسه ، فانه ما كاد يبلغ موقع تبوك حتى نهكت قواه من طول الطريق وبعد الشقة وقلة الميرة ، واضطر الى الرجوع دون أن يدرك الغاية الأساسية من سفره ، قانعاً بمعاهدة موقتة ما عتَّم الطرف الروماني أن عبث بأحكامها .

وعلمتهم ثالثاً أن الهزيمة التي مُنيت بها فرقة خالد بن سعيد في حوران ترجع أسبابها خاصة إلى الحركة الالتفافية الموجهة لمؤخرة الفرقة العربية وجناحها من قِبَل قوات العدو الزاحفة من جهة فلسطين ، لذلك قد رؤي من الضرورة الحربية أن لا يتوغل الجيش العربي في

أرض البلقاء وحوران دون أن تُشْغَلَ القوى الرومانية المرابطة في فلسطين بقوة مخصوصة تهاجم هذا القطر في الوقت نفسه ، وبناءً على هذه الملاحظة المهمة عهد الخليفة إلى فرقة عمرو بن العاص رضي الله عنه بمهمة إشغال فلسطين وتهديدها . واعتباراً بما تقدم قسم الخليفة جيشه على المنوال السالف الذكر ، أي قسمه فرقاً صغيرة وسيرها من طرق مختلفة، والفرق التي كانت تسير على طريق واحدة فصل بينها بأيام ، وهكذا وجهها إلى فتح الشام مكتفياً بإعطائها موجّهات عامة وأهدافاً نهائية ، وهذه الأهداف هي كما ذكرنا : دمشق ، حمص ، بصرى ، فلسطين ، فتعيين الخليفة لهذه الأهداف البعيدة يدلنا على أنه ترك كل شيء لابتداع القواد الذاتي واستقلالهم الشخصي ، ولا شك في أن بعد المسافة وفقدان وسائل الأخبار السريعة في ذلك العهد كانا من الأسباب الباعثة على اكتفاء الخليفة بأوامر عامة تعرب عن الأهداف القصوى ، دون أن يحدد لها زمن التنفيذ ووجه العمل ، ولولا ذلك لكان من الخطإ في أمر سوق الجيش أن يعين الخليفة وهو في مقام قائد عام ، لجيشه أهدافاً نهائية قبل حدوث المعركة الفاصلة الأولى التي لابد من وقوعها بين جيشه المهاجم وجيش خصمه المهاجَم ، والتي لا يفيد من دونها مطلقاً احتلال المدن والاستيلاء عليها ، ولذلك كان من الأصول الحربية المتبعة حتى اليوم

أن جميع حركات السوق الجيشية والترتيبات الحربية الأولية تجعل غرضها الأول المعركة الكبرى التي على نتائجها وحدها يتوقف تعيين الأهداف التالية والتدابير المقبلة، وقد وقع الجيش العربي في مثل هذا الخطإ قبل ذلك، فإنه استولى على أكثر العواصم الشامية من دون أن ينازل في البدآءة مجموع الجيش الروماني المدافع عنها، فيقهره في ميدان الحرب ويبطل مقاومته، ثم يمد يده للمدن فيحتلها الواحدة بعد الأخرى فيكون احتلاله إياها سهل المنال مضمون العاقبة، ولقد ورّط الجيش العربي في هذا الخطإ ما كان من أمر الجيش الرومي، إذ أنه لم يدخل في معركة فاصلة مع الجيش العربي على حدود البلاد السورية كما كان ينتظر منه، بل ترك محافظة الحدود إلى الحاميات (المسالح) الموجودة فيها، تعاونها القبائل العربية الموالية للرومانيين، وأخذ هو يحتشد في أنطاكية عاصمة الشام يومئذ، حيث اشتغل بتقوية نفسه واستكمال معدات هجومه، فكان من الأسباب التي ساقت الفرق العربية إلى احتلال المدن قبل التغلب على جيش الخصم، ولكن عندما شرع الجيش الروماني بحركاته الحربية إثر إتمام استحضاراته، اضطرت هذه الفرق إلى إخلاء ما احتلته من الأماكن بسرعة، منسحبة إلى الجنوب، لتستجمع قواها، وتستعد لمقابلة خصمها.

وهذه التجربة أكدت للجيش العربي أن الهدف الأساسي في الحرب هو جيش العدو لا عواصم بلاده .

حركات الفرق الأربع

ولنعد الآن إلى ذكر حركة كلٍّ من الفرق الأربع التي كان يتألف من مجموعها الجيش العربي المهاجم للديار الشامية . اجتازت الفرقة الأولى من هذا الجيش الحدود الحجازية في أواخر العام الثاني عشر للهجرة (٦٣٤م) ، ودخلت أرض الشام مكتسحة أرض قوى الحدود الرومانية التي زاد في عددها الخصم منذ موقعة مُؤتة الأولى ، وكانت تسلك هذه الفرقة الطريق الواقعة شرقيّ وادي العربة ، فعلمت أثناء مسيرها بوجود فرقة رومانية في جنوب فلسطين على مقربة من وادي العربة تقدر قوتها بثلاثة آلاف فارس ، يقودها سرجيوس قائد منطقة غزة. وبما أن الفرقة العربية المخصصة لجبهة فلسطين لم تبلغ بعدهذا القطر فقد قرر قائد الفرقة الأولى يزيد بن أبي سفيان مهاجمة الفرقة الرومانية خوفاً من قطعها خط رجعته فيما إذا ثابر على التقدم نحو دمشق ، وتأخرت فرقة ابن العاص عن وصولها لفلسطين ورأى أن يشغل قوة الخصم المذكورة ، فرتب رتلاً بقيادة أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه لمهاجمة هذه الفرقة الرومانية التي زحفت أيضاً نحو هذا الرتل ، فتلاقى

الفريقان في محل يقال له العربة[1] فدارت بينهما معركة دامية كان النصر فيها حليف أبي أمامة ، وانهزمت الفرقة الرومانية باستقامة غزة، فطاردتها فرسان الفرقة العربية حتى لحقت بها بقرية داثن[2] Dathema او Dathesmos حيث أبادتها كلها ، ولما أتم رتل أبي أمامة مهمته غادر فلسطين لاحقاً فرقته في شرقي وادي العربة وكانت وقعة داثن في شهر ذي الحجة سنة ١٢ هجرية (شباط سنة ٦٣٤م) .

أما الفرقتان الثانية والثالثة فقد كانتا في هذه الاثناء تتقدمان من الجناح الأيمن للفرقة الاولى، فصادفت فرقة أبي عبيدة السالكة طريق الشوبك — الطفيلة قوةً للعدو في بلدة مآب فهاجمتها وهزمتها ، فصالحها أهل البلدة ولم تلق هاتان الفرقتان مقاومة أخرى حتى نزلتا أرض حوران .

وأما الفرقة الرابعة التي زحفت عن طريق الساحل الى العقبة . ومنها عن طريق وادي العربة الى جنوب فلسطين فقد بلغت أرض الداروم[3] من دون أن تصادف أية مقاومة جدية من قبل العدو ،

---

(١) العربة وإن اختلف المؤرخون كثيراً في تعيين موقعها الصحيح فهي على أغلب الروايات وأصحها محل يقع بوادي العربة وفي منتصف المسافة بين موقع العقبة والساحل الجنوبي لبحر الميت ونرى في خريطة Baedeker اسم عين غمر في هذا المحل وهو ما يطابق أيضاً ما رواه البلاذري والمقدسي في هذا الصدد.

(٢) داثن : قرية مندثرة تبعد عن غزة ١٢ ميلاً .

(٣) الداروم جنوب فلسطين وغربي بحر الميت .

وذلك لأن ظفر أبي أمامة الباهلي على القوى الرومانيه الموكول اليها محافظة الحدود الفلسطينية مهد السبيل لتقدم هذه الفرقة من غير صعوبة ما ، فأخذت هذه تنوغل في الارض الفلسطينية وتقوم بحرب الازعاج والعصابات فيها على شكل الفرق الاخرى المتوغلة في أرض الشام ، واستمرت فرق الجيش العربي مدةً غير قصيرة تعمل متفرقة وفي مناطق واسعة بعيد بعضها عن بعض ، وتزعج الجيش الروماني ولا تصطدم إلا مع قواته المنفردة فتغنم سلاحها ومعداتها ، وكانت لاتهاجم قوات الجيش الروماني الكبيرة إلا نادراً حيث تجد الفرصة سانحة ، مع عنايتها كل العناية بالمحافظة على خطوط رجعتها ، كيلا تعرض نفسها للاحاطة والتطويق ، وهذه الطريقة من أصول الحرب التي اتخذها العرب في مطلع نهضتهم ضد خصومهم الروم والفرس ، والتي سار عليها من بعدهم غيرهم من الشعوب الضعيفة تجاه الأمم القوية المتغلبة على بلادهم ، المغتصبة حريتهم واستقلالهم ، كانت ولم تزل — مع بعض التعديل بخطة المقاومة وطرز تنظيمها — من أهم الوسائل الآيلة الى إضعاف قوى المسيطرين وإرهاقها ، وإحلال شعور اليأس والقنوط في قلوب قادة جيوشهم وجنودهم ، وفي التاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة على نجاح تلك الخطة مهما طال أمد تطبيقها ، وإذا ما كتب لها الفشل والخذلان في حالةٍ من الاحوال وبيئة من البيئات فإنما كان

ذلك لوهن طرأ على عزائم القائمين بها فثبط من هممهم ، أو نقص ظهر في شعور التضحية الوطنية فدفع بهم الى ظلمة اليأس والقنوط ، ومن المعلوم أن استقلال الشعوب البلقانية في الزمن الاخير كان مديوناً للجهود الجبارة التي بذلتها تلك الشعوب في تأليف العصابات القومية وتقويتها بالمال والعتاد .

إن هذا النوع من الحروب الذي يسميه العرب حرب الاجهاد والانهاك (Guerre d'usure) لجأ اليه العرب أوائل فتح الشام والعراق ، واستعملوه مع كثير من الحكمة والسياسة من دون إرهاق أبناء جنسهم أهل البلاد وترويعهم وإيصال الأذى اليهم ، فكانوا إذا أجهزوا على قوى العدو يجاملون السكان ويسايرون عواطفهم ، فيستميلونهم ويتخذونهم عوناً لهم في نيل مآربهم ، حتى إن كثيراً منهم كان يتطوع لخدمتهم ، فيتجسس لهم على الجيش الروماني ، ويطلعهم على عوراته ومناحي الضعف فيه ، وشارك اليهود عرب النصارى بذلك . فكانوا جميعاً يداً واحدةً في مساعدة جيش المجاهدين على خصمه الجيش الروماني ، ولا ريب في أن سياسة الاضطهاد والظلم التي يتبعها المستعمر في حكم الشعوب الضعيفة تؤول الى مثل هذه النتيجة من الضغينة ، وتجعل تلك الشعوب تتحين الفرص للتأهب عليه والانقلاب ضده ، ولقد أيقن عرب الشام بعد ما شهدوه من

صدق العزيمة وعظم التضحية في جيش المجاهدين بنجاح تضحيتهم وبفوزهم على الرومان في نهاية الامر، وكان من نتيجة ذلك أن دبّ الخوف والذعر في قلوب متطوعة العرب في الجيش الروماني، فضعفت مقاومتهم أزاء المجاهدين، ومالأهم منهم قسم غير قليل، حتى إنك لتجد أكثر مؤرخي الروم يعزون هزيمة جيشهم - وإن كان ذلك غير صحيح - الى خيانة الجند العربي المستخدم فيه.

استمر الجيش العربي مدةً طويلة يعمل متفرقا، ويقوم بحرب الازعاج والمطاولة، ولقد تكللت أعماله هذه بكثير من النجاح غير المأمول، حتى إن فرقةً منه هي فرقة يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه وُفّقت للوصول إلى ضواحي دمشق. وضربت نطاقاً عسكرياً حولها، ومنعت القوى الرومانية التي فيها من الاتصال بأنطاكية عاصمة البلاد الشامية إذ ذاك، كما أن فرقة أبي عبيدة رضي الله عنه تمكنت من الدخول الى مدينة حمص، وأجلت الحامية الرومانية عنها وأقامت الحكم العربي فيها مدة، غير أن هذا الاستيلاء السريع لم يدم طويلاً، لأن الجيش الروماني لم يدخل في المعركة الحاسمة ولم يُغلب بعد، والكافل الوحيد بفتح البلاد كما قدمنا هو الظفر على جيش العدو وإجلاؤه لا الاستيلاء على مدنه وعواصمه. وكان الاجدر بالجيش العربي بدلاً من أن يتوغل في البلاد ويشغل قواه في الاستيلاء على المدن والقرى أن

يقصد بادىء ذي بدء الى الجيش الروماني فيوقع به ويبطل مقاومتـه ، وعندها تستسلم المدن اليه بطبيعة الحال من دون كبير عناء ، غير أن تراجع الجيش الروماني وتحصنه مدة طويلة في أنطاكيه جعل الجيش العربي يحول اهتمامه الي فتح المدن والاستيلاء على مواقع العدو المخلاة ويؤسس حكمه العادل فيها كما سبق ذكره .

ومن الاسباب التي دعت الرومانيين لاختيار خُطة التراجع أولاً : أن جيش الروم المرابط في الشام لم يكن مستعداً كل الاستعداد لمقابلة الجيش العربي على الحدود الحجازية بقوى فائقة ، وأنه لم يكن في قدرته أن يلقي عليه درساً قاسياً في الحروب النظامية التي لاقبَل بعدُ للعرب بتحمل وطأتها ، وأن الرومانيين كانوا لاينظرون الى الاستيلاء العربي نظرة اكتراث ، بل كانوا يحسبونها غزوات فجائية وقتية تنتهي وتزول بعد الحصول على شيء من الغنيمة العاجلة ، شأنها في سابق الأزمان ، لذلك فضلوا التراجع من أمام الفرق العربية وفسحوا لها المجال للتوغل داخل البلاد ، إذ كانوا يظنون أنهم إذا تداركوا أمرهم واستجمعوا قواهم داهموها متفرقةً وأبادوها ، ونزعوا من أفكار العرب فكرة التحرش ببني الأصفر ، وكانوا يتوخون أيضاً من وراء هـذه الخُطة ترك أهل الشام مدة وحدهم تجاه الجيش العربي ليجوس خلال ديارهم فيستلب أموالهم ، وبذلك ينفرونهم من العرب المسلمين ،

ويبغضونهم في الاتحاد معهم، فضلاً عن أنهم سيجعلونهم يعترفون بفضل الاحتلال الروماني وبالطمأنينة التي ينعمون بها في ظله، فيبقون رازحين تحت شعور الاعتراف بالجميل له، ويقوى ارتباطهم وتعلقهم بحكمه مهما كان قاسياً جائراً. لكن قد خاب ما أمله الرومانيون من هذه الناحية، إذ اتضح لعرب الشام أن الجيش العربي الفاتح لم يكن جيش سلب ونهب، بل كان يرمي في مهاجمة الشام الى هدف سامٍ وغاية شريفة، وكان يحمل لأهل البلاد بشرى انقاذهم ورمز وحدتهم، وكانت قواده وجنوده مثالاً عالياً في كرامة النفس وشرف الخلق وحسن السيرة، ولكم ندم الرومانيون على تركهم المجال واسعاً أمام الجيش العربي الذي وفق بحسن معاملته وبالغ عدله أن يستميل أهل البلاد الى قضيته وأن يحببهم حكمه، وأن يجعلهم يؤثرونه على الحكم الروماني ويتعلقون به، وما كان أشدّ تأثر أهل حمص وأسفهم عندما علموا بعزم القائد العربي على ترك مدينتهم والجلاء عنها، قصد الالتحاق بالجيش العربي المجتمع باليرموك، وكيف لا يأسفون على ذلك الحكم العادل وقد ردّ لهم حاكم مدينتهم العربي قبل الذهاب ما كان قد أخذه منهم باسم الجزية قائلاً لهم: يا أهل حمص « قد شُغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم » ولقد أجابه أهل حمص: « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغَشْم، ولندفعن جند

ظهر قل عن المدينة مع عاملكم» وكذلك فعل سائر أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : « إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد » .

لقد كان من العادة في الحروب القديمة ، ولم يزل مع الأسف في الحروب الأخيرة أيضاً ، أن الجيش المتراجع من بلاد خصمه يخرب كل ما فيها من وسائل الدفاع الثابتة ، وينقل ما استطاع من الوسائل المتحركة القابلة للنقل ، ويصادر المأكولات والملبوسات على الإطلاق ، ويتلف كل مالا يستطيع نقله ، وتعلمون أن الجيش الروسي في حروبه مع نابليون الأول كان يُحرق حتى عواصم بلاده كي يمنع خصمه من الاستفادة منها . فإذا قارنا بين هذه الأفعال التي ترتكبها الجيوش المتراجعة ، حتى جيوش القرن العشرين بكل شدة وقسوة ، وبين عمل القائد العربي في القرن السابع ، الذي أعاد لأهل حمص ما أخذه منهم باسم الجزية طيبةً به نفسه — مع حاجته وبعد بلاده — لأنه يعد ذلك لقاء الدفاع عنهم وهو غير قادر على حمايتهم لأنه مضطر إلى مغادرة بلدهم ، نقول : إذا نحن قارنا بين الأمرين رأينا الفرق الظاهر بين الحضارتين مما جعل منصفي الغرب أنفسهم بل أعظم أدبائهم وكتابهم يعترفون بعدل العرب الفاتحين وجعل فيلسوفهم الكبير غوستاف لوبون يقول تلك الكلمة المشهورة « لم يشهد التاريخ فاتحاً أرحم من العرب» .

على أن المصادرات الخاصة والعامة التي كانت مباحة في القرون السابقه، والتي لم يبق لها اليوم من مبرر لتعدد الوسائل النقلية وسرعتها، وإمكان تموين الجيش المحتل من نفس بلاده بكل سهولة، ارتكبت مراراً وتكررت كثيراً في حروب القرون الأخيرة، حتى في الحرب العامة، وكان أبطالها مع الأسف من أعظم دول العالم مدنية ورقياً.

زحف الجيش الروماني من انطاكية الى حمص فدمشق فاليرموك

لما كان الجيش العربي يتوغل في البلاد الشامية ويستولي على عواصمها كان الجيش الروماني يتجمع في أنطاكية تحت حماية حصون هذه العاصمة وقلاعها، وتأتيه النجدات من أطراف المملكة البيزنطية، وخاصةً من بلاد الأناضول منبع القوات البيزنطية ومبعثها، وموطن الشعب الأرمني المناصر للرومانيين ومسندهم في حروبهم مع الفرس والعرب منذ القديم؛ إلى أن بلغ ما احتشد من الجيش في انطاكية ما يربو على مائتي ألف مقاتل، هذا ما عدا الجيش الثاني الذي حشدوه في فلسطين تجاه فرقة عمرو بن العاص، وما كاد الجيش الروماني يتم اجتماعه ويستكمل معداته حتى زحفت طلائعه شطر مدينة حمص، فدخلتها عنوةً بعد أن أخلاها العرب، وانتقمت من أهلها شر انتقام، وكانت الخُطة الحربية التي اعتزم الجيش الروماني تطبيقها: مهاجمة الفرق العربية على انفراد وابادتها الواحدة بعد الأخرى، مستفيداً من

تفرقها وبعد المسافات التي تفصل بينها ، فلا تستطيع معها التآزر في الوقت المطلوب ، وإنها لخطة ناجحة هذه التي نوى انتهاجها القائد الروماني ، وكانت لابد أن توقع في الجيش العربي شر مصيبة لو لم ينتبه لها قواد الفرق العربية ، فانهم فكروا بالخطة التي يجب اتباعها ، وتراسلوا يستشير بعضهم بعضاً فكان الرأي الراجح رأي عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كتب اليهم أن الرأي لمثلنا الاجتماع ، فاننا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلة ، وإن تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا .

وعملاً بهذا الرأي أخذ قواد فرق الجيش العربي يخلون الأماكن التي كانوا احتلوها قبل أن يداهمهم جيش العدو ، وقفلوا راجعين الى الجنوب حيث بدأوا يجمعون قواهم المتفرقة ويلمون اشتاتهم ، وينتظرون نجداتهم ، وكانت المنطقة التي قرروا الانسحاب اليها والتجمع فيها جوار بصرى عاصمة حوران ، فبلغتها الفرق الثلاث بكل انتظام ، ودون أن تمكن الجيش الروماني من تعويق حركاتها ، وإلحاق الأذى بأقل قطعة من وحداتها .

وأما الفرقة الرابعة فقد انسحبت الى غور فلسطين على أثر ورود النجدات الكبيرة الى الجيش الروماني المقابل لها ، والذي أخذ يهددها في أواسط فلسطين ، وكان موقف الجيش العربي آنئذٍ من أشد

المواقف خطراً وأحرجها : جيش روماني عظيم يهدده من الشمال من جهة دمشق ، وآخر يقصد جناحه الأيسر من ناحية فلسطين ، وبينه وبين الحجاز منبع نجداته ومدخر مؤونته مسافات شاسعة ، تقطنها قبائل بدوية لا يركن الى موالاتها ، ففي مثل هذا الظرف الحرج والموقف الخطير لا يمكن أن يتخذ قرار أصوب من الذي اتفق عليه قواد الفرق في الجيش العربي ، لأننا إذا دققنا النظر في أوضاع الجيش العربي حينذاك نراه منتشراً في ضواحي الشام على جبهة طويلة تكاد تزيد على مائتي كيلومتر ، وكل فرقة منه تعمل لنفسها دون أن توحد حركاتها مع الفرقة المجاورة لها ، وليس لهذه الفرق المختلفة قائدٌ عام يدير حركاتها، وينظم شؤون اتصالاتها ، فلو وُفق الجيش الروماني تجاه هذه الفرق لتطبيق خطة الهجوم الداخلية التي حاول اتخاذها لاستطاع بسهولة تمزيق وحدة الجيش العربي وإبادته فرقةً بعد فرقة ، ولما مكنه قط من الاجتماع ولكن حركة كهذه يقتضي لها جيش سريع الحركة وقائد محنك جريء ، وأن يقابل ذلك في الجيش المخاصم بطء في الحركة ،ووهن في القيادة .

فأما الجيش الروماني في ذلك العهد فقد كان بطيء الحركة، كثير الاحمال والاثقال ، وهو أصلح الى الدفاع منه الى التعرض والهجوم ، وكان من عادته مع العرب أن يؤثر الحرب داخل ممتلكاته ، وبالقرب

من قواعد تموينه وتجهيزه ، ليهون عليه الفتك بهم بعيدين عن عواصم بلادهم ، وأن يتجنب الحروب في الصحاري القاحلة التي لا قبل لجنده بتحمل حرها وسلوك سبلها . ولذلك لم نره إبان حروب الفتح جاوز ولو مرة واحدة حدود الحجاز وأوغل في أرضها ، أو تأثر السرايا التي كانت تزعج بغاراتها المتكررة الحدود وتباغت حماتها . ومن يلاحظ حالة الجيش العربي من هـذه الناحيـة في ذلك القرن يره على نقيض الجيش الروماني ، سريع الحركة ، خفيف الأثقال ، يكاد لا يملك من وسائل النقل شيئاً مذكوراً ، فهو يكتفي بالشيء القليل من أسباب المعيشة . ينتقل بسرعة البرق من ساحة الى أخرى ، هيّن عليه شد الرحال من الحجاز الى الشام ، والانتقال ما بين جهتي الشام والعراق ، فهذه المزايا الاساسية مضافاً اليها ما تجيش به صدور المجاهدين من شعور التضحية ، كانت في الواقع سر انتصار العرب على جيشين عريقين في ممارسة الحروب والتضلع بدقيق فنونها ، كالجيش الروماني والجيش الفارسي ، ولنعد الى سرد الوقائع :

كتب أبو عبيدة رضي الله عنه بقرار قواد الفرق المار ذكره الى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه فوافق عليه ورأى من اللازم اللازب أن ينجد الجيش الشامي بفرقة من الجيش العراقي ، فكتب الى خالد ابن الوليـد يأمره بالمسير الى الشام وقلده القيادة العامـة لذلك الجيش

وكُتب الى أبي عبيدة يخبره بذلك وهذا نص الكتاب :

قد وليت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه ، ولكنني ظننت أن له فطنةً في الحرب ليست لك. أراد الله تعالى بنا وبك خيراً والسلام.

وهذا نص كتاب القائد خالد بن الوليد الذي أرسله من العراق الى أبي عبيدة في الشام بعد وصول أمر الخليفة اليه :

أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالسير الى الشام ، وبالقيام على جندها ، والتولي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغني عن رأيك .

مسير خالد بن الوليد الى الشام

كان القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه يقود حركات الجيش العربي في جبهة العراق حينما تلقى الأمر بخروجه بشطر من الجيش إلى الشام ، وبترك قيادة الشطر الثاني إلى القائد المثنى بن حارثة الشيباني الذي عهد إليه بعده بإدارة الحركات العسكرية في جبهة العراق .
لم يرق خالد بن الوليد هـذا النقل المفاجيء ، وكان يفضل أن يبقى في العراق ليتم فتحه ، غير أنه كجندي مطيع امتثل الأمر فوراً وغادر

ساحة العراق بفرقته البالغة نحو عشرة آلاف من الفرسان ، اختارهم من نخبة جيش العراق ، ومن المجاهدين الأبرار الذين صحبوا رسول الله ﷺ في غزواته ، وشاركوا ابن الوليد في حروب الردة وأبلوا البلاء الحسن .

سارت هذه الفرقة من الحيرة في أول شهر صفر سنة ١٣هـ ومرت بعين التمر فلما بلغت قُراقر ، أخذ القائد يفكر في الطريق التي توصله بأسرع ما يمكن إلى بلاد الشام فكر رضي الله عنه مليًا في قضية الطريق وتساءل كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين فاستشار أصحابه في سلوك طريق : قُراقر — سُوى — أرَك — تدمر ، فأبوا أن يوافقوه عليه ، لأن المسافة بين قُراقر وسُوى شاسعة تبلغ خمس ليال ، وهي خالية من الماء ، وأن من الصعوبة بمكان اجتيازها حتى على الراكب الفرد ، فكيف بفرقة خيالة كبيرة يعوزها كثير من الماء ، ونصحوا له كثيراً بأن لا يعرض فرقته ونفسه للخطر الأكيد باقتحامها .

هنا في هذا الموقف الخطير تظهر جلياً قوة إرادة القائد العظيم ومَضاء عزيمته وتقديرُه الأوضاع الحربية حق التقدير ، تلك الأوضاع التي لا تسمح بالتردد قط في أمر اختيار الطريق القصيرة الموصلة للهدف المطلوب ، فوقف بين جنوده خطيباً مشجعاً ، ومما قاله لهم :

لا يخلفنَّ هديكم، ولا يضعفنَّ يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجرَ على قدر الحسبة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله تعالى له، والله إنْ لي بد من هذا، إنه قد أتتني من أمير المؤمنين عزمة بذلك. فما كان منهم عندئذ إلا أن أجابوه مطيعين قائلين: أنت رجل قد جمع الله لك الخير. فشأنَك.
فأخذ يفكر في نقل الماء الضروري لفرقته، فلم يكتف بما حمل من الماء الكثير، بل عمد إلى تدبير آخر لم يَرْوِ لنا تاريخ الحرب مثله قط، وهو أنه عطّش قسماً كافياً من الرواحل حتى أجهدها العطش، ثم سقاها فأرواها حتى الشفة، ثم قطع مشافرها و كعمها لئلا تجترَّ وإيضاح ذلك أنه حمل الرواحل من الماء ظهراً وبطناً. ثم شرع في المسير في البادية ولم يكن في رجاله من يعرف الطريق سوى رجل يدعى رافع ابن عَميرة، وكان قد مرَّ مع والده من هذا الطريق قبل ذلك بثلاثين عاماً وهو غلام، فاكتفى القائد به على بُعد عهده بمعرفة الطريق، وكان يأتمَ بكوكب الصبح، جاعلاً إياه على حاجبه الأيمن، سائراً على هذا الشكل غرباً اشمال، يمكث في النهار ويسري في الليل، ويكتفي بالشيء اليسير من الماء، يسقي الجند من المحمول على ظهور الرواحل وينحر قسماً فقسماً من تلك الرواحل ويخرج ما في بطونها من الماء فيمزجه بألبانها ويسقي منه الخيل، حتى بلغ مع فجر اليوم

الخامس موقع سُوى، والظمأ يكاد يفتك بفرقته فتكاً، وخشي أن يفضحهم حر الشمس ويدركهم عندها الهلك، فنادى خالد رافعاً دليله ما عندك؟ فقال: خير أدركتم الريّ وأنتم على الماء، وشجعهم وهو متحير أرمد وقال: أيها الناس انظروا علمين كأنهما ثديان فأتوا عليهما. ولما بلغوا المكان الذي عرّفه لهم الدليل أخذوا يفتشون عن شجره كان شاهدها فوق الماء، فما عثروا لها على أثر، واستولى عليهم اليأس فأخذوا ينبشون التراب هنا وهناك، حتى ظفروا بعد جهد جهيد بجِذمْ (أصل) شجرة زائلة، فحفروا تحتها فظهر لهم الماء المنشود، فارتووا منه فقال بعضهم شعرائهم:

لله عينا رافعٍ أنّى اهتدى   فوّز من قُراقرٍ إلى سُوى

خمساً إذا ما سارها الجيش بكى   ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرى

ثم غادروا سُوى إلى مُصَيَّخ بَهراء فقابلهم أهلها بالاعتداء، فهاجموهم وهزموهم، وبعد أن امتاروا من الغنائم التي أخذوها من هذه القبيلة توجهوا الى أرَك فصالحهم أهلها، فتركوها الى تدمر حيث اشتبكوا مع حاميتها وأهلها بقتال عنيف اضطروهم به الى المصالحة وتأدية الجزية لهم، ومنها توجه القائد الكبير بفرقته الى القريتين، فوقف في وجهه سكانها، فشنّ الغارة عليهم وهزمهم. ثم أتى حُوّارين[1] وكان شأنه مع أهلها شأنه مع أهل القريتين، وتابع مسيره نحو

(١) حوّارين تبعد ثلاث ساعات عن القريتين وهي محل إقامة يزيد الأول.

الجنوب ، حتى قرب من ضواحي دمشق ، وعندما بلغ موقع الثنية وقف على هضابها حيث أطل على غوطة دمشق ، وركز عليها راية رسول الله ﷺ وتسمى العُقاب مستبشراً بفتحها القريب . وبعد أن استراح هنيهةً في الثنية استأنف المسير حتى بلغ مرج راهط[1] فشاهد بالقرب من ذلك المرج معسكراً لبني غسان عليه الحارث بن الأيهم يعمد لفرقته ليقطع الطريق عليها ، ويمنعها من الالتحاق بالجيش العربي المنسحب الى الجنوب ، فما كان لابن الوليد بدٌّ من مهاجمة ذلك المعسكر ، ليفتح طريقاً لفرقته نحو حوران ، فأغار عليه ، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من صفر سنة ١٣هـ الموافق لـ ٢٤ نيسان سنة ٦٣٤م يوم عيد الفصح عند آل غسان ، وكانت النتيجة أنه تغلب على قوى الغسانيين المتجمعة ، وشتت شملها ، وغنم معداتها ، وأكرهها على التقهقر نحو دمشق تحتمي بقلعتها ، دون أن تجرؤ على ملاحقته من خلفه ، وتعويق سير فرقته ، فسار آمناً مطمئناً حتى بلغ أرض حوران، حيث التقى بفرق الجيش العربي على قناة بُصرى . وكانت بصرى في ذلك العهد مدينة محصنة تحميها قوة من الرومانيين والغسانيين . فهاجمها الجيش العربي تحت قيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وفتحها ، وضرب على أهلها الجزية، وهي أولى المدن التي فتحها ابن الوليد بالشام ،

(١) مرج راهط هو المرج الواقع بين عذراء والهيجانة .

ثم سار بجيشه نحو وادي اليرموك ، حيث أتم حشده وأكمل معداته واتصل من هنالك بفرقة فلسطين .

وقبل أن نذكر المواقع الحربية التي خاض غمارها الجيش العربي بعد تجمعه وراء وادي اليرموك ، نرى من المناسب القاء نظرة تحليلية حول تلك الأعمال التي قام بها القائد الكبير خالد بن الوليد رضي الله عنه ، منذ أن عُهد إليه بتولي القيادة العامة في جبهة الشام وترك جبهة العراق :

يتضح مما سبق أنه لما وسدت القيادة في الشام إلى خالد بن الوليد كان لا يعرف عن أوضاع الجيش العربي فيها سوى ما كتب اليه الخليفة به وهو يتلخص بأن قوات الجيش الاسلامي متفرقة في مختلف مناطق الديار الشامية ، وأنها تلقت الاوامر بالانسحاب الى الجنوب تلقاء اليرموك ، قبل أن يداهمها جيش الرومان ويفتك بها على الانفراد وهي متفرقة تفصل بينها مسافة شاسعة وهي بعيدة كل البعد عن حدود بلادها ، وقواعد حركاتها « أس الحركات » . هذا كل ما يعمله القائد العام عن الاوضاع الحربية بالشام ، وأول ما يرد على الخاطر عند تدقيق هذه الاوضاع أن يختار ابن الوليد أقصر الطرق وأسلمها ، ليبلغ بفرقته محل التجمع العام الذي هو وادي اليرموك .

فإذا نظرنا الى خريطة جزيرة العرب وأنعمنا النظر في الطرق ما

بين الحيرة في العراق مجتمع فرقة ابن الوليد ومخرجها وبين وادي اليرموك هدف حركتها وموئلها ، نجد هناك أربع طرق يختلف بعضها عن بعض في الاتجاه والامتداد وقابلية المرور :

الطريق الاولى تسير مع نهر الفرات حتى دير الزور ومنه الى تدمر — حمص — دمشق — بُصرى — وادي اليرموك .

الطريق الثانية وهي الواقعة غربيّ الفرات تمرّ من دُومة — عين التمر — قُراقر — سُوى — أَرَك — الى تدمر — القرتين — حُوّارين — الغوطة — بصرى — اليرموك . وهذه هي التي سلكها خالد.

الطريق الثالثة : هي الطريق الثانية عينها حتى جوار خربة قصر الخباز الواقعة على نحو من ثلاثين كيلو متراً من موقع « كبيسة » ، ومن ثم تفترق عنها حيث تتبع درب الساعي القديم مارة من بئر المأوصة ، ومجتازةً بادية الشام الى موقع أبي الشامات فضمير فعذراء فدمشق فبصرى فوادي اليرموك .

الطريق الرابعة : تبتدىء من الحيرة ، وتتجه نحو الجوف — وادي السرحان ، وتؤدي توّاً الى الزرقاء — البلقاء — وادي اليرموك .

فالطريق الاولى وإن كانت تزيد على الثانية بضع عشرات من الكيلومترات من حيث الطول ، غير أنها أسهل الطرق اجتيازاً ، وأغزرها ماءً وزاداً ، وليس فيها من محذور إلا أنها الحدود الفاصلة

بين دولتي الفرس والرومان ، وأنها تحتوي بسبب ذلك على كثير من القلاع والابراج المحصنة ، وللرومانيين فيها حاميات كثيرة تمنع الجيش المخاصم من اجتيازها دون محاربات عديدة طويلة ، وليس لفرقة ابن الوليد آنئذ من مصلحة بقبول هذه التضحية ، لأنه كان يرمي قبل كل شيء الى الوصول بأسرع مايمكن الى الشام ، والالتحاق بالجيش العربي المرابط فيها .

أما الطريق الثانية وهي التي اختارها قائد الحملة فانها وإن كانت أقصر من الاولى وأقل منها خطراً لخلوها من قلاع العدو ومسالحه ، غير أنها تمرّ كما وصفنا من مفازة قاحلة طويلة ، لا يسلم المغامر فيها من الخطر إلا بمعجزة من القدر أو بأعجوبة من عجائب الصدف ، زد على ذلك أن في كلٍ من الطريقين محذوراً آخر ،هو أن كلاً منهما يقطنه كثير من القبائل الموالية للرومان ، ولا يمكن تجنب عدوانها دون بعض المعارك الدامية وإضاعة بعض الوقت ، كما أنه يخشى على القوة المارّة عليها أن تقع في شباك الجيش الروماني الذي ينتظر أن يسعى لاقتناصها منفردة ، ويحولَ بينها وبين التحاقها بالقسم الاعظم من جيشها .

وأما الطريق الثالثة : فانها وإن كانت أقصر الطرق وأصلحها للمرور ، لأنها الطريق المسلوكة في ذلك العهد لنقل البريد مابين

الشام والعراق ، إلا أنها كانت محمية بكثير من القلاع والحصون الداخلية ، ولذلك كان من الصعب إجتيازها ، لاسيما وهي تنتهي بحصون قلعة دمشق الحصينة من جهة الشرق .

الطريق الرابعة : هي أسهل الطرق وأسلمها ، وليس للمحاذير التي ذكرناها سالفاً أثر يذكر فيها ، ولذلك يمكن الجيش الذي يسلكها أن يبلغ هدفه بكل طمأنينة وأمان ، إذن فما السر في ترجيح ابن الوليد للطريق الثانية على ما فيها من مهالك ومصاعب ؟ هو ولا ريب جرأته النادرة ، واعتماده بعد الله تعالى على نفسه ، وثقته بجنده وحبه أن يطأ أرض الشام في أقرب وقت مستطاع ، ليصبح في إمكانه نجدة بعض القطع الأمامية التي لا يبعد أن يحيط بها العدو ويمنعها من الالتحاق بفرقها . وإن في قطعه هذه الطريق الصعبة ، من (عين التمر) إلى (مرج راهط) بثمانية عشر يوماً — مع ما اضطر إلى خوضه من المعارك في أثنائها — لأكبر دليل على فكرته الصائبة هذه ، وإلا فليس من مبرر قط لمجازفته تلك المجازفة التي قلّما يروي التاريخ لنا مثلها ، والتي دفعت به لاقتحام أشد مفازة من مفازات الصحراء ، ما سلكها قبله إلا النادر القليل ، ثم تعريض فرقته وحدها للجيش الروماني والقبائل العربية[1] الكثيرة الموالية لهذا الجيش التي لو ظفرت

(١) كان بعض هذه القبائل يدين بالنصرانية ، وبعضها لا يزال على وثنيته ، وكان رؤساؤها يتقاضون المرتبات من الروم .

به لما كان بلغ بفرقته اليرموك ولما كان ذاك الظفر العظيم فيه ، ولتأخر فتح الشام أمداً طويلاً .

إن حركة السوق الجيشية هذه التي دبر خططها خالد بن الوليد وقام هو بتنفيذها تعد من أجلّ حركات السوق الجيشية ، وأدقها وتكفي وحدها لرفع مستوى صاحبها إلى مصافّ القواد العظام ، وإذ أضفنا إليها الحركات الحربية الأخرى التي زين بها ابن الوليد صدر تاريخ العرب فيحق للعرب أن تفاخر بهذا القائد الكبير كما تباهي الأمم الأخرى بكبار قوادها ، أمثال أنيبال ، والإسكندر الكبير ، وفريدريك ، ونابليون ، وغيرهم .

وبمناسبة هذه الحركة الانتقالية السريعة التي قام بها خالد بين جبهتي العراق والشام ، والتي مرّ بها مؤرخو العرب مرّاً من دون أن يقدروها حق قدرها ، ويحلوها محلها ، أريد أن أذكر حركة تاريخية من نوعها شبيهة بها ، كان بطلها نابليون الأول ، وردت في تاريخ الحرب كمثال نادر على سرعة القرار وخفة الحركة ، وأطنب المحررون العسكريون في عظمتها كثيراً ، وهم يتخذونها هي وأمثالها من أكبر الأدلة والبراهين على عبقرية نابليون الحربية ، وانتقاله بسرعة البرق من ساحة قتال إلى أخرى ، مما حدا ببعضهم إلى نعته بالشخص الذي يوجد في آن واحد في أمكنة متعددة « Ubiquité ».

وخلاصة هذه الحركة أن نابليون حينما كان متوغلا عام ١٨٠٨ م داخل بلاد إسبانيا منهمكاً فيها بحرب طاحنة شنها على الشعب الاسباني لرفضه تتويج أخيه (جوزيف بونابارت) ملكاً على بلاده اتفق مخاصموه من الدول المجاورة على مهاجمة فرنسة ، منتهزين فرصة وجوده بعيداً عنها ، فحشدوا جيوشهم بكل سرعة لهذا الغرض ، فما إن شعر نابليون بذلك حتى ترك الحرب في جبهة الاسبان فوراً حيث لم يفز من شعبها المدافع بطائل يذكر ، وقفل راجعاً الى بلاده ثم جاوزها الى بلاد المانيا ، وبعد أن قاتل العدو المحتشد في (آنيسبرغ) وهزمه ، فتح لجيشه طريق (ويانه) ، وقهر خصومه في محاربة (واغرام) الشهيرة . فهل كانت حركة خالد ابن الوليد الحربية أقل شأناً مما ذكرنا ؟ وهلا كانت تفوقها مدى وجرأة ، وتفضلها عملاً ونتيجةً ؟ فابن الوليد كان ظافراً على جيش الفرس في العراق ، وقد أوشك أن يتم فتحه حين انتقل بسرعة البرق الى جهة الشام ، ونابليون لم يكن كذلك ، وابن الوليد لم يمرّ في طريقه على بلاد عامرة كبلاد فرنسة وألمانيا التي مر عليها نابليون ، بل كانت طريقه صحراء رملية تنهك الخف والحافر وتحفي الاقدام ، ليس لسالكها ما يدفع عنه حر الشمس القاتل سوى رداء الظلام ، ولا ما يسكن عطشه ويطفىء أواره غير النزر من الماء المغلي الذي يحمله الفارس على راحلته ، ومع ذلك كله فقد كان عرضةً للحروب من

جراء قبائل مسلحة معادية ، يمكن أن تداهمه من كل صوب ،وعرضة لجيش نظامي كبير يملك جميع معدات القتال ، ومن المحتمل الراجح أن يقطع عليه السبيل ، فبالرغم من هذه المخاطر الطبيعية والمادية كلها اخترق خالد بن الوليد رضي الله عنه جبهة الرومان وبلغ هدفه وفاز أخيراً في اليرموك بذلك النصر المبين ، الذي كانت نتيجته المباشرة أن افتتحت الشام ، وجلا الرومان عنها إلى الأبد ، وتأسس فيها ملك عظيم للعرب ، لا تزال ذكراه ترفع الرأس وتحيي النفوس : فخليق وايم الله بالعرب جميعاً أن يمجدوا خالد بن الوليد كأكبر قائد أنجبه الدهر لشعبهم ، فهو بلا ريب مفخرة كبرى من مفاخر تاريخهم ، وحق لهم أن يدلوا به على الأنام .

اجتماع الجيش العربي في وادي اليرموك

سار خالد بن الوليد رضي الله عنه من بُصرى إلى وادي اليرموك فبلغه في شهر ربيع الاول سنة ١٣ ، فالتقى هناك بأقسام الجيش العربي كلها ما عدا فرقة عمرو بن العاص ، فقد كانت هذه الفرقة معدّة لجبهة فلسطين ، وقد دخلتها من وادي العربة ، وتقدمت فيها شوطاً بعيداً ، مكتسحة حاميتها الصغيرة ، حتى كادت تستولي على معظم أرضها ، وخشي عند ذلك القيصر هرقل (هركليوس) أن تصبح البلاد المقدسة غنيمة باردة للعرب ، فبعث اليها أخاه (تهاودور) ويسميه

العرب (تذارق) ، على رأس جيش روماني ، فنزل هـذا الجيش في أعالي فلسطين بموقع يقال له ثنية جلّق [1] وانضم الى الجيش الروماني في ذلك الموقع حاميات فلسطين كافة ، وهي التي كان يقودها جرجين (سرجيوس) قائد منطقة فلسطين ، فبلغت قوة الروم المتجمعة هنالك زهاء سبعين الفاً ، ومن ثَمَّ أخذ الجيش بالزحف نحو فرقة ابن العاص ليُجليها عن فلسطين ، وعلى أثر ذلك انسحبت هـذه الفرقة نحو الأردن (غور فلسطين) كما بيناه آنفاً .

كانت الأوضاع الحربية لما هبط ابن الوليد وادي اليرموك على الشكل الآتي : جيشان كبيران للرومانيين يتأهبان لمقاتلة الجيش العربي ، أحدهما يتقدم من الشمال وهو أكثرهما عدداً وعُدداً ، وقد بلغ حينذاك مدينة حمص . والثاني جيش فلسطين المار ذكره ، وهو يسير عن طريق جنين — نابلس متأثراً فرقة ابن العاص ، ومهدداً أيضاً جناح الجيش العربي وخط رجعته في شرقي الأردن .

فكان قائد الجيش العربي في هذا الموقف بين أمرين : إما أن يأمر فرقة ابن العاص بالانسحاب الى ما وراء الأرْدُن ، والمرابطة على ضفته الشرقية ، لتمنع جيش فلسطين من اجتيازه ، وينتظر هو مع جنده

(١) بالنظر لمدقق علماء التاريخ من الغربيين يظن أن هذه الكلمة محرفة عن جنين Genaea الواقعة في ذيل جبال سامرا ومنتهى سهل اسدرلون Esdrélon

جيش الرومان الشمالي في ما وراء وادي اليرموك لمنازلته في هذا الموقع السهل الدفاع ، أعني إما أن يختار خطة دفاعية محضة تجاه الجيش ،وذلك ما يلائمه لضعف قوته ، وإما أن يترك الجيش الشمالي جانباً ويذهب بكل قواه لمحاربة جيش فلسطين أيان وجده ، فاذا ما قضى عليه وأمن شره عاد لمهاجمة الجيش الشمالي حيث بلغ ، أو تربص به في الموضع الذي يختاره للدفاع . ولهاتين الخطتين فوائدهما ومحاذيرهما : فالخُطة الاولى ، أي ترك فرقة ابن العاص على الضفة الشرقية من نهر الأُرْدُن ودفاعه هو في ما وراء اليرموك أو في موضع آخر ، وإن كانت تحفظ له خط رجعته وتؤمنه فيما إذا غُلب تجاه الجيش الشمالي واضطر الى الرجعة نحو قاعدة حركاته ، لكنها في الوقت نفسه تحرمه من معونة فرقةٍ من فرقه لها قيمتها الكبرى في ميدان حرب فاصلة ، لا سيما وإن جيشه قليل جداً بالنسبة لجيش خصمه . والخطة الثانية وإن كان ليس لها مثل هذا المحذور ، غير أنها تحتاج الى جرأة وسرعة عظيمتين ، لان الجيش العربي الذي جاز الاردن ودخل فلسطين إذا لم يفز سريعاً بطائل من جيش فلسطين وتأخر في الظفر عليه ، أدركه عندها جيش العدو الشمالي من جناحه أو من ورائه ، وأوقعه في مأزقٍ حرج ليس له منه مخلص ، وعند ذلك إما أن يستبسل حتى يهلك آخر جندي من جنده ، أو يستأسر كله لعدوه . فمن أجل هذا الاحتمال غير المستبعد كانت

الخُطة الثانية خطرة جداً . ولكن ابن الوليد من القواد الذين لا يعرفون للخطر معنى ، ولا يقيمون للاحتياطات الزائدة وزناً ، ينتهج دائماً الخطة التي توصله الى أعظم الظفر وأجّله ، غير مبالٍ عما يكتنفها من مهالك ومخاطر ، شأنه في ذلك شأن القواد العظماء الذين بدلوا مجرى التاريخ بجرأتهم النادرة ، ولذلك نراه يتخذ الخطة الثانية من دون أدنى تردد ، فيوعز الى فرقة ابن العاص بالتقدم نحو جيش فلسطين لتستدرجه الى جهتها ، موهمةً إياه أنها تأتيه وحدها ، ثم يسير هو بجيشه نحو الأُرْدُن معقباً فرقة ابن العاص التي أصبحت على هذه الصورة مقدمة الجيش العربي فيدركها وهي في أَجْنادَين[1] على مقربة من جيش فلسطين المرابط هناك ، فيقع في ذلك المكان في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ الموافق لـ ٣٠ تموز سنة ٦٣٤ م معركة هائلة بين الفريقين كانت الدائرة فيها الروم .

وعلى أثر انكسار الجيش الروماني في أجنادين أخذت فلوله وبقايا السيوف منه تتقهقر الى بيت المقدس (إيلياء) ، حيث دخلتها مذعورةً

---

(١) اختلف مؤرخو العرب والعجم في تعيين موقع أجنادين الحقيقي ، فمنهم من قال إنها بين الرملة وبيت جبرين ، ومن قائل إنها من أعمال منطقة الأُرْدن ، ومنهم من يدعي بأنها بين بيت جبرين واليرموك ، وبعض المدققين من مؤرخي الغرب وصفها بأنها بين الرام وبين أريحا ، والأغلب أنها على طريق القدس - أريحا ، بالنظر للأوضاع الحربية .

وتحصنت في قلاعها الحصينة . إن ظفر الجيش العربي مقدمة لنجاح حركة السوق الجيشية الهجومية الداخلية ،التي اعتزم تطبيقها ابن الوليد تجاه جيش خصمه المتفرق ، ولطالما حاول تطبيقها القائد الروماني تجاه الجيش العربي الذي كان متفرقاً على جبهة طويلة ، ولكنها تقتضي كما أسلفنا قائداً جريئاً وجيشاً سريع الحركة ، وهذا ما كان مفقوداً حينذاك في الجيش الروماني ، ومتوفراً لدى الجيش العربي ، فأخفق القائد الروماني ، حيث وُفِّق القائد العربي ، لم يبق للجيش العربي وقد أمن بظفر أجنادين شرَّ جيش فلسطين ، إلا التوجه نحو الجيش الشمالي لخوض غمار المعركة الفاصلة معه ، ولهذه الغاية ترك فلسطين وعبر الأُرْدُن مولياً وجهه شطر اليرموك .

وضع الجيش الروماني الحربي قبل وقعة اليرموك

المفهوم أن قائد جبهة فلسطين تهاودور (تذارق) بعد أن وجّه جيش فلسطين لفرقة ابن العاص بقيادة أحد أمرائه وهو ماسماه العرب تارة أرطبون[1] وأخرى قُبُقْلار ، وتولى هو قيادة الجيش الكبير بالنيابة عن أخيه القيصر الذي ظل في حمص يترقب النتيجة وعدا الجيش الزاحف بالنجدات المتوالية ، ولما بلغه هزيمة جيش فلسطين في موقعة

(١) الأغلب أن هذه الكلمة محرفة أو معربة عن كلة Tribun ومعناها عند الرومانيين قائد فرقة .

أجنادين أوعز الى أخيه أن لا يتوغل كثيراً في الجنوب ، بل يختار موقعاً دفاعياً حصيناً ينتظر فيه هجوم الجيش العربي ، وعلى أثر ذلك اختار القائد الروماني وادي اليرموك كموضع دفاعي متين ، حيث عبأ جيشه على ضفته اليمنى (الشمالية) . وهذا الموقع الذى انتخبه قائد الجيش الروماني للمدافعة بالنظر للأوضاع الحربية وللتشكيلات الارضية من أحسن المواضع الدفاعية وأمتنها : نهر الأُرْدُنّ وبحيرة طبرية عن يمينه يحميان جناحه الأيمن ، ووادي اليرموك يحفظ له جبهته وقسماً كبيراً من جناحه الأيسر ، وله من ورائه طرق أمينة تضمن له إتصالاته الدائمة بالداخل والساحل ، بحيث تأتيه الذخائر والنجدات بكل سرعة وسهولة ، والمحذور الوحيد في هذا الموضع هو إمكان إحاطته من جناحه الأيسر فيما إذا لم يكن هنالك قوات احتياطية زائدة تحول دون ذلك ، وهذا متوفر جداً لدى الجيش الروماني ، وبالإجمال فان تصميم قائد الجيش الروماني على المدافعة بدلاً من التعرض ، واختياره موضعاً كثير المَنَعة لما يدل على ضعف معنوياته ، وفرط تخوفه من خصمه ، ولا شك في أن لهزيمة أجنادين معظم الأثر في ذلك التضعضع الشائن .

ظل الجيش الروماني شهراً ونيفاً في هذا الموضع يستكمل أسباب دفاعه ، ويرفع من معنويات جنده ، غير تارك وسيلة من وسائل النصر

إلا ومهد لها السبل حتى لجأ إلى القسيسين والرهبان فأنزلهم بين الجنود ، ودعاهم لاستثارة العواطف الدينية فيهم . بلغ الجيش الروماني في اليرموك زهاء مائتي ألف بين فرق رومانية منظمة ، وكتائب أرمنية متطوعة ، وقبائل عربية موالية ، كغسان وقضاعة وغيرهما ، ولا ينقص هذا الجيش العرمرم شيء من المعدات الحربية والذخائر والوسائل النقلية ، على النقيض من خصمه الذي يكاد يكون كل ذلك معدوماً لديه .

وضع الجيش العربي الحربي في وادي اليرموك

بلغ الجيش العربي كله جوار وادي اليرموك وعسكر في الناحية الجنوبية منه ، وكان عدده أربعين وقيل خمسة وأربعين ألفاً من خيرة المجاهدين . وأخذ قائده خالد بن الوليد رضي الله عنه يستعدُّ للقتال ، ويستطلع حالة خصمه ويستكشف مواضعه ، ويدقق في تشكيلاته وطراز تعبيته ، فاتضح لابن الوليد بعد هذه الاستطلاعات أن لاقِبَل له بمحاربة خصمه على النمط الحربي المتبع في جيشه حتى تلك الساعة ، واقتنع بأن لابدَّ له من تقسيم جيشه وترتيبه على طراز الجيش الروماني ، فعمد إلى تنسيقه وفق الأصول الرومانية ، فجعل يقسمه إلى كراديس[1] فبلغ مجموع هذه الكراديس (٣٦ — ٤٠) كُرْدُوساً ، عين لكل منها

(١) جمع كردوس محرفة أو معربة عن كلمة Kortis الرومانية وهو بمثابة كتيبة.

قائداً، فكان من القواد ولده عبد الرحمن وعمره ثمانية عشر عاماً ، ومنهم شاعرا فرقته القعقاع بن عمرو وزياد بن حنظلة ومنهم البطل المغوار عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهم ، ثم ألف من هذه الكراديس فرقاً (من ١٠ إلى ٢٠ كُردُوساً) وجعل على كلٍّ منها قائداً كبيراً ، وخصص للقلب (المركز) فرقةً قائدها أبو عبيدة بن الجراح ، وللميمنة فرقةً قائدها عمرو بن العاص وفيها شُرَحْبيل بن حسنة وهي أقوى الفرق وأعظمها ، وللميسرة فرقةً عليها يزيد بن أبي سفيان ، وجعل مقره القلب ، ولديه من هيئة أركان المقر (مقر القيادة العامة) أبو الدرداء قاضي الجيش ، وأبو سفيان بن حرب القاص (١) وعبد الله ابن مسعود مأمور الأقباض (٢) وما عدا هذه التقسيمات أقام أمام جبهة جيشه طلائع (٣) وظف عليها قباث بن أشيَم ، والخلاصة أن ابن الوليد لم يشأ أن يزجَّ جيشه في معركة حاسمة مع الجيش الروماني قبل أن يستعدَّ لها ما استطاع ، وكانت تعبئته الحربية تعبئة جديدة للعرب ، لم

---

(٢) خطيب الجيش الذي من أعماله حضُّ الجنود على الجهاد وتحريضهم على الثبات وإيصال أخبار الحرب للفرق المحاربة واطلاعها على كل ما يحدث في الفرق المجاورة لها وغير ذلك وهي تعادل في يومنا وظائف الأركان الحربية في الجيوش الحديثة .

(٢) رئيس الميرة وهو الذي يؤمن جميع حاجات الجيش ويجمع الغنائم الحربية ويوزعها .

(٣) خفراء الأمام .

يعبئوا مثلها في ما سبق ، وعلى ذلك يُعد خالد بن الوليد رضي الله عنه أول قائد مجدّد في فن الحرب العربي ، باقتباسه التعبئة من الخصم المرابط أمامه المتأهب لقتاله ، ثم إستعماله إيَّاها فوراً دون أن يتاح لجيشه التدرب عليها مدة كافية مما يبرهن على نبوغه العظيم ، وعبقريته الممتازة ، وعلى مُرونة الجيش العربي وقابليته الحربية .

المفاوضات السياسية قبل المعركة

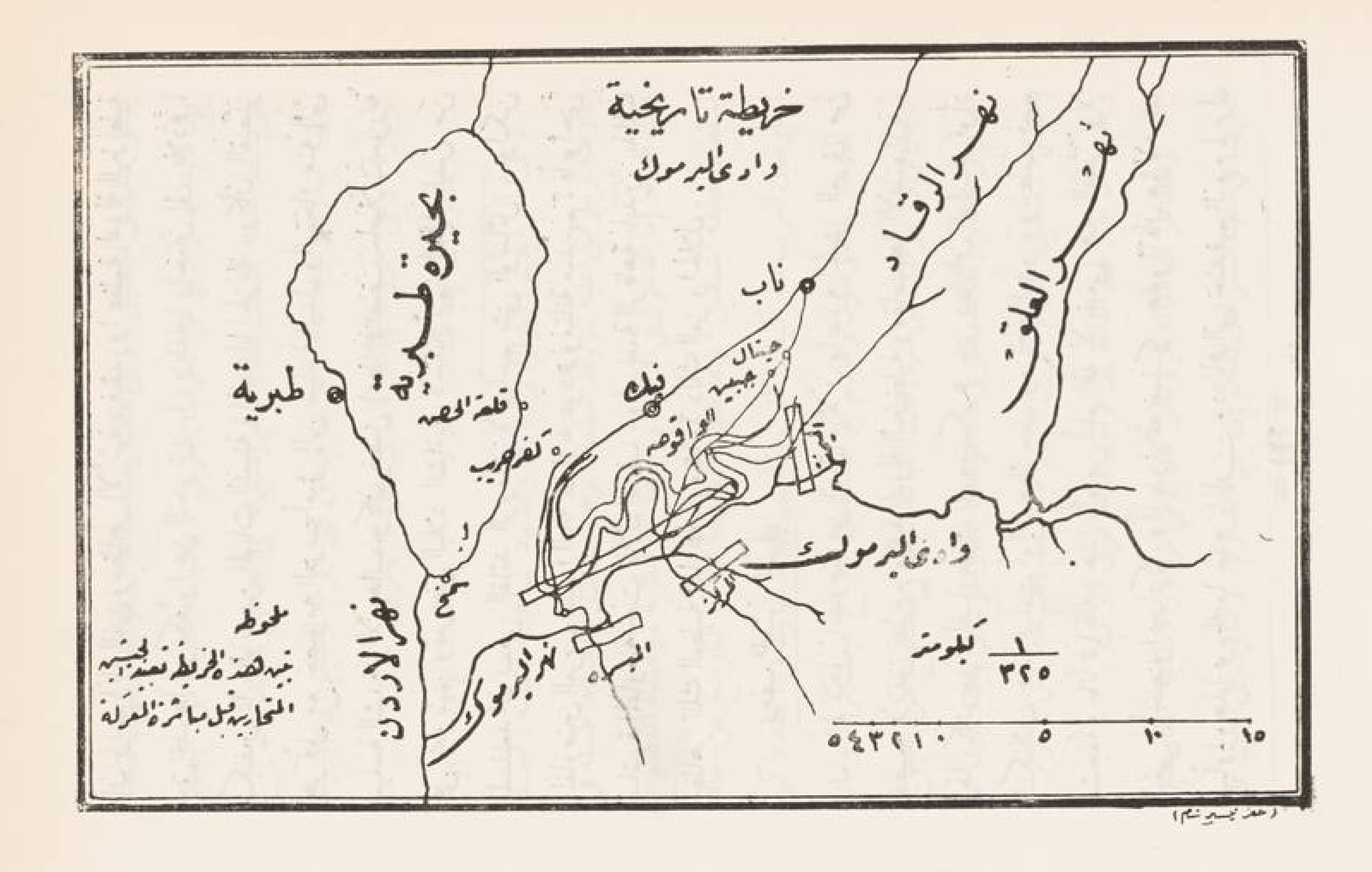
لما أتم الجيش العربي ترتيباته ، واستعد لمهاجمة خصمه ، أخذ يفاوضه ويعرض عليه شروط صلحه ، وهي حسب القاعدة المتبعة في ذلك العهد: إما الدخول في الإسلام ، وإما أداء الجزية ، ومعناه الخضوع لسلطان خليفة المسلمين ، ومما يلفت النظر ما نقله لنا التاريخ عن حالة المفاوضين العرب ، وكيف كانت مقابلتهم للقائد الروماني : فقد ذكر أنه لما وصل المفاوضون وعليهم أبو عبيدة بن الجراح معسكر الرومان أدخلوهم إلى سُرادق من سرادقات القيادة العامة ، مصنوع من الديباج مفروش بأفخر المقاعد الحريرية ، فوقف المفاوضون في باحته دون أن يجلسوا ، مبدين عذرهم بأن دينهم لا يسمح لهم بافتراش الحرير ، وطلبوا أن يبرز لهم القائد إلى فرش ممهدة فوق التراب .

والظاهر أن القائد الروماني كان يرمي من وراء مقابلة المفاوضين العرب في ذلك السُرادق الفخم إلى بهر أبصارهم والتأثير على معنوياتهم

بأن يريهم آثار الغنى ومظاهر الأبهة ، فيقدروا عظمة الدولة البيزنطية حق قدرها ، ويكفوا عن التحرش بها ، ويقفلوا راجعين إلى بلادهم ، مكتفين بما ينالونه من الهبات الثمينة والهدايا الجزيلة ، وكان القيصر هرقل مع خصومه العرب أميل إلى سياسة البذل والسخاء منه إلى سياسة الشدة والإرهاب،وكان يفضل إعطاءهم نصف حاصلات سورية على محاربتهم وتعريض البلاد الشامية لاستيلائهم ، لذلك ليس من المستبعد أن يسعى القائد الروماني لاغرائهم بشتى الوسائل ، ولكن المفاوضين العرب خيبوا آماله بصلابة عودهم ومتانة مبدئهم ، فأبوا حتى مباشرة المفاوضة تحت ظلال الترف ، وفي نعمة الرفاهة نابذين بذلك مظاهر تلك العظمة الفارغة ، ومشاهد ذلك العز والجلال .

زحف الجيش العربي

لم تنجلِ المفاوضة عن اتفاق . لأن مايطلبه الجيش العربي من خصمه لايتفق قط مع مكانة الدولة البيزنطية ومقاصدها الاستعمارية . وما كاد يعود المفاوضون الى معسكرهم حتى دعا ابن الوليد قواد الكتائب جميعاً ليبلغهم أوامره بالزحف ومهاجمة العدو ، وخطب فيهم مشجعاً وحاثاً فما قاله : هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم . هلموا فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل


خريطة تاريخية
وادي اليرموك
بحيرة طبرية
طبرية
قلعة الحصن
نهر الاردن
نهر اليرموك
وادي اليرموك
نهر الرقاد
نهر العلان
جبال
الواقوصة
ملحوظ
تبين هذه الخريطة تعبئة الجيشين المتحاربين قبل مباشرة المعركة
١/٣٢٥ كيلومتر
٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠ ٥ ١٠ ١٥

نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ثم أمرهم بالتقدم نحو مواضع العدو على الترتيب الآتي :

فرقة القلب تواجه قلب العدو (أي مركز قواته) .

فرقة الميسرة تقابل جناح العدو الأيمن .

فرقة الميمنة تطوق جناحه الأيسر .

وحين بلوغ الجيش مواضع القتال واستعداده لشن الغاره دعا ابن الوليد المقداد لتلاوة سورة الأنفال ، عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، حيث كان يتلوها عليه الصلاة والسلام قبل الشروع في القتال ، فتلاها المقداد رضي الله عنه بصوت شجي أثار العواطف ، وهيج النفوس ، وحبب اليها مصير الشهداء في جنة الخلد والنعيم .

وكان لترتيبات التعبئه التي اتخذها القائد العام للجيش العربي أثرها الفعال في إخراج الرومانيين من مواضعهم الدفاعية ، واضطرارهم الى منازلة الجيش العربي بالعرآء ، ضمن وادي اليرموك ، لأنهم خشوا سوء العقبى من الحركة الالتفافية التي قامت بها فرقة عمرو بن العاص نحو جناحهم الأيسر ، والتي كانت تهددهم بالتطويق والحصار ، وكان قائد الفرقة عمرو على صواب حين قال لجنده وهو تجاه الجناح الروماني : أبشروا حُصرت والله الروم ، وقلّ ما جاء محصور بخير .

خرج الجيش الروماني من مواضعه الدفاعية وعليه قائده تهاودور (تَذارق)، وفي مقدمته البطريق (Patrice) جرجيوس (جرَجه) وعلى مُجنّبتيه (جناحيه) القائدان باهان والدُّراقص، ولما شاهد العرب الجيش الروماني على هيئته المهيبة وقوته الجسيمة طرأ على بعض أفراده شيء من الوهن مما حدا بأحدهم إلى أن يقول لابن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فأجابه فوراً: ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) براءٌ من تَوجيّه وأنهم أضعفوا في العدد. فأكرم به من قائدٍ شجاع يعرف كيف يحيي ميت الرجاء في ضعفاء النفوس، ولقد أدرك ما بمخاطبه من وَهن وخَوَرَ في العزيمة ويأس من الظفر، فشجعه وأفهمه بأن الكثرة في الجيوش المحاربة ثانوية بالنسبة للقيمة المعنوية التي هي المعيار الحقيقي في تقدير قوة المتحاربين.

ولما دنا الجيشان بعضهما من بعض، وحانت ساعة النزال، أمر خالد بن الوليد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو وهما قائدا كُردوسين في القلب أن ينشبا القتال، فصدعا بالأمر مرتجزين الشعر

على عادة العرب في حروبهم ولم تمض برهة حتى اشتبك الفريقان ، وتطارد الفرسان ، وكل كُردوس من كراديس العرب يقابله خمسة أمثاله بل أكثر من كراديس الرومان ، فأبلى المجاهدون البلاء الحسن ، لكن كثرة أعدائهم وتفوقهم في المعدات الحربية أجهدام كثيراً ، حتى اضطر بعض الصفوف إلى التقهقر أمام حملات مهاجميها ، وفرت قبائل العرب التي التحقت بالجيش الاسلامي بالشام من لخم وجُذام ، تاركةً ميدان المحاربة خيفة أن ينتصر الجيش الروماني على المسلمين ، فيبقوا هم وقبائلهم عرضةً لانتقام حكام الرومان وغضبهم . وكانت ساعة رهيبة خشي العرب فيها ضياع آمالهم ، ولقد دعا حرج الموقف وتراجع بعض الصفوف نساء المجاهدين إلى خوض غمار الهيجاء ، فانبرى الكثيرات منهن يقاتلن قتال الأبطال ، وكانت بينهن جُويرية بنت أبي سفيان أخت معاوية ، وكانت مع زوجها ، وأم حكيم بنت حارث بن هشام وغيرهما ،وكان بعضهم يضربن وجوه الخيل إذا ولت ، ويصحن في وجوه المدبرين من الرجال : إلى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة ؟ . فكان لمنظر النساء وهن يقاتلن العدو بالسيوف والرماح ، ويرددن الفارين بالعصي والصياح فعله العظيم في إثارة نخوة الرجال وتثبيت أقدامهم ، كان القاضي أبو سفيان لاينفك يتنقل بين

الصفوف فيحرضها على الثبات ، ويحفزهـا إلى الكر ، ومن كلماته المؤثرة في نفوس المجاهدين: الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك . وظل على ذلك حتى أصابه سهم في عينه أفقـده إياها .

وكان للموقف المشرف الذي وقفه البطل المغوار عكرمة بن أبي جهل الفضل الاكبر في إمالة كفة الظفر ،فانه أخذ ينادي بين صفوف المجاهدين وقد بلغت الحماسة منه أشدها : قاتلت مع رسول الله ﷺ في كل موضع وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعمائة من نخبة فرسان المسلمين وخيرتهم ، وتقدمت هذه الفئه المستبسلة المتعاهدة على الثبات حتى الموت أمام فسطاط القـائد العـام ، وأخذت تقـاتل تحت راية العدو المتكالب قتال المستميت ، حتى قضى أكثرها شهيداً وجرح الباقي وفيهم عكرمة وولده عمرو ، وقـد احتضنهما خالد بن الوليد وجعل يمسح عن وجوههما ، ويقطر في حلوقهما الماء ، حتى توفيا رحمهم الله تعالى جميعاً .

غير أن هذه التضحية الكبرى لم تذهب سدى ، فقـد كان من نتائجها الباهرة أن ارتدت صفوف العدو على أعقابها ، وحمل القلب حملةً

واحدةً على فرق العدو المتراجعة ، حتى ألقاها في منخفضات وادي اليرموك ، وحال بذلك بين الخيل والرجل ، فأخذ الخيالة يلتمسون لأنفسهم مخرجاً ، ويتحرون لهم مهرباً ، فلم يشأ المجاهدون إحراجهم فأفرجوا لهم ، وتركوهم يهيمون على وجوههم في طول البلاد وعرضها.
ثم تقدم الجيش العربي صفاً واحداً نحو الخنادق التي لاذ بها مشاة الروم ، وأخذ يعمل السيف فيهم ، وكانت ملحمة دامية عظمى سالت فيها الدماء الغزيرة تسقي وادي اليرموك ، الى أن مالت الشمس الى غروبها ، ودب الذعر والفوضى في الجيش الروماني ، وقنط قواده من النصر ، وعمت فيهم الهزيمة ، فمن نجا من القتل في الخنادق هلك بعد انهزامه في هوّة الواقوصة التي كان يلتمس الخلاص من طريقها الوحيد، ومما زاد في أسباب هلاكهم في الواقوصة اقتران كل عشرة منهم بحبل أو سلسلة ، وكانت هذه الأصول من جملة التدابير التي اتخذها القائد الروماني في محاربة اليرموك بقصد الثبات المطلق في موضع الدفاع ، ومنع الجنود من الفرار ، وكانت هذه القاعدة مرعية عند الرومانيين والفرس في أكثر الحروب ، ولقد شهدوا الجمّ من فوائدها من قبل ، وأما في هذه المعركة فقد كانت وبالاً على الجيش الروماني، إذ كان الجندي الواحد إذا ألقى بنفسه في منحدر الواقوصة،

وهو المخرج الوحيد له من ساحة القتال اجتذب اليه التسعة المسلسلين معه ، فنتج عن ذلك الهلاك الذريع ، ولقد أعان على ذلك ما غشي أبصارهم من ظلمة الليل ، وأفئدتهم من ظلمة الذعر الذاهب بالألباب .

ولما حلت الهزيمة الشنعاء بالجيش الروماني ، ولم يبق للقواد من سيطرة على الجنود الفارّين ، وأصبحوا بين أمرين لا ثالث لهما : إما الموت ، وإما الأسر أذلاء ، فضلوا الاولى على الثانية ، ديدن الطبقة الشريفة من الرومانيين في حروبهم ، ولكيلا يبصروا ما نزل بجيشهم من النكبة الأليمة وما سيحل بهم من سوء المصير أخذوا يجلّلون وجوههم بأطراف برانسهم مستقبلين سيوف العرب تفصل هاماتهم بكل صبر وثبات ، وما كاد يسفر صبح تلك الليلة الدهماء حتى كان جيش المسلمين قد استولى على جميع مواضع العدو الذي هلك معظمه وتقهقرت فلوله نحو دمشق . ويقدر المؤرخون قتلى الجيش الروماني في تلك المعركة بمائة وخمسين ألفاً أو أكثر . وشهداء الجيش العربي بثلاثة آلاف أو زُهائها ، وكانت هذه الوقعة الكبرى في ١٢ رجب سنة ١٣ هـ الموافق لـ ١١ ايلول سنة ٦٣٤ م

وقبل أن نختم هذه المحاضرة نرى من المناسب تدقيق بعض صفحات هذه المحاربة من الوجهة الفنية الحربية لأنها كانت أولى

المعارك العظمى التي خاض غمارها الجيش العربي الحديث ، في مطلع النهضة العربية الاسلامية ، تجاه جيش منظم عريق في ممارسة الحروب ضليع بأدق فنونها ، مما يجعل للظفر فيها قيمة عظيمة ، بالنظر لضآلة عدد الجيش الظافر ، وحديث عهده بأصول الحرب النظامية ، فضلاً عن أنه اقتبس هذه الاصول من تشكيلات خصمه أثناء المحاربة حينما وقف معه وجهاً لوجه ، وليس في زمن السلم حيث يكون لديه الوقت المتسع لتدريب قطعاته على الأصول الجديدة المقتبسة ، كما هي العادة في جيوش الأزمنة المتأخرة ، لذلك نقول :

إن أول ما يلفت النظر في هذه المحاربة الترتيبات التعرضية التي اتخذها قائد الجيش العربي العام خالد بن الوليد رضي الله عنه تجاه جيش خصمه الكبير ، وهي تتلخص بأمرين : هجومه عليه من جبهته ، وإحاطته به من جناحه الأيسر ، ولا ريب في أنها خطة حربية صائبة بالنظر لموضع الرومانيين وتعبئتهم في ما وراء وادي اليرموك ، وكان من جراء حركة الإحاطة التي أدارها عمرو بن العاص بمهارة كبيرة أن اضطر الجيش الروماني الى الخروج من خنادقه ، والمحاربة في سهل الوادي ، مما أفقده مناعة موضعه الدفاعي وصيانة جيشه ، وكان لذلك معظم الأثر في تحويل غلبة الجيش الروماني الى هزيمة شنعاء ، ومن

الحركات الجديرة بالذكر أيضاً في هذه المعركة ، إحداث الجيش العربي فرجةً متسعةً لخيالة العدو في صفوفه تهرب منها عندما انفصلت هذه الخيالة عن مشاتها بسبب الحركة الهجومية التي قام بها قلب الجيش العربي في أشدّ أدوار القتال .

ومن الملحوظ أن يتبادر الي الذهن أنه كان من الانسب الأوفق لقواعد الحرب أن لا يسمح لهذه الخيالة بالهرب ، بل يُحمل عليها لإبادتها أو أسرها بدلاً من الافراج لها وتركها تذهب وشأنها .وقد حدثت في الحرب العامة الأخيرة حركةٌ إفراجية مماثلة لهذه الحركة ، ولعل السبب الباعث على الحركتين واحد مع تطاول العهد وتطور أصول الحرب تطوراً يكاد يكون غير قابل للقياس مع ماسبقه. وإتماماً للفائدة وزيادة في تقدير مهارة قائد الجيش العربي ودربته الحربية في ذلك الزمن ، رأينا من المناسب ذكر هذه الحركة الإفراجية التي حدثت في الحرب الكونية الأخيرة على مقربة من اليرموك محل الحادثة الأولى .

في شهر أيار من عام ١٩١٨ ميلادية استولت فرقة خيالة للجيش الانكليزي في جبهة فلسطين على موقع الصلت عنوةً وطردت الحامية التركية منه ، ولما كان هذا الموقع شديد التأثير على جبهة الحرب

التركية بأسرها قرر قائد جبهة فلسطين التركية، وهو الجنرال الألماني المعروف فون ساندرس ليمان باشا أن يسترده فوراً مهما كلفه الأمر. فأوعز إلى الجيش الرابع وإلى فرقة الخيالة الثالثة في مهاجمة الصلت واشرف هو على حركة الهجوم، وبدلاً من أن يجعل نقطة الهجوم الاصلي جناح الفرقة الانكليزية وخلفها ليحيط بها ويأسرها كلها اكتفى بتوجيه الهجوم عليها من الشمال، مستهدفاً جبهتها فقط، وخالف بذلك رأي أركان حربيته التي كانت لاتنفك ترجو منه تطويق الفرقة الانكليزية من جناحها الأيسر، وقطع خط رجعتها عليها، وحجة القائد الالماني في ذلك أن القطعات التركية كانت تعبة جداً منهوكة القوى إلى حد يخشى معه أن لا تقوى على رد حملات الفرقة الانكليزية العنيفة التي ستضطر إليها هذه الفرقة عندما تصبح مهددةً بالاسر، عرضةً لنقمة الترك وغضبهم، لاسيما وإن العناد في الثبات مشهور عن العرق السكسوني في المواقف الحرجة، فلهذه الأسباب لم يشأ القائد الالماني إحراج الفرقة الانكليزية ففرج لها وتركها تذهب بالسلامة من حيث أتت.

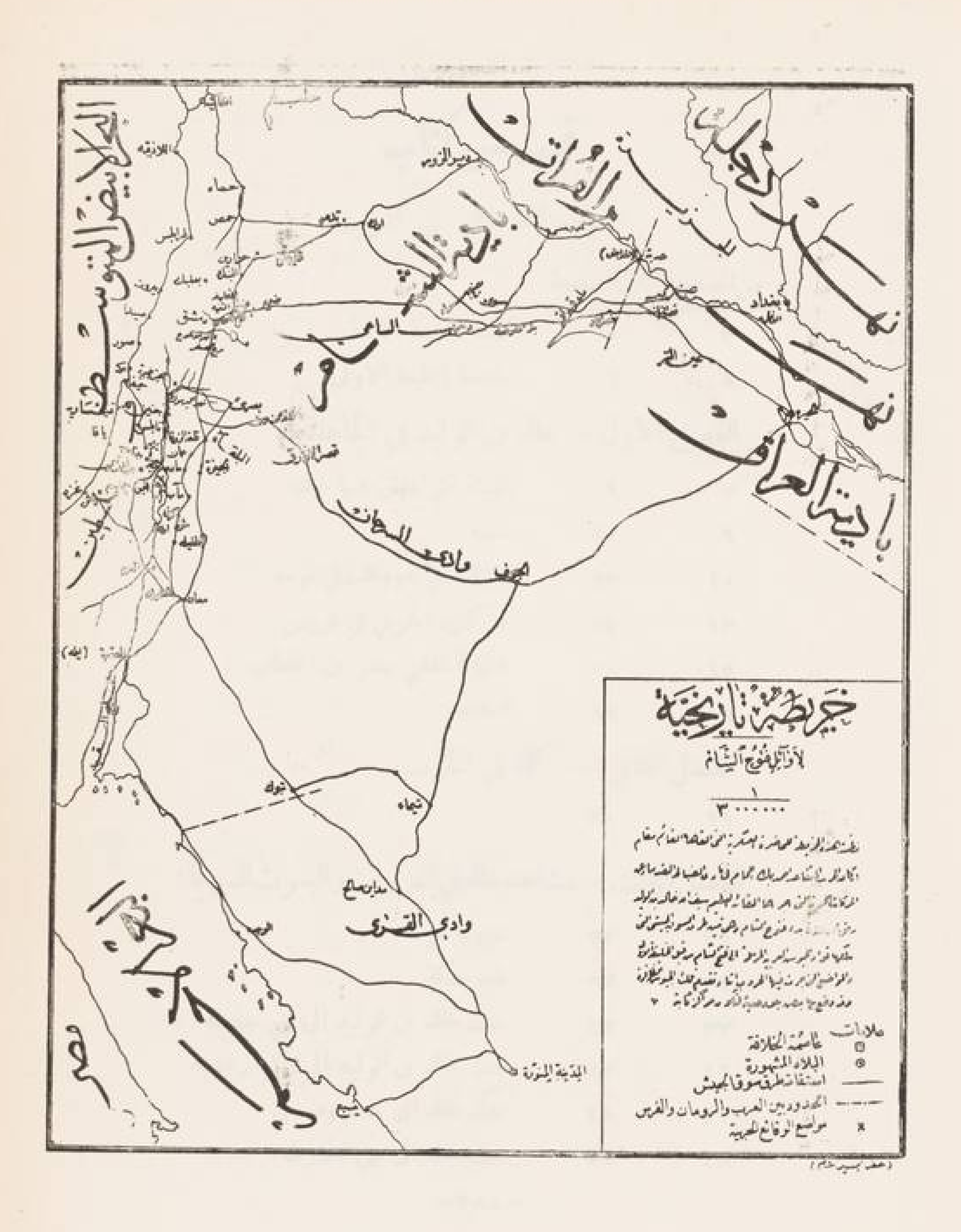
وهكذا قلد القائد الالماني في القرن العشرين حركة القائد العربي في القرن السابع، وحروب السلف كما تعلمون دروس للخلف. ولقد روي عن المارشال الالماني غولتس باشا أنه قال في القائد العربي خالد

ابن الوليد : إنه استاذي الأكبر في فن الحرب . فرحمك الله تعالى ورضي عنك يا ابن الوليد ، يامن كنت نابغةً من نوابغ الحرب في حياتك وغدوت مفخرة من مفاخر العرب الخالدة بعد مماتك .

هنا وعلى الشكل السالف الذكر تنتهي محاربة اليرموك الشهيرة التي مهدت للعرب أن يُجلو أقوى محتلّ استعمر بلادهم عدة قرون ، فالعرب مدينون برسوخ أقدامهم في هذه البلاد وإقامتهم أعظم دولة عربية فيها ، إلى ظفر اليرموك أولا ، وإلى قائده الاعظم خالد بن الوليد ثانياً وأخيراً .

رضي الله عنه وأثابه خيراً





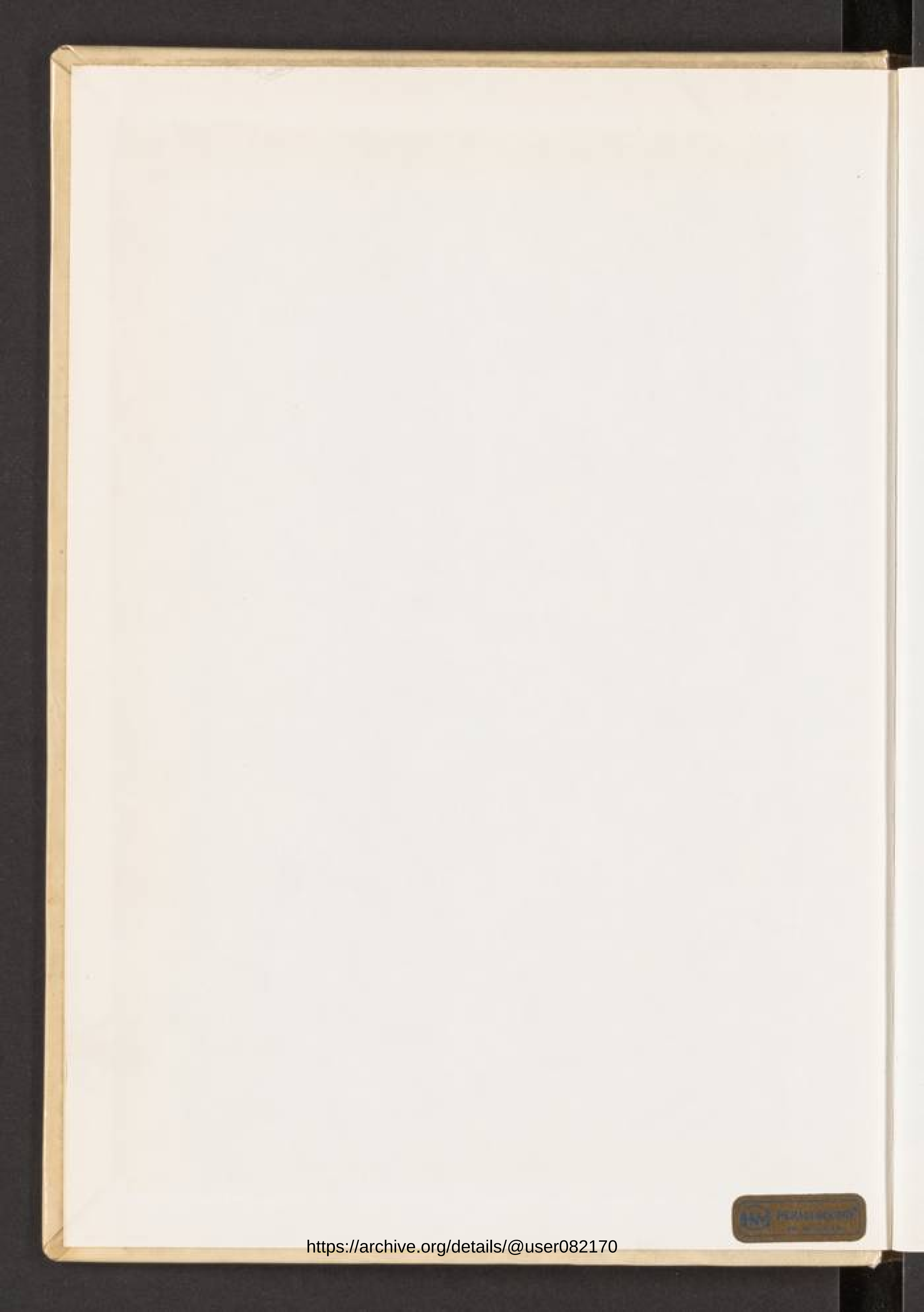
خريطة تاريخية
لأوائل فتوح الشام
١
٣٠٠٠٠٠٠
علامات
عاصمة الخلافة
البلاد المشهورة
استقامة طرق سوق الجيش
الحدود بين العرب والروم والفرس
مواقع الوقائع الحربية
نهر دجلة
نهر الفرات
بادية الشام
بادية العراق
البحر الأبيض المتوسط
وادي القرى
المدينة المنورة
تبوك
تيماء
مدائن صالح
بغداد
دمشق
حمص
حماه
مصر



فهرس كتاب

سيف الله خالد بن الوليد

فهرس المحاضرة العسكرية





آثار المؤلف المطبوعة

افريقية الغربية البريطانية (نفد)

اعلام النساء (خمسة أجزاء)

العالم الاسلامي (جزءآن)

جغرافية شبه جزيرة العرب

معجم قبائل العرب (ثلاثة أجزاء)

فهرس مجلة المجمع العلمي العربي (الجزء الاول)

معجم المؤلفين (الجزء الاول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع)

مطبعة الملاح بدمشق – ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م